

بنسالم حميش

# مَعْدَبَتِي



رواية

دار الفاروق

AR.FrenchPDF.com

الطبعة الأولى يناير ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٤٤٥٨/٢٠٠٩

ISBN 978-977-09-2746-1

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيدي بيه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٢٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# مَعْدِنَتِي

رواية

**إهداء**

إلى روعي سعيدة لمنبهي

وإدريس بنزكري

متى استعبدتمُ الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا  
عمر بن الخطاب

## توطئة

«عزيزي حمودة،

إذا شق عليك أن تصير خديمَ أعتاب الطغاة وخططهم  
الجهنمية، جاسوسا مخترقا، عميلا مزدوجا، قاتلا أجيّرا،  
فعليك بمراودة حلٍّ قد ينجيك لو أتقنته: أن تتحامق  
وتتمارض... دوّخ مستنطقيك بأعنى كلام الحمقى والمجانين،  
هدد معذبيك بسعالك وعدوى مرضك، لعل وعسى أن يأسوا  
منك، فيعيدوك إلى موطنك أو قريبا منه مخدرا بأفيون، تصحو  
منه وأنت مراقب بدمليج إلكتروني ومستهدف برصاصة في  
الرأس، تصيبك ولا تخطئ، إذا ما رويت قصتك من حولك أو  
رفعت في شأنها شكاية ضد مجهول...».

نعم يا نعيمة، أنعمك الله ونعمك...

بطاقتك التي دسستها في جيبي خلصة وترجيتني أن أتلّفها  
بعد قراءتها، بطاقتك الثمينة حفظتها عن ظهر قلب، وأطعمتُ  
أمعائي بورقها وحبرها، وأشهد أنني مدين لها بنجاتي حيّا من

غياهب معتقل رهيب. لولاها كنت سأقضي سنوات أخر تحت  
تعسفات حراسة نظرية لا محدودة وتوالي حصص التعذيب،  
التي كانت تباشرها وتسهر عليها الجلادة المتوحشة الخيرة،  
السيئة الذكر والصيت، المسماة ماما غولة.

الآن وقد رجعت إلى مكبتي - مسكني، التي عاثت الفئران  
والحشرات فيها فسادا طوال سنوات سجنني، كيف لي أن  
أخرج إلى شوارع مدينة وجدة وساحاتها وأسواقها وجوامعها  
من دون أن ألقى الناس وأحادثهم، أن أبلسم جراحي بعونهم،  
وأتنسم حريتي المستعادة في وصلهم وعشرتهم، وذلك ريثما  
أستطيع السفر إلى بلدة واد زم لأبحث عن أمي، فأجدها حية  
ترزق أو في قبرها وقد التحقت بجوار ربها الأكرم؛ لكن إذا  
ما فعلت، كيف أبرر لمن سيتذكرني من الناس - على قلتهم -  
غيبتي الطويلة ونحولي البليغ واشتعال رأسي ولحيتي شيئا؟  
وإذا حدث أن استدرجني أذكاهم إلى الإخبار عن وقائعي، فهل  
أرويهما تحت شعار الصدق والصفاء، أم بشتى أفانين الاختلاق  
والتمويه، والمخاتلة والتزوير؟ في كلا الوجهين، أراني بين  
نارين، نار مصوبة إلى رأسي أو من دمليج إلكتروني إلى قلبي  
لن تخطئني إذا أطلقت، ونار الافتراء والكذب وما ينجم عنهما  
من ازدراء ذاتي وتبكيك الضمير.

لعل لزوم الصمت، مع التعويل على مرور الوقت، هو  
الحل إذا ما اقترن بلزوم البيت؛ لكن اللزومين يستحيلان، لا

ريب، إلى سجنين في حالة امتداد أمدهما وانسداد أفقهما. عند جريح سنوات اعتقال همجيٍّ مريرٍ مثلي، كل سجن، ولو خفّت معاناته، يستثير أعصابه ويدير السكين في جروحه.

قلت الروية الروية، ريثما ينقشع غيم التردد والحيرة، وتخفّ وطأة الغمة.

في فترة أولى، ارتأيت أن مخالطة الناس ممكنة في أمكنة معلومة، لكن باتخاذ أسباب الوقاية والحيطه، وجعل عوامل الاحتراز والتستر في خدمتي؛ منها مثلاً اجتناب الخروج من مكمني في النهار الجهار، حيث درجات الشفافية والانكشاف تبلغ أوجها ومداهما؛ ومنها مع هبوط الليل، حتى لو تلبدت سماؤه ودمس، أن لا يتم ذلك الخروج إلا ورأسي محفوظ تحت خوذة معدنية مقواة، إلا وعليّ صدرية واقية من الرصاص. صنعتُ هاته بنفسني مسخراً قطع صلب وحديد بطنتُ بها سترتي الجلدية، واشتريتُ تلك من خرّدة بظاهر المدينة قصدها متنكراً تحت جنح ظلام صاعد.

في الشوارع والأزقة ذات الحركة المتناقصة ليلاً والأضواء المعطلة أو الشاحبة، كانت عيونٌ هنا وهناك ترمق زبّي الغريب، لكن من دون أن تجعلني محطّ أنظار، ربما ظناً منها أنني سائق دراجة نارية ترّجل ونسي أن يخلع خوذته. أما في المخازن والمطاعم والمقاهي، فقد أخذ هندامي يثير أكثر فأكثر فضول الزبائن ولمزهم وهزّهم، وذهب الصبيان والشباب إلى



مناوشتي وإطلاق اسم كوسمونوط بساط الريح عليّ، مما حدا بي إلى إلغاء تلك الأمكنة من جدول جولاتي.

ما عدا الفضاءات الخالية من الآدميين، لم يبق لي إلا جوامع المدينة التي بُتُّ أرتادها تناوبا قليل صلاة العشاء، لعلّي أصرف العيون عني أو أضعف اهتمامها بي. لكن بعد كروور الليالي بدأ أمري يعصى ويتعصلج مع المصلين، حليقي الرؤوس وسافريها وذوي الطاقات والعمائم، وكلهم في نازلتي من الوقافين عند العجب دون السبب والظاهر دون الجوهر، ووقتهم ضيق لا يسعهم لغير ما هم عليه من الجهل بما وقع لي وحصل. ولو قبل بعضهم سماع تنف من ذلك أرويهـا - وأنى لي أن أفعل! - لانفضوا عني بعد حين، مديرين سباباتهم في صدوغهم، مكذّبين.

تجنبنا لأي سوء تواصل مع الناس والمصلين لزمّت مثواي أياما، أقتات من زادي وأسود صفحات تلو أخرى عن سنوات اعتقالي. وذات يوم، بعد أدائي صلاة العشاء أخذني نوم قاهر، فرأيت فيما يرى النائم أنني في ليلة صادفت ليلة الاحتفال بعيد المولد النبوي، خرجت من دون أن أغير شيئا في زبي الواقعي، فاعترضني على باب المسجد الكبير رجلان مديان، اقتاداني إلى درب محاذٍ خالٍ، حيث فتشاني من رأسي إلى أخمص قدميّ بآلة إلكترونية فيدويا، ثم حجزا خوذتي وسترتي وذهبا بي مقيدا إلى مخفر الشرطة أمام باب سيدي عبد الوهاب،

باب الرؤوس المقطوعة قديماً. كان عليّ في انتظار الضابط ومقرره أن أمضي الليلة ما بقي منها على مقعد قبالة مكتبه. هنا نمتُ مكمّوماً غير آبه بما حولي، ولما أفقت مفزوعاً أدركت بعد فحص وتدقيق أنني ما زلت على فراشي قابعاً في بيتي.

طرقٌ خفيف على بابي صبيحة هذا اليوم الجديد، هبت للنظر في وجه الطارق، أنا الذي لا يزورني أحد، فإذا بي أمام شيخ وقور ذكرني هندامه وملامح محياه بإمام مسجد صغير بظاهر المدينة، عُرف عنه أنه عُزل من المنصب لأسباب لا أعلمها. بعد تحيته ودعوتي له بالدخول ومقاسمة فطوري، أكد لي صحة ما ظننت، وأضاف في التعريف بنفسه معلومات مقتضبة، تفيد أنه يتعيش من حرفة نوح، له معمل نجارة نافقة، وزبناؤه كثر لأنه قنوع بالرزق الحلال، لا يغش ولا يسوّف؛ ثم انطلق بكلام مذهل وبعضه محزن جعلني فاغر الفم، مسترط اللسان، قال:

- اسمع منّي، يا ولدي، كلاماً ثقيلاً ما إن تدركه بعقلك وقلبك حتى تنقاد إلى طريق الوقوف على حالك اليوم وتقيّ مالك من كل شر... أبدأ بنعيين: أملك يرحمها الله ماتت في فيضانات أحدثتها أمطار طوفانية مفاجئة، وتسببت في انجرافات التربة وانهيار منازل عديدة. مرقدنا بواد زم يوجد في قبر جماعي لمن ابتلعتهم الأرض وحالت تلال أوحالها وردّومها دون الكشف عنهم... أما النعي الثاني فيخص ابن خالتك الحسين المصمودي الذي جاهد في أفغانستان والعراق، ثم عاد منذ

ستتين إلى جبال الأوراس حيث انخرط في جماعات قتالية حتى اغتيل في منطقة قريبة من بومرداس... اعتقدت والدتك أنك قضيت في البحر مع من يخاطرون بأرواحهم للعبور إلى أوروبا، كما حدث لأبناء بعض جيرانها، إلا المرحوم الحسين الذي كان كلما زارني متكررا أكد لي أنك اختطفت إلى مكان يجهله، وأوصاني بك خيرا في حالة إذا ما رجعت، وعاهدته أن أفعل.

كانت عيناى تمور بدمع جاف، فيما لسانى يداري خرسا حادا أمام أقوال الشيخ حماد المزاتي وشدة وقعها عليّ. سمعته مردفا:

- كيما أمد إليك يد المساعدة، يا ابني، لا بد أن تبرهن لي أن سنوات السجن القاسية التي أساءت إلى جسمك وصحتك لم تنل شيئا من عقلك ولا من ملكاتك. البرهان أريده أولا في نبذك بالمرّة للخوذة والسترة المنتفخة التي قد يحسبها البعض مفخخة. خوفك من عدو يترصدك وهم من وسوسة الشيطان، وهذا الدمليج في خاصرّك حديث خرافة ولعبة صبيان. هذي الخردوات قد تثير فضول البوليس وأنوفهم... هل تعدني بالتخلص منها؟

أتيته فورا بها ومددته بكّلاب ليكسر دميّجي. قلت مروضاً انفعالي المتأجج:

- بل خذها معك سيدي، وأقبرها حيث تشاء...

علق مبتسما وهو يجمع الخردوات في كيس:

- حسنا! الآن وقد أعطيتني البرهان على سلامة عقلك، قل لي ما تريد أقضه لك بعون الله.

- أعز ما أطلب، سيدي، أن أدون معاناتي في معتقل همجي رهيب، دامت ست سنوات ويزيد. شهادتي لو رويت بعضها شفاعة لقهقه السامعون في وجهي، وظنوا جازمين أنني مصاب بالهذيان والرهاب ويتخبطني المس والجنون. فحوص طبية تستعجلني، لكنني أؤجلها كي أعرض عن معرفة ما قد تأتيني به من أخبار مهولة تحبطني وتعيق تحرير فصولي. وبعد أن أنهى عملي، ليكن من أمري ما يتغيه القدر. شهادتي أريدها مكتوبة، لعلها تبقى بعد موتي وتقع بين يدي قارئ عارف ومدرك فهيم... هذا طلبي الأعلى الذي لا بلوغ عندي إليه في هذا المحل المغلق حيث أقنط وتكاد رוחي تفيض، كما كان حالي أيام حبسي المدمر المرير.

أطرق الشيخ مفكرا، ثم خاطبني بما نزل عليّ بشرا وسلاما:

- امض هذا اليوم في جمع حوائجك الضرورية بين صلاة وأخرى. ضمّنها عقد تملكك هذا المسكن من طرف المرحوم الحسين، وغدا بعيد الفجر تصحبني في شاحتي إلى ضيعة أملكها جنوب وجدة في سهل أنكاد. وهناك بمشيئة الله تستقر وتنجز شغلك، تخدمك راعية الضيعة وابتتها... إذن اتفقنا...

استقام الشيخ واقفاً، سحب معه كيس الخردوات، فشيعة  
إلى الباب، أقبل كتفه وأجزل له الشكر الحار وآيات الامتنان.

وكذلك كان. وَفَى المؤمن التقي بموعده بعد أن صرفت  
الليل كله أصلي وأفكر في كلام الشيخ الذي كان أوله نعيًا  
ووسطه نصيحة وخاتمه مسكًا وسعدًا.

حين أدركنا الضيعة بادر محسني إلى تعريفي براعتها،  
وهي أرملة قوية البنية والشكيمة، وأيضًا بابتها العاتق التي لا  
يُخفي لُبسها البدوي محاسن جسمها ذي الصدر الناهد والوجه  
الصبوح.

بعد تناول وجبة الفطور الغنية الدسمة، أنبأ الشيخ المرأتين  
بحاجتي إلى التفرغ والهدوء، وأوصاهما بخدمتي، ثم عانقني  
داعيًا لي بالسداد والتوفيق، وودّعني واعدًا إياي أن يزورني متى  
تمكن ويكونَ قارئًا الأول.

لما خلوت بنفسي في بيت وسيع مفتوح على الحقل  
وأشجاره وزرعه وبهيئته، هبأتُ نفسي لما ندبتُها إليه، علما أن  
ما سأنسخه غيض من فيض، لا بد تشوبه نقط السهو والنسي  
واستحالة الإحاطة بكل شيء؛ فطفقت أمضي سحابة يومي في  
الكتابة وأخصص بعضه للتأمل مشيا ومبادلة الأرملة كلمات  
وحيزة بريئة، جاعلا بيني وبين كريمتها حدود العفة والتوقير،  
حتى أكون عند حسن ظنها وظن الشيخ بي...

## في قبو الصدمة والترويع

... وأما كيف غدوت في هذا المركز الاعتقالي، حيث رُج بي في زنزانة فردية لمدة تعدت سنواتٍ ثلاثاً في يومي هذا، فأنا لا أذكر سوى قدوم ثلاثة رجال مقنعين، قالوا إنهم من البوليس السري، فأخرجوني عنوةً من مكنتي - مسكني واقتادوني، بعد أن وضعوا عليها أقفالهم، إلى سيارة متسخة اللون والأرقام، حشروني داخلها، عصبوا عينيّ ووخزوني بمحقنة سرعان ما نومنتني. ولما استعدت بعض وعيي أحسست بوجود آدميين من حولي، يتلف أصواتهم هديرٌ ضاج، قد يكون لطائرة مروحية.

انتبه إلى تيقظي رجل حالت ضبابية نظري دون التعرف عليه، فبادر إلى وخزي بحقنة مخدر أخرى، لم أفق منها إلا وأنا حيث ذكرت، تؤخذ لي عاريا صور شمسية من كل جانب، ثم ببذلة سجين زرقاء، لبستها بأمر من موظف استلم مني مقابلها في

مكتب الاستقبال كسوتي وقميصي وساعتي وبطاقة تعريفني وحذائي الجلدي، ووثق ذلك في سجل وقعت عليه. سألتني عن واحد زائد واحد يساوي كم، قلت اثنين، وأضاف: واحد مضروب في واحد، قلت واحد. خيرني بين الجمع والضرب، اخترت الجمع، فأعلن بلهجة من يسمي مولودا: أنت منذ الآن هويتك رقمُ زنزانك ١١٢. بعد ذاك سلمني خفين مطاطين انتعلتهما وتبعته، كما أمر، صحبة حارسين إلى مكتب داخلي مجاور، طُبع على بابه «لقاط الأكاذيب». هنا أجلسني الموظف أمام شاشة تمرور بالخطوط والذبذبات، واستحلفني، وقد وضع يدي اليمنى على مصحف القرآن، أن أقول الحق ولا شيء سواه.

مضى عليّ وقت مشحون بالتوجسات والقلق، سيما بعد أن أطفأ مرافقي ضوء المكتب وانبعث صوت آلي لا يُرى ناطقه، سألتني عن اسمي وتاريخ ولادتي ومكانها وعن اسمي والذيّ وشغلي. أجبت بما أعلم. وعن سؤاله في انتمائي إلى تنظيم حزبي سري أو إلى خلية جهادية عاملة أو نائمة، سكّت معرضا متمنعا. لكنني اضطررت إلى تلفيق جواب بعدما شعرت بموسى حادة تلامس قفائي، مفاده أنني عاشرت في ما مضى فرقة صوفية لمدة محدودة. سألتني الصوت عن اسمها قلت: فرقة اليقظين، وعن شيخها ومقريبه، أجبت بعد تلكؤ: نسيت.

اسودت الشاشة فجأة كأنها أعطبت، وأشعل الموظف

خلفي ضوء المكتب، ثم أمر الحارسين، تعباً مثائباً، باقتيادي إلى القبور رقم ١٣ في انتظار إصلاح العطل.

ذاك القبو - كيف لي أن أنساه! - عبارة عن مستودع مسطح، مضاعة بعض زواياه بلامبات نيون جد شاحبة، تعممه أقفاص حديدية فردية مصطفة طولا، متقابلة، لا تسمح للسجين بأكثر من الجلوس أو الانطراح. حينما زج بي حارس في قفص بجانب الباب، صافحني جليسي من خلف القضبان بارك لي حلول شهر رمضان في يوم غد، ورحّب بي في قبو الصدمة والترويع، كما هو اسمه الرسمي، وفعل مثله آخرون بجواره. تكهن بعضهم أنني إما أسير قديم مئوس من تعاوني، كحال كل من هم في القبو؛ وإما نزيل حديث أوجد هنا على سبيل الخطأ أو لإفهامي بالدليل القاسي والحجة القاهرة أنني في هذا المعتقل ما جيء بي للنزهة أو معايشرة حراس ومُدراء يمزحون ويلعبون.

القبو مثله كمثل فرن، ليس للمودعين فيه من حيلة لتمييز الليل من النهار إلا بحرّ هذا وبرودة ذاك. هذا ما أنبأني به جاري، مضيفاً أن تمضية الوقت بين من لم يمرض بعد تكون تارة برواية أسباب نزولهم في هذا السجن، وطورا بتحاكي قصص وطرائف ما زالت عالقة بذاكراتهم أو بلعب الكارطا والشطرنج، هذا علاوة على الصلاة لمن استطاع إليها سبيلا وتلاوة القرآن والأذكار. أما المرضى والمسنون، ومنهم من



تعدت إقامتهم العقد، فقد أسلموا مقاليد أرواحهم إلى باريها، منهم من طال بهم المكوث حتى تورمت جلودهم وتفسخت، وعجزوا عن الحراك؛ ومنهم من يستعجلون أجلهم بالصوم المتصل أو الإضراب عن الطعام.

مساء أول يوم من الشهر الفضيل، أقبل موزعو وجبات الإفطار وكلهم كالحراس بأقنعة طبية، داروا دورة، صبا في ما مُدَّ إليهم من أوعية بلاستيكية حساء مخلوطا بالعدس وقطع خبز. لمحت في وعائي، بالرغم من شح الإنارة جناحي حشرة، أدت سببتي داخل السائل فاستللت منه جثة صرصار، سارعت إلى إظهار جاري عليها شاكيا. هنأني على حدة نظري وصحته، وقال في ما يشبه الإخبار أن معظم الأسرى من غير الصائمين لا يبصرون ما يأكلون. علقت صائحا بشجبي شروط هذا الاعتقال غير الإنسانية، المنافية للأديان والأخلاق والشرائع كلها، وجرّمت القيمين عليها، متوعدا إياهم بغضب الله وعقابه... ابتسم صاحبي ونصحتني بالسكوت والصمت في انتظار أن ينزل بالظالمين حكم السماء الذي لا مردّ له، وأضاف من باب الإخبار أيضا أن الصراصير هي أقل الحشرات ضررا، بل هي عند الأسرى نافعة لكونها تأكل البق والقمل والرتيلاء التي تعيش في أجسادهم ليل نهار، ونهاني عن طردها إذا ما شعرت بها ترتاد أطراف جسمي.

ازداد تقززي ونفوري. كدت أقيء في وعائي فنحيته جانبا.

عبرت لجليسي عن رغبتني في قضاء حاجتي. قوس حاجبيه وتردد في الإجابة. ولما كررت طلبي قال إن كانت الحاجة إفراغ مثانتني فقضاؤها هين بترخيص من وكيل المستودع، أما إن كانت للتغوط فالأمر يتطلب إجراءات يطلعني عليها الوكيل وزبائنه. من دون أن أكثر الأسئلة، ناديت على حارس جوال وعبرت له عما بي. أخرجني من قفصي، والليل لم يحل بعد، وصاحبني بعد استئذان الوكيل إلى سطح ذي ألواح صفيحية مائلة، وأراني سجناء يمشون عليها بالتناوب، وكلما انفرجت فرقوا أرجلهم بمقدار وتبرزوا واقفين. شاهدت واحدا فقد توازنه فسقط في هوة الفضلات لا يرى قرارها.

سألني الحارس بغلظة: عزمت؟ لم يكن لي من خيار سوى أن أغامر وأجرب بهلوانيتي. استفسرني إن كنت أحب تجنب ذاتي العطب أو الوفاة فوعظني، من دون أن ينتظر جوابي، بغض النظر عما تحتي وعن جنود وجنديات أجنب يلتقطون للمتغوط صوراً من شرفات في بناية مجاورة. توفقت في هذا الامتحان الوعر المهيمن، وعدت إلى مستقري مقطب الوجه مكفهرًا. حمد لي جلسائي الأقربون سلامتي، كما لو أنني اجتزت صراطاً أو حققت إنجازاً أولمبيا عظيماً. سألت المهنيين المعجبين عن مآل من يفشلون في ذلك التمرين اللعين، فرد واحد بأن المآل في أغلب الحالات هو السقوط في هوة رملية عميقة، وقد يحدث هذا لمن يرغب في وضع حد لحياته؛ وأضاف آخر جواباً كنت على وشك طرح سؤاله،

مفاده أن من لا يقدر على ذلك التمرين من العجزة والمرضى  
والمعطلين، يتناوب إخوة متطوعون على تطهيرهم وتنظيفهم،  
وأجرهم على الله. طلبت من الإخوة أن أعمل ضمن هؤلاء.  
قالوا على الرحب والسعة، لكن ليس من دون إذن الوكيل.  
قصدت هذا الأخير رفقة حارس وخاطبته في الأمر، فرد عليّ  
من خلف قناعه بضم مخمور وصوت فظّ أجش يشي بتوحش  
صاحبه الطرماح البدين: ومن منعك! خذ السطل والمكنسة  
وقطع الخيش واقتصد في استعمال الماء... اذهب...

أقبلت على المهمة المحزنة الشاقة في أقفاص حُددت لي.  
أصحابها تحسبهم أحياء وما هم حقاً بأحياء. انطفات جذوة  
الحواس لديهم، بعضهم في شبه غيبوبة متصلة، وبعضهم،  
وأنت تسعفهم وتنظفهم، يتسمون ويهمهمون بكلمات  
تعني الشكر والامتنان. حين أتممت عملي كنت على وشك  
الغثيان والإجهاش بالبكاء لولا صرف كل ذهني وملكاتي إلى  
قراءة اللطيف وترديد الأدعية في نفسي على الظالمين العتاة  
القتلة. توجهت إلى الوكيل وخاطبته بلهجة التقرير أن أغلب  
نزلاء هذا المستودع يلزم نقلهم إلى المشفى، فنهزني متوتراً،  
محتقن الوجه، محمره: تعلمني شغلي يا ابن الكلب! عد إلى  
قفصك...

رجعت إلى مكمني مهزوما. تمددت مغمض العينين،  
محاولاً هضم ما أرى وأسمع في قبو الصدمة والترويع هذا،

مقيسا هول بعض تخوم الشرور وأقاصي العنف الشرس والتعذيب الممض، التي يبلغها أناس في علاقتهم بأسرى عزّل يشاركونهم الانتماء إلى الأدمية والنوع البشري.

فكرت: لو لم أكن منذ صباي روضت نفسي على تحدي الفراغ ودواره، إذن لكنت الآن بذلك التمرين الشاق المهين من الهالكين. لكن هل التوفيق فيه مرة يضمن حصوله حتما في مرات لا بد قادمة؟ وهل في مستطاعي أن أنجو بصحتي وسلامة عقلي في تمارين أخرى تترصدني، كأكل الطعام الملوّث، وخدمة القابعين المتفوقين، والصبر على المكوث في القفص ساعات وساعات، وغير ذلك؟

يروم مجرمو المجمع ومديروه تحويل الإنسان الأسير إلى حيوان غير ناطق، مقلّم الأظافر، فاسد الأسنان، مهترئ العضلات، سلب القوة الجسمية والمعنوية، لا استطاعة له إلا في الطاعة والإذعان، يزفر ويزمجر إذا شاء، ويرعد ويزبد، لكن داخل فمه وفضائه الجواني. إنما القوم هنا، وقد بلغوا حدود الصبر الأقصى وما لا يطاق، استرخصوا الموت وآثروه على حياة المذلة والهوان، فكانوا بما تبقى لهم من جهد وأنفاس يتداولون جماعيا في هذا الشهر المبارك على تلاوة آيات قرآنية ومختارات من الأمّاح النبوية والأذكار، كنت فيها أدلي بدلوي وأبلي ما قدرت البلاء الحسن. وكان الحرس أحيانا يسكتوننا عما يسمونه الهرج، ملوحين بالعصي وخراطيم المياه.

ظللت زهاء شهر على ذاك الحال والمنوال. تعودت مكرها على أشياء وأخرى، منها قضاء حاجتي كما وصفت؛ والاكتفاء من الإفطار بما يسد الرمق بعد عزل الحشرات المريئة، التي يدعي موزعو الوجبات أنها تسقط في الطناجر سهواً، ومن عافها، يقولون، فعليه بالمرق؛ ومنها أيضاً ترك صراصير تسرح وتمرح في أطراف جسمي باحثة فيه عن القمل قوتها المفضل، إلى ما سوى ذلك.

قبيل ليلة القدر بساعات، وافق بدءٌ توعكي الصحي قدومَ حارسين إليّ فجذباني من قفصي ونقلاني من دون سابق إشعار إلى زنزانتني السابقة الذكر، ولم أتمكن من توديع الذين تعرفت عليهم في قبو الصدمة والترويع سوى بإشارات سريعة خفيفة، فيما هم يعدونني بالدعاء لي ما إن تحل ليلة هذا اليوم المباركة وتفتح السماء للأدعية المستجابة.

[٢]

## تصريف وقتي في زفرانتي

زفرانتي الفردية ١١٢!

زفرانة ضيقة، من خمسة أقدام مربعة ونيف، ذات لحافين ومرحاض مغطاة حفرته بياجورة لمنع خروج الجرذان منها. موقعها، ولا شك، في باطن قبو تغلب عليه التنتات وتضرب عنه الشمس. وجبتان شحيحتان في اليوم لسد الرمق، أتلقاهما عبر كوة في الباب الحديدي من حارس أرى يده دون رأسه.

هأنذا إذن «مزنزن» منذ شهور عدة وأخرى، كما ذكرت، أتكيف ما استطعت، أتبرمج بما عساه يخفف عني، ولو على توهم. يوميا بعيد اليقظة، أمضي وقتا يطول أو يقصر، مغرغرا النظر في شقوق جدرانتي، الحلزونية الخطوط، المحاطة بجلطات الرطوبة والغمولة، أتلهي أحيانا بقراءتها كرسوم ذات إحياءات وأبعاد متناصلة شتى. وحين أعبي منها وأنفر،

أتعاطى ما بات عندي رياضة أفضلها على قبول حصص التنزه  
ومعاشرة السجناء، إنها رياضة لحافية: أتكربع، أقبع، أتعرم،  
أثقوقع، أتركن، أتكور، أتكوم، أنكمش، أنطوي، أنقلب،  
أتجنب؛ وأنحت أفعالا أخرى ليتها تلج معاجم العرب من بابها  
الواسع: أتسحلف، أتحلزن، أتنفذ، أترزم، أقمص جثة الميت  
فأحمد وأحبس التنفس ما قدرت، وإذن أتجشمن... وكل تلك  
الهيئات لا تنفي سواها، كأن أتمطط، أتربع، أظاول، أتنطع،  
أتعتتر، ألاكم خصما وهميا أضحك عليه وأتجشأ، أو كأن  
أحاكي همسا بعض الوحوش الضارية، ثم أهرب منها مستعيذا  
بالزقزقات والتغريدات، لعلني بها أجلب الطير إليّ ولما أُعِدُّه له  
على الشباك الصغير العلوي من فتات أوعية ماء، وغير ذلك من  
الحركات والتصويطات التي أنجزها إما منبطحا أو جالسا وإما  
واقفا أو ماشيا.

وفي برنامجي اليومي أيضا استظهار ما بتّ أخشى نسيانه في  
هذا الحبس الرهيب من أي الكتاب الحكيم، مفتحا بسورتي  
يس ثم الأنبياء حيث ذكر أيوب بطل الصبر والصمود، وكذلك  
بالأحاديث النبوية الشريفة وآداب السلف والمعاصرين؛ وطبعا  
في برنامجي ذاك تلك التي صارت لي هنا، شيئا فشيئا، قرة  
عيني: الصلاة، ولو متوضئا بما قل وشح من الماء أو بالتميم  
عند اللزوم. هذا علاوة على أعمال غير منتظمة يقرضها الحرس  
عليّ بهذا التنبيه: السجن ليس خيرية ولا مأوى للعجزة بل مهام

وخدمات يقوم بها السجين مقابل تمتيعه بالطعام والدوش والنزهة والمبيت، ومنها إفراغ سلال الأربال في حفر القمامة الرئيسية بظاهر البنايات على بعد نصف ميل، وأيضا تنظيف المطبخ والمطعم والأبهاء والممرات وبعض الزنازن الخاصة، وغير ذلك كثير.

كنت كلما أمرت بمغادرة مربعي للعمل، أحاول ما استطعت وقف الكلام مع السجناء على التحية والرد بأحسن منها، حتى لقبني جيرانى منهم بالدرويش أو الداخل سوق رأسه.

مع هبوط الليل وإنجابه سدول الظلام، يضمّر الضوء وتنزل الحركة إلى درجتها الدنيا، تحضر وجبة العشاء مرة وتغيب مرات. لا شيء للقراءة، لا مذياع، لا تلفاز، لا أخبار عن العالم؛ يُحكم على المقيم بمراودة نوم صعب المجيء، وإن جاء فلا شيء يضمن خلوه من الكوابيس أو من مناوشات الحشرات الطائرة أو الرقطاء.

أثناء مغازلاتي لأرفيوس، ربة النعاس، أراني في تقلباتي الأفقية أنصت إلى ابتهالات أمعائي وتضرع أضلعي، أو أمر من غفوة إلى أخرى، أبصر في بعضها عجائب الفردوس، من حور وخمور وولائم على طول أميال لا تنتهي. هذا إذا لم يُفسد عليّ نومي سجين بصرخاته واستغاثاته، فيستيقظ كل نزلء الدهليز لا غطين بالسباب والتهديد، كما حدث بالمثال لا الحصر أمس أمس حين تفانى معتقل في الصياح والعويل لكونه معلقا



بشباك سقفه، هروبا من عقارب وثعابين تغزو زنزانته، ثم يدعي أن مربعه بُثت فيه كاميرات لمراقبته والتجسس عليه، وأنه تحديا للعيون وراءها ونكاية يسب ويصق بل يستمني بين حين وحين... وفي ليلة أخرى يأتي دور معتقل آخر لملء الفضاء هرجا ومرجا حول هلوساته والجن المتربصين به الدوائر. أما الحرس الليلي فلا يحركون ساكنا ولا يتدخلون، كأن أذانهم مختومة بالشمع السميك أو على قلوبهم أقفال من حديد...

بعد انصرام مدة لا آلة عندي لتقديرها، تسنى لي مغادرة زنزاني لبضع ساعات، ليس لتمكيني من نزهة أو استنشاق هواء آخر، بل قصد الخضوع لفحوص طبية جراء سعال حاد أصابني، مصحوبا بضيق في التنفس لعل سببه إقامتي السابقة في قبو الصدمة والترويع. احتجاجات جيراني ليلا، وربما اعتبارات أخرى، عجلت بنقلي إلى المستوصف حيث ناولني ممرض مهدئات في انتظار قدوم الطبيب بعد مطلع الصباح. قلّ سعالي وخَفَّ أرقى، حتى أخذتني عياني في نوم لم أنعم بمثله منذ حللت مكرها معتقلا في هذا المركز المجهول الغايات عندي والاسم والموقع.

في الصباح، مغمض العينين، تناهت إلى سمعي نتف كلام بين رجلين:

الأول: ما حققنا بعد مع هذا السجين. حاجة مصالحنا تحتاج إلى معلوماته... عالجه حتى لا يموت قبل أن نستنطقه.

الثاني: سأجري له الفحوص الضرورية، قد يقف على رجليه

اليوم ويزول سعاله إذا لم يكن مرضه السل... السل اكتشفناه  
بالأمس عند ثلاثة سجناء تم عزلهم...

الفحوص المجراة عليّ أظهرت أنني لحد الساعة سليم  
من ذاك الداء، والحمد لله. إن هي إلا حساسيتي ضد الرطوبة  
استفاقت في زنراتي وأثارت ضيق تنفسي وسعالِي. زودني  
الطبيب بأقراص ومرشة، ثم نُقلت بتوصية منه إلى زنزانة في  
جناح حيّ آخر، أصغر من الأولى، لكنها في طابق أول من بناية  
معرضة للهواء الجاف وأشعة الشمس.

## في حضرة القاضي المحقق

في نزلي الجديد، الذي تبعني إليه رقمي، تحسن حالي.  
صرت كلما احتجت إلى ذخيرة هوائية، اعتليت كرسيًا وألصقت  
أنفي بقضبان نافذة مفتوحة على السماء. حسب حواسي الخمس،  
رجحت أن تكون المنطقة التي أنا حل بها صحراوية أو متاخمة  
لصحراء واطئة، بعيدة في مدى البصر عن المرتفعات والبحر.  
أما هويتها وعنوانها فعلم ذلك عند رؤوس هذا المركز الجبسي  
وفطاحله وحدهم.

وأنا أتناول بعض أقراسي مع أول وجبة استلمتها من كوة بابي  
الجديد، خطر لي أن حيلتي في سلم ترقيتي، وربما إخلاء سبيلي،  
قد تكون في سعالي إذا أنا أحسنت افتعاله وتدبيره وتوقيته. وفيما  
ذهبت أقلب هذه الخاطرة وأخريات أغرب منها، راشا فمي بآتي،  
إذا بحارس يقتحم مكاني، يقيد يدي إلى الخلف ويقودني عبر  
ساحة معبدة وممرات إلى بناية مميزة، ذات مكاتب وتجهيزات

عصرية. أمام باب في الطابق الأول أستأذن الحارس في الدخول، فتبعته إلى قاعة واسعة، تجلس خلف منضدتها امرأة وسيمة، بين حاسوب وملفات. هرعت نحوي وشرعت تتحسس أطراف جسمي بفاحص إلكتروني بيديها للتأكد والتيقن. وبعد تفتيشها المنهجي ورشي بمرذاذ عطر، رافقتني إلى المكتب الثاني وهي تنحني محيية من أسمته سعادة القاضي، ثم نبهتني إلى عدم التسليم على سعادته باليد وانسحبت.

إني إذن، بعد مضي بضعة شهور على اعتقالني، في حضرة القاضي المحقق الذي، كما أخبرت من قبل، ينظر في ملفات المتهمين، ويقرر في مصائرهم. أمرني، بعد أن رمقني، بانتظار نوبتي في ركن معتم، ريثما ينهي جلسته مع متهم شاب لم أر إلا ظهره. في الركن تكومت على مقعدي ما استطعت، وأخذت أسترق النظر إلى المحقق وأستمع إلى كلامه مع الظنين.

الرجل قدامي، تذكرك أبعاده الثلاثة بأثقل مصارع ياباني، تستلفتك سمته المتطرفة الفائضة، وصلعته اللامعة المخضب تاجها بالبياض، وأذناه الضخمتان الزائغتان المستنفرتان كقرني تنصبي والتقاط؛ يستلفتك ذقنه الغائص في عنقه المكتنز، وشكل عينيه الغائرتين خلف نظارة ملونة سميكة، وفمه (كفرج دجاجة) يعلوه شارب هيتلري القص، زعفراني اللون... وسبحان من خلق وكور؟ وحين ينهض للبحث عن شيء، أو للهمنة الجسدية على مستنطقه، كما الوحش على فريسته،

يتبدى هذا الكائن المكرش المتعملق كفيل واقف على رجليه،  
لا ينقصه سوى الخرطوم.

بصوت مخنخن خاطب السجينَ أمامه وهو يحك قفاه:

- أنت إذن لم تعد تنفي التهم اللاصقة بك بل تثبتها: إيواء  
تكفيريين، هم اليوم في حالة فرار؛ مديد العون لعوائل المتزوجين  
منهم؛ التستر على هوياتهم وعناوينهم... نقطة الخلاف بيننا أنك  
تأبى المصادقة على صك اتهاملك بأداء القسم الشرعي، وتحل  
لنفسك عوضه القسم تارة بالفجر وليالٍ عشر، وتارة بالتين  
والزيتون وطور سينين، وأخرى بالعصر، وتسوِّغ بدعتك هاته  
بوجوب اجتناب ذكر الله وكل أسمائه الحسنى في أمكنة فاسدة  
نجسة، ظالمة مظلمة، منها في عرفك الجاهل أمكنتنا... صح؟

أجاب الشاب بصوت واثق رزين:

- ذاك ما أثمره اجتهادي ووفقت إليه...

أزبد المحقق وزاط:

- ومن أباح لك الاجتهاد وولاك شأنه، يا مفترى يا كافر!

- ها أنت إذن تكفرني يا قاضي، ولو أنني خريج جامع  
الزيتونة، ولا أجتهد إلا حيث لا نص...

- يا حرس، خذوا هذا اللعين، سلموه إلى التي تعرف  
كيف تباشر الكفرة وتعالجهم... ستسوي بنانك وتعيد عقلك  
المهزوز إلى موضعه القويم.

تمكنتُ من رؤية وجه الشاب المنسحب بين حارسين  
بخطى واثقة وهمة متحدية، قال وهو بسبابته ووسطاه يرفع  
شارة النصر:

- والشمس والطارق، لا الغولة أخشى ولا زبائيتها، فهي  
وكلكم إلى أم قشعم، وبئس المصير.

تهالك المحقق على كرسيه، يتصبب عرقا ويزفر زفرات.  
ضغط على زر فمثلت أمامه فتاة محجبة. حيته وناولته حبة دواء  
وكأس ماء. استرد أنفاسه بلأني ملحوظ. سألها عن أم قشعم من  
تكون، قالت متلعثمة لا تعلم. أمرها بالذهاب عاجلا للقبض  
عليها في القاموس لتأتيه بها. أبدت الفتاة السمع والطاعة،  
وهرولت إلى الباب هلعة مرتبكة.

خيّم على المكان صمت كالرصا ص بل أثقل، تلاه تسلّم  
للمحقق ونحنحاته. نادى عليّ بأخذ مقعد من سبقني، لبست  
متمما تحية، فردّ بأخرى. خلع نظارته وهو يمسح العرق على  
وجهه، انكب على ملف، ولسانه يلهج بالسب والقدح في  
الشاب المطرود، ناعتا إياه بالزنديق وابن الكلب. وحين أنهى  
اطلاعه ركب نظارته وفاجأني برمقة ملتبسة، أردفها بمساءلتي  
إن كنت أعرف ابن الكلب الجالس على مقعدي قبلي. أنكرت.  
كشر عن أنيابه وقال:

- هذا السجين المعاند مجاهد يعيش بكيانه كله في عصر  
قديم ولّى. طاغية من طينة مستعذبي العذاب وطالبي الموت

والاستشهاد. لكن الغولة سترهقه صعودا، وتقطع أصابع نصره  
الموهوم أصبعا أصبعا...

حدّق المحقق فيّ مبديا ابتسامة مريبة وسألني:

- ألسنت تستحلي معي، حمودة، هذا التعبير الشائق الرائق  
في جناسه وتضاده: استعذاب العذاب؟

قوّست حاجبيّ إحجاما عن الجواب في أمر بدا لي خارجا  
عن السياق والمقام. نحنح وأردف:

- لا عليك! انس السؤال وعدّ بنا إليك... استخلص من  
ملفك، يا حمودة الوجدي، أنك رجل مسالم، قابل للعشرة.  
نقيطات سنبدد سوادها، ونستجلي غموضها، بحول الله  
وفضله، وبتعاونك الذي لاشك سيتم بالعفوية الطليقة  
والصدقية المبتغاة... الكذب والبهتان حرام، والمخاتلة  
والتمويه نقمة، وخلط أوراق الواقع والخيال فتنة، وهي لعمري  
أفعال مشينة يجترحها أرهاط الشعراء الهائمين ومن تبعهم من  
الفساق والحرافيش والمنحليين، وقانا الله شرورهم، وأبعدنا  
عن حلقاتهم وغيرانهم، وهدانا بنور من عنده سواء السبيل إلى  
الحق الشعشعانيّ المبين.

لم يقطع دفق كلام الرجل المسجوع وبهتانه إلا نقرّ خفيف  
على الباب، تلتة إطلالة الفتاة المحجبة، معذرة خجولة. أمرها  
بالدخول وسألها متلطفا متحنحا:

- ما وراءك، يا بنت؟

- سيدي، بحثت عنها، لم أجدها...

- من هي، يا بنت؟

- أم قشعم، سيدي...

قاطعها من دون أن يغير لهجته:

- هذا أمر مزعج. أنظري في معاجم الأعلام وعند ابن منظور، فإن لم تأتيني بها لأخصمن من راتبك ثلثه.

استأذنت في الكلام، قلت:

- في لغة العرب، سيدي القاضي، أم قشعم اسم أطلقه أهل الجاهلية مرادفاً أو كناية لجهنم، والله أعلم.

- يعطيك العافية، حمودة، لا فضّ فوك! وأنت يا بنت، بوسي رأس هذا العارف الذي أمدك بحبل من نور، وعلمك ما لم تعلمي... بوسة واحدة وبس.

من دون أن أحرك ساكناً، تلقيتُ من المسكينة قبلة دافئة على أمّ رأسي، وبعدها استأذنت وقصدت الباب محمرة الخدين، متعشرة.

وجّه المحقق إلَيّ نظرة تعجب واستغراب، قال:

- أراك في حضرة السكرتيرة مش على بعضك، تخفض جفنيك ولا تراها رأي العين!



- أفعَلْ ذلك (أجبت) عملاً بوصية المصطفى الأمين: من  
نظر إلى محاسن امرأة فغض بصره في أول مرة، أحدث الله له  
عبادة يجد حلاوتها في قلبه...

صاح الرجل طرباً:

- الله الله على ذي الحلاوة! لك، حمودة، في العلم ضلع  
وفي الحفظ بضاعة!

- العفو العفو سيدي. ما أوتيت في ما تقول إلا القليل...

- من شيم العارف التواضع، صح!... يا ناهد أقبلي...  
تعالني قدامي... الآن اخلعي الحجاب، حركي شعرك ذات  
اليمين وذات الشمال... إيه الجمال ذا! محاسن على محاسن!  
يا حمودة راقبني، هل أوفق في غض البصر عن البنت ذي...  
بس أجرب. أحاول ثم أحاول. أغمض عيني براحتي، تظهر  
لي البنت عارية كحواء فأشتهيها أكثر... لا، وحق من خلقها  
وجملها ما فيش فايده... ذكرني بالجدع اللي قال: غضوا  
أبصاركم ولو عن شاة أنثى... ذكرني.

- أظن القائل أبا يزيد البسطامي.

- أكيد ذا رجل مكبوت! قد أنجح في غض البصر عن حيوان  
أنثى، لكن عن بشر أنثى، لا وألف لا، ألف لا... أفضل حصرياً  
ما جاء في طبقات ابن سعد عن المصطفى الأمين أنه قال: حَبِّبْ  
إِلَيَّ من دنياكم الطيب والنساء... يا ناهد تحجبي واغربي عن  
بصري، اغربي...

مرر المحقق منديله على وجهه وصلعته مرتبكا. قال:

- الآن، حمودة، إلى ما كنا فيه عد بنا...

ثم حك قفاه وزمجر بكلام كأنه يناجي نفسه:

- إذن ابن الكلب سب كل أعضاء مركزنا الموقر، حتى أنا لم يستثنني! ملفه ثقل أكثر، وأراه استفحل وتعوّص. ستسومه ماما غولة سوء عذاب، فيدرك الزنديق المتحيف أي منقلب ينقلب، ومن منا المستحق في الدنيا قبل الآخرة أن يُلجم بلجام نار جهنم، ويُجلد بسياطها ويُغلل بسلاسلها وأصفادها. وأنت، حمودة، شهدت وسمعت قذف وليد أم قشعم وتشهيره في حق طواقم القيمين أجمعين، ولا ريب تكون من ثقات الشهود يوم الحكم والحسم، بعد أن أطلعك على مبتدئ قضية الزنديق وخبرها وعلى مجراها ومرساها.

خطر لي أن أعتذر عن الشهادة في قضية لا سبيل إلى معرفة الحق فيها، لكنني أحجمت. وخطر لي أيضا أن أهينه على فصاحة لغته وبيانها، ساكتا عما يكتنفها أحيانا من حذقة وتصنع، لكنني أحجمت.

بحركة بطيئة، أزاح المحقق نظارته وأشار إليّ بتقريب وجهي منه. قال بصوته المخنخن مصطنعا الشدو والحنو:

- ما جعلني، حمودة، أعطف عليك، ولا أفوض أمرك إلى مستنطق وعرٍ شديد، هو تشابهنا في نقطة بعينها. هل تعلمها؟

أومات بالنفي، فأردف بالصوت نفسه:

- كلانا، حمودة، خريج كليتين من بلدين شقيقين. لك إجازة في الشريعة ولي مثلها، ولك أخرى في الأدب ولي صنوها، لكن فرقت بيننا السبل والأقدار، وسبحان الذي يسر لنا هذا اللقاء لتتعاون على إظهار الحق وإزهاق الباطل والبهتان... بالعين المجردة وحدها أتفرس الوجوه، أستطلع ما تضرم النفوس، وتبثُّ من نوافذها العيون... موهبة وهبتها منذ نعومة أظفري، ونمت وترعرعت مع مرور الزمان، ومن الله عليَّ بها عبر التجارب المحنكة والدروس والعبر العاصمة المرشدة؛ هذا مع أنني لم أرق بها إلى مرتبة زرقاء الإمامة، ولله الشكر على ما أعطى وقدر.

فجأة سكت ملقياً عليَّ نظرة استدراج وتسأل. ولما لم يأتني مني تأييد أو تعقيب، تابع سيل كلامه:

- المرحوم أبي ذبح كبش عقيقتي بتسميتي حسان، تيمناً بشاعر الرسول محمد عليه السلام ودعوتِهِ الخالدة العظمى، حسان بن ثابت، الذي هداه الله إلى الإسلام، ونجاه من وديان الشعراء الغاوين اللاغين. ومن ثمَّ، مند صغيري حتى اليوم، تراني عند مطلع شمس كل نهار أذكر أسماء الله الحسنى ما وسعني الذكر، ولا أروم في كل شيء غير الحسن. تزوجت امرأة ذات اسم على مسمى: حسناء. عاملتها بإحسان، وحين لم تخلف مني أرادت الطلاق فسرحتها بإحسان. وأنا ما زلت على نهجي

وعقيدتي، أربأ بنفسي عن العنف وإعماله، أنظر في كل الأمور وأقضي وأدفع بالتي هي أحسن. شعاري كان دائما وسيبقى: نعم للحسن وللحسن؛ لا ثم لا للعنف! صدق أولا تصدق، إني أبدا ما ضربت معتقلا، ولو كان من المعاندين الصناديد، وما عذبت ولا حتى بصقت على أي وجه لذكر أو أنثى. هكذا خلقت وتربيت... في حياتي لم أذبح حيوانا ولو كان دجاجة، فكيف أفعل هذا بإنسان! تقاليد النطع والسياف في دول الإسلام الدنيوي، كما في مجمل تاريخ النظم والأديان، يقشعر لها بدني وتشمئز منها نفسي... هذا مع أنني لا أنكر إقدامي أحيانا، من باب التخيل والتوهم لاغير، على سلخ جلود بعض الأوباش المكابرين وسلقها، أو تقطيع أجسامهم قدا قدا ورميها إلى الضباع والسباع الجائعة... وأنت، حدثني عن عنفك.

استعجمت طلبه مقطبا، فاغرا فمي، فأوضح:

- نعم عنفك! عدا اتهامك بقتل زوج أمك، وهي قضية ننظر فيها لاحقا، هناك سابقة اعتدائك على رجل ضربا وجرحا، بدعوى أنه أهان أباك إذ سبه وبصق عليه. لكنك تجاوزت حد القصاص وقانون «الطالين»، وعصيت أمر الله تعالى فيه ﴿مَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ وأمره ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالْيَدُ بِالْيَدِ﴾ [المائدة: ٤٥]. وإذن، في حالتك، تقضي شريعتنا العادلة العصماء: السب بالسب والبصقة بالبصقة ولو

بالمخاط الأوفر الأثقف. أما أن ترعف خصيمك، وتكدم وجهه  
بكدمات فادحة، نُقل على إثرها إلى المشفى، فلا ثم لا.

كلامُ الله تعالى جوّده المحقق بصوت أنكر من صوت  
الحمير، فيا لطيفُ يا لطيفُ يا لطيفُ! قلت بقصد التخفيف  
عني والتذكير:

- تلك، حضرة القاضي، مشادة تعود إلى فترة فتوتي واندفاعي،  
وهي، على أي حال طويت بالمسامحة والتراخي...

- عنف وعنفوان! تقول، لكنها صفحة تدل على ارتكاز  
التشدد والغلو في طبعك، صفحة غير نيّرة، لا تسقط بالتقادم  
ولو ادعيت. عقابيل العنف ورواسبه، كالنار تحت الهشيم،  
قابلة للاشتعال في كل آن وحين. وإن دلت على معطى آخر  
فإنما تدل على أنك وقتها لم تكن تصلي... صح؟

اعتصمت بصمت اسمتيّ حتى لا أجيب، فأردف قائلا:

- فحشاء ومنكر هما التشدد والعنف، وفي كتابنا العزيز: ﴿لَا يَأْتِ  
الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، كما في  
ديننا الحنيف... لكن لا علينا. اليوم في مقامك هنا وحلولك تحت  
الحراسة النظرية، هل تراك تصلي الصلوات الخمس؟

- هذا (أجبت) شأن بيني وبين خالقي...

- لا (قاطعني)، بل هذا شأن يهم التحقيق أيضا ويهمني،  
وإلا كيف أصدقك وأصدّقك، إذا أدبت اليمين عند الحاجة  
والطلب؟! أخال أنك إما قطعت الصلاة لتتقن التمويه وتبعد

عنك شبهات من بنات أوهامك؛ وإما تصلي متسترا، آخذًا  
جذرك، مثلك مثل مقيم صلاة الخوف... أي افتراض تراه  
يصح عليك؟

- الصلاة (قلت) راودتها من قبل بنحو متقطع. وأنا الآن في  
ضيافتكم أوؤب إليها عليلا، خائفا، مريضا بكم، فلا أؤديها إلا  
بالوضوء الوهمي، معينا القبلة بالظن لا غير، مخفّضا سجودي،  
وأحيانا مستلقيا على جنبي الأيمن أو بالإيماء فقط...

ارتعدت فرائض مستنطقي وتوترت حبال رقبتة، قال:

- كان السجناء فيما مضى يحصلون على أحجار التيمم،  
لكن بعضهم حولوها بين أيديهم إلى سلاح، فسحبّتها منهم  
ومنعها عنهم اتقاءً للفضي وابتغاءً لوجه النظام... من باب  
العطف والاستثناء، سأنظر في احتمال تزويدك بتيومة خفيفة  
الوزن، ملساء. إنما رجائي ألا تغدو ذات يوم كسجين قديم  
عالجت ملفه، وأظنه توفي، اعترف لي أنه طوال عمره وحتى  
قبل اعتقاله لم يكن يقيم إلا صلاة الخوف، مقصّرا مخفّضا،  
متعلا خُفيه، وسبابته على زناد حقيقي أو وهمي. والسبب:  
كما فسر، أنه يعيش على الدوام في خوف من الناس وحتى من  
نفسه الأمانة بالسوء... والآن لنعد إلى الهام الأهم.

توقف المحقق برهة، نفث دخان غليونه تارة في الفضاء،  
وأخرى في وجهي، ثم أردف بلهجة لينة وهو يحدّثني بنظرات  
متفحصة:

- هكذا أنظر إليك وفيك عن كذب، فأرى بذرة الخير  
تصارع برائتين الشر، وجند الرحمن تنازل جن الشيطان،  
فاختر صفك، وفقك الله، وراهن على الفرس الفائز،  
والموئل المؤئل النافع... التزمت كثيرًا إلى حد الآن صمت  
الحكمة وحكمة الصمت، وحسنا فعلت كيما يأتي كلامك  
من بعد مزدانا بآلاءي الحقيقة ودررها، وبلاغة الشهادة وبيانها.  
نظافتك كما أشتم، وهندامك كما أرى، ليسا ما أستحسن  
وأرضى. سأمر أن تطهر بالدوش الوفير، والصابون البلدي  
الأصيل. سأمر أن يطعموك بما يقوي جسمك ونفسك  
معًا، حتى إذا انتعشت واستقمت كان لك السهر مع الأقلام  
الملونة، تحرر بها على الورق اللامع الصقيل مقالًا موجزا  
عن اغتيالك زوج أمك، وآخر مستفيضًا - وهو قطب الرحي  
وبيت القصيد - عنك وعن ابن خالتك وصحبكما، متوخيا  
الكشف المضيء وري الغليل. ولعمري إن هذا لنهج قويم،  
فيه ريح للوقت ثمين، وتعجيل بتفريج الغمة والإسهام في  
إغاثة الأمة. وأؤكد ما أوصيك به أيضا، هداك الله، أن تجعل  
البيان ذا المبنى سندا للمقال ذي المعنى، واللفظ الشائق  
الرائق مشكاة لتجلية الخيط الراق والحق الفائق، مصداقا  
لما ذهب إليه أبو عثمان بحر الجاحظ وهو، كما تعلم،  
أحد فحول البيان والتبيين وفضاحل الكلام المحلي والقول  
المصون... ذكرني بما ذهب إليه، ذكرك الله بالشهادة وقت  
غرغرة المنون...

غالبت شعوري الحاد بالدوار والبعث، أجبته:

- إن لم تخني الذاكرة، قال الجاحظ على وجه التقريب:  
المعاني مطروحة على قارعة الطريق... وإنما الشأن في إقامة  
الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة  
الطبع وجودة السبك...

- ذكرتني ذكرتني، قالها العالم النحير في مؤلفه البخلاء...  
- بل في البيان والتبيين وكتاب الحيوان، ويقصد بكثرة الماء  
كثرة ماء الصدق...

- سأحقق في المرجع، وإن كنت المصيب أهديتك ماذا؟  
الشوكولاتا السويسرية أو الهولندية... هل تحبها؟ من لا  
يحب الشوكولاتا؟!

انتفض المحقق نحوي وأخذني برفق من كتفي إلى الباب  
مبتسما نرقا، وقال وعيناه من خلف نظارته ترمشان:

- خذ الآن هذي الأوراق والأقلام، هدية مني إليك،  
واسع بها إلى المهمة، يا ذا الأدب والهمة. إحساسي أننا  
قريبا بالعقل والروية تفاهم، وبالغمزات والذوق السليم  
نتلاءم. أستودعك الله، وأتركك تؤوب إلى مثواك الآمن،  
والسلام.

ظلت يدها ممدودتين نحوي ببضاعته، فأدرك أنني مقيد اليدين.  
نادى على التي سلمتني إليه، سكرتيرته الأخرى. حضرت للتو



فأمرها: من هنا ورايح، الجدع ذا صاحب الإجازتين لا تُقيد  
يداه أبدا... بإشارة منه وضعت المأمورة الأقلام والأوراق  
في جيوبى ورافقتني إلى مكتبها طائعة مبشورة، وهنا بلغت  
الحارس أمر الأستاذ النافذ.

## جريح على لحافي

مشواي الآمن!

هأنذا ألقى فيه من جديد، دائخا بكلام المحقق المسجوع،  
وهدفه الغامض المعمى. في زنزاتي هاته، الساعة تتاخم الآن  
الهزيع الأول من الليل. أسلمت، كالمعتاد، جوعي وهواجسي  
إلي أفيون نوم مرتجّ قهري؛ نوم التبتت عليّ مدته ما إن أيقظني  
رشّ مائيّ غزير، يديره رجل من خرطوم على عتبة مربعي. هرعت  
إلى ركن فارغ، ظانا أن الفاعل من رجال المطافئ هب لإخماد  
نار شبت عندي أو بجواري، وتهدد بالزحف والاندلاع. لكن  
سرعان ما تبدد ظني لما رمانني الرجل بكوية صادعا: بأمر من  
فخامة المحقق، تصوبن وتحتمّ عساك تنتعش وتسلم... وفجأة  
انقطع الرش وغاب صاحبه. خلعتُ لبسي الخفيف المبلل،  
تدثرتُ بملاءة لم يمسها الماء، تكومتُ في لحافي مرتعدا،  
منتظرا ما سيجد ويأتي.

لم يطل انتظاري، إذ اقتحم مكاني عملاق أسود حاملا شابا  
تلف رأسه وجسمه أعصابه وضماكات. ألقاه على لحاف قبالي  
وانصرف من دون أن ينبس ببنت شفة. قصدت الطريح متعرفا  
عليه. استرعاني حَوْلَ عينيهِ وأنفهُ الأفطس، رجحت أنه من رأيته  
في قبضة المحقق بالأمس. جسست نبضه وحبل وريده، فبدالي  
أن الحياة ما زالت لها في قوامه بقية. فكرت: لا ريب أن الشاب  
خضع لتعذيب فظيع، شبيه بعمليات جراحية من دون تخدير.  
هرولت نحو بابي الحديدي، خبطت عليه بكلتا يديّ صارخا:  
اعتقوا الروح! الشاب يموت... كررت استغاثتي حتى كللت وبعث  
صوتي ومار صدري غصصا...

عدتُ إلى تفقد المريض. استفسرت عن حاله. ندّت عنه  
كلمات خافتة غامضة، وسبابته مرفوعة. هل تراه يداري جراحه  
وأعطابه أم ينازع الموت ويحتضر. سألت نفسي العاجزة  
المحزونة: ما العمل؟ كررت صيحات الاستغاثة مرفقة هذه المرة  
باستعمال صحن زنكي للضرب على الباب. لكنني اضطررت إلى  
إيقافه ما إن بلغني احتجاج جيراني عليّ وصوت يهددني بالكاشو  
إن لم أهدأ. والكاشو، نعوذ بالله منه، حسب العارفين وشهادة  
المجربين، هو العقاب بالعزل الانفرادي المظلم، يقال الداخل  
إليه مفقود والخارج منه مولود، تعبيرا عن طول مدته وضمور  
شروط الحياة فيه، من أكل وشرب وهواء؛ لذا آثرت الاستجابة  
والإذعان حتى لا أعوّص أمرِي وأزيد في طين مأساتي بلة.

قعدت إلى جنب الطريق ذي الجروح البليغة، ممضيا لحظات  
 ملأى بالقلق والحيرة. سمعته بعدها يترجى ماءً مستلا لسانه،  
 جرّعته ما بقي لي منه. أراد المزيد، عصرت في فمه أطراف  
 إزار مبلل جراء ذاك الخرطوم الرشاش الذي باكروني به اليوم.  
 أبدى بعض الرضى وهمهم بكلمات فهمت منها، وقد ألصقتُ  
 أذني بفيه، أنه يشكرني ويستفسرني إن كنت من لمحّه عند  
 المحقق بالأمس، قلت نعم، مظهرًا فرحي لنماء حشاشة روحه  
 وعودة الوعي إليه. رجوته ألا يجهد نفسه بالكلام حتى يتمثل  
 للعافية والشفاء، لكنه أصر على متابعة البث في مسمعي بجمل  
 متقطعة، أخذت، رغم تهدج صوته، تتضح وتكشف أكثر فأكثر  
 عن معناها. وهكذا أجبته اختصارًا إلى طلبه التعرف على اسمي  
 وظروف اعتقالتي والتهم الموجهة إليّ. لم أسأله بمثلما سألتني  
 تجنبًا لإرهاقه، لكنه شرع يللم كلمات تفيد أن اسمه إلياس  
 بوشامة، وأنا صنوان في ما أصابنا وألمّ بنا من محن وشدائد،  
 مع فارق في مكان منبتنا ومأتانا، هو من تيزي وزو الجزائرية، وأنا  
 من وجدة المغربية. وفجأة إذ تغلب لهائه على صوته، طالبت أن  
 يسكت ريثما يستريح ويسترد أنفاسه، وكذلك فعل. وفيما أخذت  
 أمسح عرقه وأنظف ثقب أذني، التفت إلى بقايا الطعام الزهيد  
 على مائدتي، فعرضتها عليه بالحاح وترغيب، لكنه أعرض عنها،  
 ناعتا معدته والطعام بما يشير أن الأولى تعودت على الجوع،  
 والثاني آخر ما يأبه له ويفكر فيه.

صمتُ يطنُ الآذان خيم فائضا بالهواجس والتوجسات.  
فهذا الطريح ذو الأعراض الظاهرة والخفية، المتصدعُ السقيمُ  
المتحسرُ العاجز، تربطه بالحياة نفسٌ متنفسة، أخف من شعرة  
أو ريشة، ويصله بها جسمٌ قاب قوسين أو أدنى من تحوله إلى  
جثة هامدة، مثواها الإقبار والنسي؛ وهذا أنا، لا قدرة لي ولا  
حول على نجدته، ولو بإطلاق حبالِي الصوتية صادعة مدوية...  
عبرات حرى بلّلت مقلتي، أنا القليل البكاء، لم يوقف عبورها  
على خدّي إلا سماعي صوت السجان يأمرني من طاقة الباب  
باستلام وجبتي، مؤكدا أنها لي دون رفيق زنزانتِي الممنوع من  
الأكل ثلاثة أيام تباعا. استلمت الصحن وبه شربة موشاة بقطع  
خبز وبصل وبطاطا، وضعته قريبا من الرفيق الذي ململ جفنيه  
واستفاق سائلا: إيش اللي حدث؟

أجبتُه: الحدث الحق، يا أخي، أن تكف عن تجويع نفسك  
وتقتات بما تيسر...

قرب أذني من فيه، قال: أنفاسي، من شدة ما عانت، ولت  
كلمي سقيمة؛ ثم لو أكلت، أخشى أن أضطر إلى القيء أو قضاء  
حاجتي في لحافي، حشاك...

أجبتُه متوددا مطمئنا: إذا أقبل ذلك، حملتك على ظهري إلى  
ركن الحفرة، وتم لك كل شيء على ما يرام.

أبدى الشاب علامات القبول والامتنان. رفعتُ رأسه تحت

مخدتني ما أمكن، شرعت للتو أجرجه بملعقتي الخشبية محتوي الصحن وأحضه على المثابرة والصبر، إلى أن أتى عليه كاملا. هنأته وأثنت عليه، ثم أصخت السمع لفهم كلمات يفوه بها، كانت للتعبير عن شكري والدعاء لي. فرحي مضاعف: العليل اقتات والأمل في إنقاذه ظهر بصيصه. فاللهم زد وبارك.

بطلب من رفيقي، أعدته إلى هيئته الأولى. مسحت فمه وعرقه، دثرته كيما يخلد إلى الراحة والنوم، وعدته أنني سأظل قريبا منه، ساهرا على خدمته، لا يصدني عنه نعاس أو سهو. استدني رأسي منه وقبله، همس في أذني: هل أمرك المحقق بمثلما أمرني فعصيت وامتنعت، أن تحرر له مقالات في شأنك؟

أجبت: وأعطاني كذلك حزمة أوراق وأقلام لا أذكر أين وضعتها. لكنني لن أفعل.

قال: بل عليك، أخي، أن تفعل... أنصحك بل أتوسل إليك أن تنفذ الأمر عاجلا، وإلا أصابك ما أصابني أو أكثر، وسلموك كما سلموني إلى المعذبة المحترفة، الخبيرة في أساليب الإهانة والتكيل، تعلمت أشرسها وأعتاها في مراكز أجنبية متخصصة، وأبدعت أخرى تتفنن وتلتذ في تجرييها على الأظناء المحبوسين، من صنفي وصنفك... عذاب القبر قياسا إلى عذابها مزحة أو لعبة صبيان... ولأنني لا أريد لك السقوط بين يدي المسماة ماما غولة، حفظك الرب من وحشيتها وجنونها، أدعوك من صميم فؤادي إلى مطاوعة المحقق، واجتناب غضباته ونقماته مقدار

اجتنبك السيدا والأمراض المعدية الفتاكة... حذارِ حذارِ، وقد  
أعذر من أنذر...

من فرط إجهاده في إخباري ونصحي، بلغ الإنهاك بالمتكلم  
منتهاه. خفتُ عليه من سكتة قلبية مفاجئة أو نزيف دماغي يعصف  
بحياته أو يُشله.

قلت: أستعطفك أخي، كُفَّ عن النطق رحمةً بنفسك وبِي. غدا  
صباحاً نستأنف الحديث في الشأن نفسه وشؤون أخرى...  
قال: بي حاجة، حشاك، إلى التبول، أعني.

حملته إلى ركن الحفرة، ساعدته على إفراغ مثانته، ثم أعدته  
إلى لحافه.

قال ساكبا دمعاً حاراً: لتكن أخي مصائبِي عندك فوائداً. لم  
تكتفِ الغولة بالإمعان في تعذيبي، بل سلطت عليَّ العملاق  
الأسود فهتك عرضي وفعل بي الفاحشة اللوطية النكراء، عقاباً  
لي على مقاومتي وصمودي... عِدني تحرر للمحقق المقالات،  
تقول فيها الحقيقة عارية خالصة، فتوفر على نفسك محنة التعذيب  
الممض والإهانات الفادحة...

بالعاريق هُلعي وانفعالي، أغضيت عن خبر الفاحشة اللوطية  
النكراء واكتفيت بالقول: قاتلهم الله جميعاً وخلّدهم في النار...  
سأفعل جهدي يا أخي، سيما أن لا شيء أبظنه وأخفيه.

أشار بالقبول وعقب: قد يأتي أجلي ليلا ولا أصبح، فاللهم  
اشهد أنني بلغت هذا العبد الضعيف ونصحت...

قرب رأسي وقبل جبهتي وعيناه تدمعان. قبلت بدوري رأسه  
المعصوب، تمنيت له نوما مصلحا وأنا أتمدّد على لحافي، مفكرا  
في أقوال رفيقي، مراودا بعض الراحة والاسترخاء.



## كيف حررت تقريراً في شأني؟

لا ريب كان نعاسي أثقل من الرصاص. انتزعني منه سجان دخل عليّ صائحاً: انهض، الرياضة خير من النوم. نهضت للتو، فتشت عن رفيق زنزاني في لحافه تحت ملاءته، لم أجد له أثراً. سألت عنه المداهم، لم يأبه لي. تبعته مضطراً، دائخ البال، متعثراً. حين أوصلني إلى ساحة مسيجة بأسوار عالية ذات أبراج حراسة، أمرني بالمشي مع الماشين دائرياً ولزوم الصمت، نبهني أن عينه وعيون زملائه عليّ تراقبني. امتثلت للأمر، لكن كلما استطعت سألت خلسةً بعض الدانين مني عن مكان اعتقالنا وعن السجين إلياس بوشامة. لم أظفر من رفاق المحنة والحبس بغير إشارات التمتع والنفي. ولما أعلن انتهاء حصة «الرياضة خير من النوم»، عاد كل واحد إلى مستقره، وكذلك أنا قدام حارسي الذي أغلق الباب عليّ وانصرف. طفقت أتابع رياضتي، أذرع مكاني خطوات، معكّر الخاطر، مدججاً بسؤالاتي وشكوكي، مشحناً بأوجاعي وهمومي.

مكوئي في مثنوي مستمر على حاله ومنواله، لا جديد فيه.  
جلستي مع السجين المدعو إلياس بوشامة تركت لي من علامات  
الاستفهام غموضها وحرقتها، ومن الأمل في تجلية المعنى  
تبخره وأحماؤه؛ جلسة مرت هكذا، قاسية خاطفة، وقد لا يكون  
لها ما بعدها... كيف حمل العتاة المهرة السجين المريض ونقلوه  
من دون أن يحتج أو يصرخ، ولا أن أسمع من أمره شيئا؟ تراهم  
خدروه أو خنقوا أنفاسه خنقا؟

هل عليّ الاستجابة لدعوة إلياس الملحاحة اللجوجة في  
تحرير مقالات عني وعن علائقي، تنفيذا لأمر المحقق بذلك؟  
نعم عليّ أن أفعل، تجنباً لنفخ ملفي بتهمة العصيان أو، على الأقل،  
لتزجية الوقت ومدارة ثقله على نفسي القانطة اللامطمئنة.

هكذا إذن، ببطن فارغ وذهن مشتب، سحبت أوراقى وأقلامى  
من تحت مخدتي، جلست للتدوين بعد إجراء حركات تنفسية  
وأخرى تركيزية. حررت فقرات متتالية في ما طلب مني. وبعد  
تشطيات وتنقيحات استقامت المقالات على النحو التالي:

«أنا الموقع أسفله، الواقع تحت الاعتقال النظري بمكان  
أجهله، أشهد أنني بريء من حزمة التهم الموجهة إليّ، وأنفيها  
جملة وتفصيلا من دون أي تلكؤ أو تحفظ، وهذا بيانه:

أنا وليد بادية مدينة وادزم الصغيرة، على بعد بضعة كيلومترات  
من خريبكة، حاضرة المغرب الفسفاطية. أرضها واطئة مفتوحة  
على المدى والآفاق، لكنها بما رحبت، كانت تضيق عليّ، تبدو

في ناظريّ سجنا فسيحا من دون قضبان ومستقعا متراميّ البقع  
واللزوجات الآسنة.

في جنبات القطعة الأرضية (دون الهكتار) التي كان يعمل  
فيها أبي كخماس، ما زلت أراني بوجه تشي قسماته بحزن مقيم؛  
وأرى أبي الذي تعكس تجاعيد محياه المتكثرة هباء الجهد  
والكد، وهموم الفصول العجاف. كنا، إذ يميل النهار إلى منتهاه،  
نجلس حول مائدة خبز وسمن وشاي من إعداد أم صبورة رؤوم،  
نقتات بما تيسر، نقلّب النظر حيناً بين بقرة ودواجن وجدران  
منزل وضع، وأحياناً نصوّبه إلى التربة الكالحة المغمومة أو  
إلى الأعالي السحيقة اللامبالية. كم مرة رأيت أبي ينتفض كاتما  
غضبه وغيظه، يخلع عمامته، يتوسل بها إلى السماء الممعة في  
صفائها الرتيب وزرقتها المملة، ويهتف مردداً: أنا اللي عليّ  
عملته. نقيت الأرض وفلحتها وزرعتها. بجاه ربي ارحمينا!  
بجاه ربي اعتقينا... ثم يختم فورته مزمجراً: قست السماء من  
كثر ما عصينا... قم تسقي الماء، حمودة، وقل لأملك تسخن  
حريرة الأمس...

ماء البئر في البقعة جف ونضب. لا حيلة لجلبه في قربات  
على حمار إلا من ساقية توجد على بعد كيلومترين. وحين  
أنهي المهمة، كم كنت أرفس الأرض من تحتي، أقذف تربتها  
وحجيراتنا برجليّ، كأني أصارع الجفاف المستبد أو أقلب

تضاعيف الحال وأستنطق المآل، بحثا عن مخرج لغمتي  
وقنوطي.

جفاف!

في علم المزارع وعند كل مدرك فهيم، أرض الفلح تتصدع  
أوصالها وتتوجع لما يهجرها الماء أو يضن.

لا سُرَّ من رأى حقول واد زم وكل بواديه!

السنة السادسة قبل انصرام القرن العشرين، والفصل فصل  
البذر والفلح في انتظار الغيث، لكن مؤشرات الطقس وتوقعات  
الأحوال الجوية تقول بلغتها الرصدية الوصفية ما يفيد عند  
الفلاح: هيهات أن تعرف المنطقة ومناطق البلاد كلها هبوب  
رياح شتوية أو أن تتلبد السماء بغيوم كثيفة متدافعة، تأتي بروق  
ورعود لتطلق سراحها أمطارا كافية شافية، يسميها من يعرف  
كنها وفضلها: أمطار الخير والرحمة!

هيهات هيهات.. إلا أن يحدث العجب العجيب ويلطف  
الرحيم الوهاب بعباده وبهيئته ويحيي بلده الميت!

وفي انتظار ما يأتي أو لا يأتي، للعين البصيرة أن تقيس عجز  
الإنسان بغيوم من جنس آخر، تلك التي تنفذ داكنة هاصرة إلى  
حواسه وحشاياه.

وللعين البصيرة أن تنكب على عينة أرضية مفردة، وتلتقط  
زحف الجفاف المأتمني، وتراص التربة وقحولها، واستحالة

لونها إلى الرمادي من شدة العطش والكلح، وبرود أنواع من  
النباتات الطفيلية والحشرات الضارة بين شقوقها...

وللعين أن تنبئ الأذن بشروخ التربة المفلوحة وكدماتها عبر  
ديبب تفسخها وسرطانها.

وللعين أن تُطلع الحواس جميعها على تدلي السنة التربة  
وفروجها، من شدة الظمأ والحر واستجداء للماء والري.

كما للعين أيضا أن تتحول أفقيا إلى أشجار متناثرة في البقعة  
ذاتها، وهي من الصنف الصامد المصابر، فتستكشف ضلوع  
الصهد الرصاصي الثقيل في شحوب أوراقها وشح ثمارها، فلا  
يفزع إليها من الطير إلا من جعل كفايته في النقب القليل، وشق  
عليه التحليق والرحيل.

ذاك الطير المسكين، الأيل إلى السقوط جوعا وعطشا، رافةً  
به وبعيني المحزونة عليه، وأيضا ببطني المحروم من أكل اللحم،  
أنشأت أجرب في صيده مقلاعي الذي وهبت منذ نعومة أظافري  
خبرة في إعماله معتبرة. غير أن شعاري بل آتني في ذلك كان أن  
أتطفف وأتعنف، فلا غراء أطلي به الغصون، ولا صيد سوى لسد  
الرمق. والغاية الرفقية وحتى البيئية النبيلة: تجنب الطيور اللاجئة  
أي إحساس غزير ما بخطر مدهامة وطرْد أو إبادة جماعية؛ بل إنني  
- والله شاهد - كنت، لكي أحبذ لها المقام والأوبة إلى أعشاشها  
بعد الطيران، أملاً ثقوب الأشجار بالحب وشتى أنواع الفتات،  
وتجاويفها بحقن الماء الشروب؛ كما يشهد تعالى أن صيدي

المتطفف المتعفف شرطته بتوالد الطير وتكاثره، ودونه تراني  
أتلهى بتصويب ضرباتي المقلاعية إلى الأرناب الضالة، فأصيب  
أصغرها أو أقلها سرعة ومراوغة.

شعور بالبؤس والعجز ملحاح، برز عندي منذ أربع سنوات،  
بُعِيد سقوط أبي ميتا على المحراث في حقل مشغله ومستغل  
كده وعرقه، وهو فلاح صغير أجلف، تزوج من قبل مرتين ولم  
يخلف، فطلق من غير إحسان وتحيف. شعور تفاقم واحتد حين  
تزوج أمي هذا الفلاح وأسكنها في بيته الحقير ببقعته المشؤومة.  
فكان أن أقبل الزوج الجديد على فصلي عن الدرس، أنا ابن  
السابعة عشرة، ودأب على إرهاقي بالعمل الشاق والنهر المهيئ،  
كما لو أنني دابة مقودة في خدمة الحقل والبيت، لقاء لقمة العيش  
وافتراش الحلفاء والتبن.

وأنا صاحب العين البصيرة واليد القصيرة، أشهد أن الكلمات  
عندي تعجز عن وصف إحساسي بالغمة والضيم، في أرض  
كلما حل فصل البذر والفلح أمست إذن في موعد مع الجفاف  
والجذب أو المطر الرذاذ وشح الغيث. وقتئذ يتضاعف جنون  
الفلاح الأجلف، ويجلجل في وجهي أن أرفد رأسي وأتدبر حالي  
خارج الحقل، بعيدا عنه، معللا تواتر القحط بكونه عقابا إلهيا  
على تكاثر العاقين والمغضوب عليهم من أمثالي وصنفي.

محيط كله ضنك وشؤم: لا الأرض تؤتي أكلها، ولا زوج  
الأم يقلع عن الفوه بالوعيد والسب.

## والأم الخمسونية المسكينة!

لولاها لكنت بادرت أول القهر إلى شق عصا الطاعة والخروج إلى هواء أيّ فضاء آخر. لكن الأم هي الحبل السري الذي أبقاني معلقاً بهذه الأرض الياباب، والآصرة الأسرة التي ترجف عجزاً، ولا ترى احتمال رحيلها عن باديتها حتى في الحلم.

تلك إذن نبذة عن سيرتي الذاتية، وكل تمطيط فيها أو نفخ عبارة عن زيادة من رأس أحقق...».

أضفت فقرات في تبرئة ذمتي من موت زوج أمي وفي رحيلي الاضطراري عن واد زم إلى وجدة...».

ضج الدهليز بأصوات من يحكون تناوبا صكوك التهم التي قادت إلى اعتقالهم في مجمع يجهلون موقعه ويطعنون في شرعيته. لم أكن أستطيع تتبع أقوالهم لرداءة أحوال البث وتقطعه، ولأنني ظللت منهمكا في الكتابة بقصد التخلص من عبء تلبية أمر المحقق في أسرع وقت. وفجأة طالبني أقرب الأسرى أن أقص عليهم التهمة الملتصقة بي وأرفع صوتي ما استطعت. شكرتهم على التفاتتهم الجميلة، واكتفيت بتلاوة ما يجيب عن سؤالهم في أوراقي، قلت:

«متهم أنا بقتل زوج أمي بضربة مقلاع ماحقة، تهمة أنفيها جملة وتفصيلاً، وأعلن براءتي منها. إنما في المقابل، لا أنكر أنني كنت أحياناً أحلم باغتيال ذلك الفلاح الأجلف، سيما حين

يعتدي على أُمي بالذم والضرب؛ كما أن الحلم نفسه كان يراودني في غار اعتدت ارتياده للقراءة والحفظ إلى أن يهزمني النوم، أو لشيء عصفور وأحياناً أرنب وأكله مع شيء من الخبز والكمون والملح؛ لكن، كما لا يخفى، شتان ما بين الحلم والمرور إلى الفعل، هذا علاوة على أن القنص المقلاعي إذا ما أصاب طائراً أو أرنباً فقد لا يرديه بالضرورة قتيلاً، فكيف له عن بعد يحجب الرامي أن يغتال جسم آدمي ذي عمق وطول وعرض. كدمة أو جرح هو أقصى ما يخلفه مقلع، فأين نحن من الطلقة النارية الماحقة لمسدس صامت أو كلاشنكوف رشاش!

على ذكر الغار، الذي أُمسيت أسميه غاري لِمَا بات لي عليه من تملك، لا ينازعني عليه متشرد أو ابن سبيل، ففي جوفه وسكونه طرحتُ على نفسي القانطة المكلومة سؤال الأسئلة، والجوابُ عنه مفتاح الأجوبة: هل حياةٌ هذي التي أحيأُ أم كابوس مرعب؟ وفي غاري، بعد جلسات وتمددات تأملية عديدة، استقر رأيي على أن لا حلَّ لي ولا مخرج إلا في هجر باديتي التعسة إلى فضاء مدينة أرحب وأنشط.

انتفضتُ والليل ينشر سدوله الأولى، قصدت البيت حيث أُلفيت أُمي على ضوء قنديل غازي تضع رأسها بين يديها، وحالة الكآبة والشرود طاغية عليها. جلست إلى جنبها أصبرها وأواسيها. وكالمعتاد سمعت منها كلاماً جميلاً في رضاها عليّ ودعائها لي أن يجعل الله مني «الزرع والزريرة» و«الكائنة واللي



تكون»، ويبقى سيل أدعيتها متدفقا، لا أقطعه من حين لآخر سوى بكلمات من قبيل: يا رب!... من فمك إلى السماء يا أمي!

رأيت الوقت مواتيا، فأطلقت العنان لكلامي كيما أفنع أمي أن هجرتي هي في داخل الوطن، لا إلى بلدان النصارى أو الثلث الخالي من الدنيا، وأيضا لكي تستيقن أنني سأكون دوما إلى جنبها، في الشدة والعسر وضد زوجها لو طغى وتجبر.

وكانت ساعة الفراق في فجر يوم خريفي كأنه صيفي لا فرق، والحزن يهصر قلب أمي وقلبي، وكان دمعها المدرار وأدعيتها لي بالفوز والنجاح ونجاة طريقي من الأشرار وأولاد الزنى والحرام. وقبل التوجه إلى محطة الحافلات حاملا حقيبتني الوحيدة، هددت الفلاح الأجلف بجذع أنفه وكسر عظامه إن لم يتق الله في معاملة أمي. وسمعته يتشدق بالأمر: ازهق بالماء والشطابة حتى قاع البحر...».

أحسست أن جيرانني، حتى الأقربين، سكنوا تماما وتناهى إلى سمعي شخير بعضهم. استمهلهم قليلا لعل أحدهم يطلب من قصتي المزيد، فلا من طالب ولا قالت من قهر النوم. عندئذ استأنفت تقريري مسجلا:

«مستقري الجديد كان في وجدة، حاضرة المغرب الشرقي، القريبة من الحدود الجزائرية، وهي ملتقى طرق بين مرتفعات وسهول وأودية، دخل منها الفرنسيين لاستعمار المغرب، وسميت قديما مدينة الحيرة. قصدت هذه المدينة لا لأنني

فضلتها على أخرى أو تيمنا ببلدة أجدادي، بل بحثا عن ملاذ آمن ومورد للعيش، ترجيت أن يوفرهما لي ابن خالتي الأوحده، المقيم هناك، وتحقق لي بعونه وفضله ما ترجيت. رجل شهم أبي معطاء، دمث الأخلاق، طيب الأحوثة، متعدد المزاياء، في الأربعين من عمره، يتيم من أبويه، كَوْن نفسه بنفسه، ربما تزوج من قبل ولم ينجب، مهتم بالفقراء والمعوزين من الناس، مغيث لهم ما استطاع، كثير الحركة والتنقل والأسفار.

لما أتته صفر اليدين، متبطنا قلقي وضياعي، استقبلني بالحفاوة والترحاب، آمني وخفف عني إذ أسكنني في مكتبته التي كان على وشك إغلاقها بسبب الكساد وندرة القراء، فجعلني قِيما عليها مقابل راتب شهري قار.

أربع سنوات قضيتها في وجدة، حصلتُ أثناءها، كمرشح حر، على البكالوريا ثم في متمها على إجازة في الأدب وأخرى في الدراسات الإسلامية. ولا ريب أن السر في تفوقي ذلك يرجع أساسا إلى انكبابي شبه المتصل على القراءة والتحصيل، الذي أتاحه لي تفرغي في المكتبة بما تحويه من مؤلفات قيمة وأخرى كنت أجلبها إليها بالشراء أو التبادل. وحين أخذت تجارتي تعرف بعض الرواج، نظمت أوقات الفتح والغلق بحيث أقنصر على الزبناء الجادين، وأنقطع إلى أخذ الكتاب بقوة. وكثيرا ما كنت أسهر ثلثي الليل في انكبابي، لا أوقفه لحظات إلا للتأمل والتفكر أو لتجديد المصائد للفئران قاضمة الورق أو الضالة.

خلال تلك المدة كنت، متى تيسر لي، أزور أمي في باديتها  
بواد زم وأتفقد حالها، فكانت تجهد في طمأنتي والإحجام عن  
ذكر زوجها الآيلة صحته إلى التدهور والسوء، وتتخذ حالته  
هاته تعلقة للبقاء إلى جنبه والتشبث ببلدتها وعاداتها. وفي نهاية  
كل زيارة، كانت تثقل حملي بالزاد الوفير، مشفوعا بالأدعية  
والتقبيل. وظللنا كذلك حتى وصلني منها لاحقا نعي زوجها  
بعد أن انقضت جنازته ودُفن. ولما عدتها قبل اعتقالها وجدتها  
أحسن حالا، كأنها تخلصت من عبء مضنٍ ثقيل، تدبر شأن  
القطعة الأرضية التي ورثتها، لا تبغي بتاتا بيعها ولا هجرها.  
وبعد ذاك انقطعت عني أخبارها وأخباري عنها مذ حللت بين  
ظهرانكم ضيفا رغم أنفي، سجيننا من دون محاكمة ولا تهمة  
ثابتة، بينة القرائن والفحوى.

هذا هذا ولا شيء غيره يرد في بالي، إلا ما يكون شيطان  
المكان أنساني أن أذكره، والسلام».

طويت أوراقها وخبأتها في مكان قد لا يلحقه رش خرطومي  
محتمل، وذلك في انتظار أن يطلبها الأمر بها، القاضي المحقق،  
لا أراني الله وجهه. استرخيت واستسلمت لنوم ملتبس، لا لون  
له ولا طعم، ولا تفسير عندي لصوره وومضاته، ما خلا رؤيا  
ختمته، بدت لي أمي فيها تعتب عليّ غيابي الطويل وقطع الصلة،  
تقول بالحرف: بطاقة واحدة منك لم تصلني... حتى لو كنت في

الثلاث الخالي من الدنيا! أفرش طريقك برضاي، طمئني: البحر  
ما بلعك، كما يبلغ هذي الأيام شبان كثيرين؟... وأجبتها يقطا،  
متقوعا: بل ابتلعتني صحراء مترامية الأطراف يا أمي، وحشرتني  
في محبس مجهول الموقع، مفجع رهيب، طقسه إما لهيب وإما  
زمهرير. لا رسائل تخرج منه ولا أخرى تأتي إليه. وعليك أماه  
بالصبر والدعاء لي، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

## في قبضة سكرتيرة المحقق

في ساعة لا أدريها، أيقظني صوت خشنٌ راعد: الرياضة خير من النوم... كنت قبل سماعه أجوب برؤى منامية بين واد زم ووجدة، بطلها ابن خالتي السائل عني، الحزين المتألم لغيايبي المديد... انتبهت فإذا أحد الحراس الشداد يأمرني بإجراء حركات تسخينية في مربعي، كالقفز والمشي برجل واحدة و«البومبات» وملاكمة خصم وهمي؛ وفي غمرة استجابتي نهزني أن أتوقف. امتنعت بدعوى أنني لم أهزم بعد غريمي بالضربة القاضية، وهذا الخصم في مخيلتي هو حضرة المحقق ولا أحد سواه، فهرع الحارس إليّ واقتادني بشدة نحو ساحة المعتقل، حيث تجري التمرينات الجماعية تحت شعار: العقل السليم في الجسم السليم.

في الساحة لم يكن معظم المترشحين يتعاطون سوى المشي دائريا وعلى نمط الصف الهندي، يبعد الواحد عن الآخر بمترين

ويزيد، ويُمنع الكلام بين المترضين ولو همسا أو رمزا. أما الممارسون للجري الأحادي فقلة قليلة، لعلمهم من الوافدين الجدد أو ممن لم يُحالوا بعد على مصلحة التعذيب.

قبل انتهاء الحصة، لمحت عن بعد بين الدائرين رفيق زنراتي الأسبق، المدعو إلياس بوشامة. قصده تلاقيا لأسأله عن حاله وأطمئن على صحته، فتصدى لي حارس غاضب وهددني بالكاشو إذا أنا عاودت فعلتي ثانية، فأدبرت عائدا إلى مكاني، أنشد السلامة وحسن المآب.

وجبة الفطور في زنراتي لبن يذكر لك لونه ورائحته ببول البعير. أعرضت عنه قانعا ببلع قطع خبز يابس بعد تليينها بالماء، وذكرت بعض أقوال سادة الزهد والكفاف، جاعلا منها عسلا لي وسمنا... من جهة الجسم، لا عرق غشاه جراء الحصة الرياضية، نظرا ليسرها وبرودة الطقس وقت الصباح؛ أما النفس فلا حيلة لي إلى طمأننتها ودفع أحزانها، إلا أن ينزل إليّ حبل من السماء مددا ونورا، فيخلصني مما أنا فيه، ولو بجذبي إلى الدار الأخرى. وفيما غلب عليّ التخمين والنظر في أمر ملء يومي بالنشاط النافع، إذا بالعملاق الأسود، السابق الظهور، يدخل عليّ ويجري إشارات فهمت منها أن سكرتيرة المحقق تأمرني بالمثول أمامها متأبطا تقريري، ثم لوى على معصمي ما إن سحبت أوراقا من مخبئها الآمن وسرت بحذائه، مكبا على وجهي، صامتا أو مسترقا النظر إلى مارين بزي مدني، تشي وجوههم بأنهم أجنب.

سلمني العملاق إلى حارس على باب المكتب المقصود، قام هذا بتفتيشي، قيد يديّ خلف ظهري قبل أن يعلن عني في اتجاه رئيسه التي أمرته بخلع قيدي.

في حضرة السكرتيرة، كدت أصعق وأنا أراها تحولت من فتاة الأمس المجلية المحجبة إلى أخرى بزي عصري جدا، على مقاس الغواية وقلة الحياء، وبوجه ذي عينين نجلاوين وأهداب وافرة كحيله، وجه زاده الماكياج جمالا على جمال، وأحاطه شعر أشقر كثيف تقفن في تشكيله حلاق ماهر. غضضت طرفي للتخفيف عني، وليبت دعوتها بالجلوس وتسليمها تقريري.

سمعتها تقول بصوت يغلب عليه الدلال والغنج: نعم... أنا من رأيته في هذا المكتب من قبل... كل جمعة وفي الأعياد الدينية أتحجب أو قل أتأصل، وفي ما عداها، كما ترى، أتعصرن... دين ودنيا، كما يقول حضرة القاضي المحقق... قلت إيه؟

ناجيت نفسي: أنت وقاضي الزور وكل الآخرين في هذا المركز، والله لا دين لكم ولا دنيا. كلكم إلى أم قشعم.

أعادت سؤالها: قلت إيه؟

أجبتها: قلت في التقرير ما قلت، ولا زيادة لي عليه...

استدركت: ذكرتني... الأستاذ المحقق في مهمة. كلفني بطبع أقوالك حتى يطلع عليها وأنقل ملخصها بالفرنسية إلى ماما غولة. قلت إيه؟

أجبت: حسنا...

كررتُ حسنا مرات لتسويد بياض وقت ميت. وبعدها شرعتُ في القراءة بصوت مسموع تارة ومهمهم تارة. لاحظت أنها تقفز على فقرات بأكملها، وتتناول قلمها المذهب من بين شفيتها الحمراءوين لتعليم كلمات أو سطور. استوضحتني عن ألفاظ لم تفهمها، ولا شك أنني أهملت تنقيطها أو خربشتها بفعل نرفزة أو تذر كان يصيبي أحيانا. طلبت منها السياق فقامت وتحركت نحوي بحذائها العالي وفخذيها نصف العاريتين وحوصلتها المكشوفة، ثم رددت ضاحكة كلمة السياق، وانحنت علي بصدرها الناهد اليناع المنفرج، تنعتُ لي بقلمها المذهب كلمة فأخرى، فطفقتُ أنا تحت محاسنها النفيسة وعطرها الناعم الأخاذ أهدئ بهيميتي وحواسي المستنفرة، وأنقل عيني خفية بين ساقها والسياق، متمتا تصحيحاتي وتنقيحاتي.

خطر لي وأنا قيد تلك الحال أن أنقض على المنحنية المهيمنة علي بأنوثتها الهائجة المائجة المثيرة، فأفعل بها فعل الثور بالبقرة، حتى إذا قضيتُ وطري أقمْتُ دفاعي ضد تهمة الاعتداء الجنسي على أساس اتهامي للغانية الغاوية بالتحرش الجنسي في شأنِي، أنا المحبوس المكبوت، كما يدل عليه ماديا هندامها الفاحش، وحركاتها المريبة، وكلامها المتغنج المغرر، فتكون حجتي البالغة الأَمْضى: الشر بالشر والبادئُ أظلم؛ لكنني تمثلت يوسف الصديق قُدس ذكره، ولو أنني دونه وسامة وتقوى، فأبيت



واستعصمت، لاعنا وسوسات الشيطان وشبهات امرأة العزيز،  
الكثيرات المنتشرات السائبات في زماننا الفاجر المتهتك هذا.

لعل السكرتيرة شعرت باضطرامي وارتابكي، إذ عادت إلى  
كرسيها، ومنه وجهت لي نظرات ملتبسة، ثم تفرست وجهها في  
مرآة حقيبتها اليدوية، وجددت ما كياجها على الخدين والعينين  
والشفتين، كأنما فرغت من عراق غرامي.

قالت وقد مالت لهجتها إلى اللين والدفء: الدين النصيحة.  
عليك بشطب كلام الحشو في أوراقك، وهو كثير، وتعويضه بما  
يفيد التحقيق. الدين النصيحة. دشّن الشطب على كل جملة تُشتم  
فيها رائحة السؤال. دستور المركز في المادة السابعة من فصل  
العدميات يُلزم الظنين بعدم السؤال، ولو قصد إليه بشكل مختل أو  
غير مباشر، ويوجب عليه في المقابل الجواب على أسئلة المحقق  
كلها... قلت إيه؟

أجبت: ليس لي سيدتي...

صحّحت: مامزِيل...

تابعت بلهجة حازمة متحدية: ليس لي، مامزِيل، ما أحذفه أو  
أزیده. كلامي يؤخذ كله أو يشطب كله.

نهضت فجأة متوجهة نحوي، وزعقت في وجهي بصوت  
وقد اخشوشن وتهند: الأستاذ سيشطب من كلامك ما يريد،  
ويُلزمك بقول الحقيقة كلها في أمرك. أما إن جفلت وعاندت

فما ما غولة ستشطبك من الوجود بجرة سكين... هل لأنني امرأة  
تستخف بي وتهينني! لكن انظر إلى يدي، إنها من حديد في قفاز  
من حرير.

ثم بادرتني بلكمة على خدي كادت تفقدني وعيي، وصاحت  
غاضبة محمرة العينين: هذي على سبيل التجريب. الآن قم  
وازهق.

خارج الباب، تلقفني العملاق الذي قادني إلى دورة مياه  
حيث أخذ ينعتها لي وينعت حجري. فهمت أنه يسمح لي بإزالة  
الجنابة، وذلك ما فعلت كما يفعل، ولا شك، كل رجل جالسته  
وكلمته تلك السكرتيرة الغاوية، وكان له قسمة من الفحولة  
ونصيب.

## جريح آخر على لحافي

عودا إلى مطرحي، لاحظت لحافي وقد انتفخت ملاءته طولا وعرضا، كأنما حشوها بالتبن والحلفاء أو ما شابه. رفعتها من الأسفل فإذا بي أمام قدمين آدميين، ظننت أنهما لإلياس، فهتفت باسمه وأنا أكشف عنه من جهة الرأس. ألفت هذا الرأس ملفوفا تماما بضمادات، فلا تُرى منه إلا عيناه المغمضتان وشارب خفيف يميزه عن إلياس أو قد يكون له حديث النبت. تمددت على اللحاف الآخر قبالته، وذهني يسرح مسترجعا صورا مما شاهدته في هذا المجمع الغريب الرهيب، الذي ما زلت أجهل موقعه، وليس لي عن وظائفه وأغراضه سوى ظنون وتخمينات. وفيما ملت إلى الغفوة، خبط خابط على بابي، استلمت منه عبر الكوة وجبة غداء، سائلا إياه إن كان رفيقي الجديد هو إلياس بوشامة، ففنى معرفته بهذا الاسم وغاب، تاركا على لساني سؤالا عما إذا كان الرفيق الجديد نصف ميت أم حيا يُحتضر، وآخر عن زنزانتني هل أمست مستودعا مفضلا لإيواء المعطوبين الكبار، المشخين بأخطر الجراح وأنكاها...؟!

جلست أنلهى بغمس كسرات خبز في شربة باهتة الطعم،  
أسد بها رمقي ريثما يطرأ طارئ يجلي لي واقع الحال، ويبدد  
بعض توجساتي وهو اجسي...

في لجة ترقيبي والصميت المهيمن، تناهى إلى سمعي أنين  
متقطع صادر عن المنطرح قدامي. هرعت إليه أحمد له أوبته  
إلى الوعي واليقظة، لكنه - واعجابه! - شرع يصدني بكلتا يديه  
ويصدع بكلمات الفزع والخوف مني، لا تثنيه عن تصعيد  
نفوره وروعه كلماتي المطمئنة المهدئة. عندئذ عدت إلى  
ركني مسرعا، تكومت فيه ملتقيا ألفاظا من هذيان المدعور،  
مفادها أنني عميل مزدوج، كلفته إدارة المركز بالتجسس عليه  
وتسقط حركاته وسكناته. رفعت عقيرتي بالأيمان المغلظة أنني  
معه في الهم والحبس سواء، لست بمخبر ولا جاسوس. لم  
يبد ردا. ظننت قسمي ظل دون طبله أذنه، فصحت به مرتين  
ملء بلعومي حتى أشار إليّ بالدنو منه. قعدت قرب رأسه. نظر  
إلي نظرة وعيناه مغرورتان بالدمع، ثم كشف عن أسفل حجره  
المضمد وقال بلهجة مهزومة متصدعة:

- شف، يا أخي، ما فعله بي أولاد الزنى! بتروا خصيتي  
اليمنى وهددوني بنزع الأخرى إذا لم أطعمهم وأتعاون...

متأثرا غاية التأثر، حابسا دمعي، سألت:

- قاتلهم الله ودمرهم في الدنيا قبل الآخرة! أي تعاون  
يريدون منك يا أخي؟

- أن أكشف لهم أسماء خلية جهادية لا أعرفها، وأخبرهم عن أشخاص مطلوبين لديهم، ربطتني بأغلبهم علاقات عابرة، أهون من خيط عنكبوت، وبيعهم علاقات مودة وتراحم... هل كان علي أن أذنب في حق من أحسن إليّ أو أورطهم حتى أتقيّ عذابا أليما، أذاقتني المسمامة ماما غولة صنوفا منه؟! إني أخاف الله، أخشى لو فعلت أن أُخلّد بعد موتي في جهنم وبئس المصير. هل توافقني الرأي، أخي؟

هتفت تلقائيا:

- طبعاً أوافقك، وأرى أنك تقتدي بنبينا الأكرم، ذي الخلق العظيم.

- تلك الجلادة، لما يثست مني، أحضرت شخصا مقنّعا، قالت إنه جراح المركز المحلف، وأمرته أن يفعل بي ما رأيت... هل أنزع الضمادة عن موقع الخصي ونقط الرثق الدامية؟

بإشارة حازمة مني نهيته عن ذلك، فأذعن مكرها، ثم أطلق العنان لبكاء حار لم يخفف منه إلا بسؤال صاعق:

- لو كنت مكاني، أخي، ماذا تفعل؟

أبدت ارتباكاً وحيرتي فأردف:

- أنا على باب الثلاثين، أريد تحسين ديني بالزواج الحلال. الجراح أقسم لي أنني بخصية واحدة أستطيع أنكح وأنجب، كما حال أيّ شخص تكفيه عين مفردة للنظر، ورثة دون

الأخرى للتنفس، وكلية واحدة تصفي دمه وتطهر... أنا الآن بين خيارين أحلاهما مر: إما أذهب في مقاومتي حتى النهاية، وعاقبتها المحتومة الخصي التام المبرم، وبعده أي امرأة تقبلني في فراشها؟ وأي سقوط واندحار في أعين الناس! وإما أخبر الغولة والمحقق عما أعرفه من الأسماء المطلوبة، وأتعاون مع فرق الجواسيس والعملاء في إلقاء القبض عليهم... أجنبي أخى: لو كنت مكاني، ماذا تفعل؟

قوست حاجبي تعبيراً عن تخرجي من السؤال والزامي بخيار، فقال:

- من حقت التمسك بالحياد والصمت. إنما لا تعجب إن أمسيّت ذات يوم، وأنت رهن الاعتقال، المعني المباشر بصنو سؤالي... الآن أعطني بعض القوت والماء، ثم اتركني أستريح، تكلمت أكثر مما أطيق.

لبيت طلبه على عجل. سألته قبل استسلامه للنوم عن اسمه، فقال عمر الرامي، وعن موقع اعتقالنا من البسيطة فأوماً بجهله. تعرّمت في لحافي ممعنا التفكير في حالة هذا المستضعف، المهدد باستئصال خصيته الثانية، ثم في إلياس، نزيل زنزاتي قبله، الذي بات وما أصبح. تكدست في ذهني المرهق الأسئلة والتلبسات، كدت أغرق في متاهتها ودوارها لو لم يقتحم مكاني حارس على رأس قدميه، مشيراً إلي باتباعه، هامساً في أذني: الرياضة خير من الهم...

لا بل في هذا المركب المرعب المظلم، إنها همٌ آخر هذي  
الرياضة! ولالة المركب مسخوا معناها، وقلبوا حكماتها الآنفة  
الذكر «العقل السليم في الجسم السليم» إلى مزحة ممجوجة  
وتمرين مهين.

في الساحة المعبدة الباهتة الألوان، الطقوس والمحرمات  
هي ذاتها. الجديد المشاهد هذه المرة هي حلقة مساجين  
مقيدي الأيدي والأرجل، ببذلات ذات بياض متسخ، يدورون  
بعيدا عن حلقتنا، بين ممرات ذات أسلاك شائكة وتحت مراقبة  
حراس بالسلاح مدججين. سألت همسا عن هويتهم سجينا  
قدامي فلم يجب، وعن واحد اسمه إلياس بوشامة فهز كتفيه،  
وحدث لي الأمر نفسه مع السجين خلفي.

أدركت أن لا أمل في استراق الكلام مع رهط السجناء،  
فطفت معهم لا أخاطر ولا أزيغ، جاعلا كفايتي في التزود  
بالصبر على المكاره، وتنشق بعض الهواء خارج جدران  
الزنزانة وأضجارها.

دوت صفارة انتهاء حصّة الرياضة، فاقتيد أصحاب البذلات  
الزرق إلى مطعم جماعي. مررت بصحني كغيري أمام موزع  
الوجبات، ثم جلست حول طاولة عريضة عُينت لي مع أربعة  
أشخاص، لكل واحد صحن حساء ببعض القطاني وقطع لحم،  
وله خبزة كاملة وموزة وإجاصتان. هل هذي وجبة ليوم عيد لا  
أدري ما هو؟

الصمت سيد المقام، لا تشوش عليه إلا تصويبات الملاحق  
والتجرجعات وحركات أيدٍ مشبوهة تحت الطاولة. أحبيت  
الإسهام في التشويش، فسألت عن مبرر هذي الوليمة، ولا من  
مجيب. ذهب واحد يملأ وعاءه مجدداً، فاغتنم جاري الأقرب  
مني غيابه ونصحتني بالكف عن الكلام بدعوى وجود سجناء  
مخبرين. استفسرته عن أصحاب البدلات البيض المكبلين،  
أجاب همساً: إنهم المؤبدون، من مات منهم يكفن ويدفن  
بلباسه الأبيض المتسخ؛ ثم سألته عن إلياس بوشامة وعمر  
الرامي إن كان يعرفهما، فهز كتفيه وسكت ما إن عاد المتغيب  
إلى مقعده. انكبت على صحنى ألثهم ما فيه، وحين أرمق  
العائد أراه يحدجني بنظرات شزراء متفحصة... هكذا إذن هي  
العلاقات بين نزلاء هذا المعتقل الشاذ المتوحش: منسوجة  
بخيوط التباس الأدوار، وغلبة التوجس والخيفة بين الأفراد،  
وتجارة موازية ذات علامات سرية وكودات.

حين إيابي إلى مستقري، لاحظت أن رفيقي الجديد، عمر  
الرامي، تبخر بدوره ولم يترك بطاقة ولا أدنى أثر. تمددت  
تعباً، أترقب انسداد الظلام، وأستنزل بالدعاء رحمة السماء  
لتفريج كربتي وإسعافي بالفهم لما يحل بي ويجري كل يوم  
من حولي.



## جلستي بين المحقق وكاتبته ناهد بوسني

في الغد أيقظني حارس عن بكرة أبي. اقتادني إلى جناح الإدارة حيث أوقفني عند باب وقال: بأمر من سعادة المحقق، ادخل هذا الحمام، اغتسل جيداً، أزل لحيتك، نظف أسنانك، تعطر، البس بذلة زرقاء جديدة فوق قميص جديد وضع ربطة العنق المواتية. نجد كل هذا في الداخل. عشرون دقيقة وأعود إليك.

غلق الباب دوني بمفتاح وانصرف. لحظة أمضيتهما أسترط ذهولي ودهشتي، ثم شرعت أسابق الوقت لقضاء ما طُلب مني. الماء الدافئ يغمر جسدي ويهزم أوساخي بعون الصابون السائل وكيس الحك والدلك الناجع. حين استوفيت حصتي من الغسل، جففت أطرافي بفوطة لينة عريضة، نظفت أسناني بفرشاة عذراء ومعجون زكي، قصصت لحيتي على طريقة أهل السنة، تعطرت ما استطعت قبل أن أردي لباسي الجديد. شيء واحد نسوه: حذاء يناسب البذلة ويواتيها! انتعلت زوج خفي

المطاطي، اقتعدت كرسيًا وقد استبد بذهني خوف من أن يكون هذا الكرم التطهيري طريقة القيمين مع سجناء على عتبة تنفيذ الإعدام فيهم، أي غسلًا قليلًا لجثثهم الموعودة للدفن.

لم أجد من حيلة لمداواة رهبتي والتشويش عليها إلا في الإكثار من تنظيف أسناني وتمشيط شعري إلى الخلف. ولما فاجأني الحارس بدخوله، بلعت ما علق بفمي من المعجون، ثم عبرت له عن شكري وأهبتي، واستأذنته في حمل بذلتي القديمة وشيئا من لوازم النظافة، قال: كل ذلك لك، وبذلتك الوسخة ارمها في سلة المهملات أمامك وضع ربطة العنق. هيا...

حشوت اللوازم في جيوبي مثاقلا. فهم الرجل أنني لا أحسن عقد الربطة، فبادر إلى مساعدتي قبل أن يصحبني إلى مكتب سعادة القاضي المحقق.

استقبلتني شابة مبتسمة نشطة. نعت لي كرسيًا وقالت بصوت رخيم دافئ: ناهد بوسني في خدمتك. سعادة الأستاذ على الهاتف...

لا... السكرتيرة التي جالستها في هذا المكان من قبل غير هذي الفتاة المهذبة اللطيفة! تسنى لي إدراك وجوه الاختلاف بين المرأتين في قامة هاته المعتدلة وقامة تلك المفرطة، كما في قسّمات المحيا، ولو أن الأناقة والحسن يطبعهما معا. وحتى الهندام فهو عند السكرتيرة الجديدة، بخلاف الأخرى، أقرب

إلى الحياء والحشمة، لا يقلل منهما حجابها الموسليني الشفيف على شعرها المبوكل.

رن الإنترفون. رافقتني السكرتيرة إلى مكتب المحقق الذي لقيني بوجه بشوش وهنأني على ميل وشي وهندامي إلى الأحسن، ثم دعاني إلى الجلوس قبالة بعد أن طلب من ناهد أن تحضر لي شيئا. خيرتني قائلة: شاي أو أهوة؟ أمرها المترنح على كرسيه الجلدي الوثير خلف منضدته الضخمة: أعطه قهوة مضبوطة. وحين غابت أردف مبتسما، ملامسا شاربه المقصوص:

عرفت من قبل مغربية من فاس تنطق القاف ألفا، وهذي الفتاة تزيد عليها في قلب الرء غينا، وأعوص منها عراقية كانت في الخدمة، سامحها الله، تفعل بالكاف والجيم ما لا يطاق، إذ تقول أحشي بدل أحكي، وأدهى منه الياي عوض الجيم، فإذا عزت في موت أحد قالت لأقربائه الذكور، كل على حدة: عظم الله أيرك، وتقصد أجرك، كما لا شك فهمت. ولله في خلقه ما يشاء! لكن سكرتيرتي في الرقن تلتزم بجادة الحروف ولا تحيد عن مخارجها... وظفت هذي اليتيمة لأنها متدينة، تخاف الخالق، تحفظ كتابه العزيز، تتقيه في مقابلة النزلاء المستنطقين. يلقبها الزملاء والزميلات بينزير، نظرا لشبهها الخلقي وحتى في الهندام والحجاب الموسليني بالست بينزير بوتو، أبقاها الله للنسوة أسوة حسنة في الدنيا قبل الآخرة.

وسكر تيرتي هاته معجبة أيما إعجاب بالست بوتو، ولو أنها لا  
تقرب السياسة ولا تلامسها.

أتتني الفتاة بفنجان قهوة ومعه قطع شوكلاتا.

سألها المحقق نزقا: في السياسة، لا ناقة لك ولا جمل،  
يا ذات الأناقة والجمال! أليس كذلك؟ وأردف وهو ينعني:  
قولي بلى لهذا البلاء المسلط حتى لا يضبطك في حالة مخالفة  
خطيرة لأصول لغة الضاد وقواعدها. قولي بلى.

أجابت المسكينة: بلى! ثم طالبها أن تتلو أقصر سورة  
في الذكر الحكيم ولا تتعدها، فقالت محتشمة وهي تروم  
الانسحاب: [إنا أعطيناك الكوثغ. فصلٌ لغبك وانحغ. إن  
شائكَ هو الأبتغ]؛ ثم خرجت وهي تغني: يا من يأول لي  
أهوى/ أسقيه بيدي أهوى...

صاح القاضي مبتسما:

- اذهبي عسى الله يغفر لك قراءتك القسرية، كما سيغفر  
لأصحاب القراءات السبع... أما جمانة السكرتيرة السابقة،  
المحالة على جناح النساء فقط، فلا غفر المولى لها تعنيفها لمن  
قابلتهم من النزلاء، وأفسدت على تقاتهم وضوءهم بتبرجها  
وغنجها، وهام في حبها والهتاف باسمها ضعفة الألباب،  
الزائغون عن ربة الدين والأعراف... قل لي... هل أثناء غيبيتي  
حصل لك معها مكروه؟

سكت مطرقا. كشر عن أنيابه وصرخ حانقا:

- اللعينة اللعينة! عاهرة ولعينة! أوصيتها بك خيرا وعصتني.

هل ضربتك؟ والجنابة هل...

- اللعينة! تذكّرني هاته بأخرى هي الألعن، عاشت في

الجاهلية، ولو لم يعشقها شاعر عظيم من جيلها وبني عمومته،

ولو لم يخلّد اسمها في معلقته العصماء لكانت لا شيء، هباء

مثور، نسيا منسيا. هل أدركت من إليها أشير؟

أومأت بالنفي، فحنحن وتمختر في قعدته كأنه يهيني لإلقاء

قولٍ ثقیلٍ عليّ:

- تلك العاقة المتعجرفة المتنفخة المتغطرسة كالطاووس،

التي قال فيها شاعرنا المولّد بها بيتين ليس لهما والله نظير

في آداب الدنيا كلها... ذكرني بهما... ولقد ذكرتِك والرماحُ

نواهل... أكمل حمودة، أكمل...

استجبت مكرها:

- منّي ويبضّ الهند تقطر من دمي.

- الله الله! فوددتُ تقييلَ السيوفِ لأنها... أكمل حمودة...

- لمعتُ كبارقي ثغرِك المتبتسم...

يقول عنتره بن شداد العبسي مثل هذا الشعر العلويّ الفائق

البليغ، ولا تفعل به عيلة اللعينة ولا يخفق له قلبها، بل تلقى

بالنور والصدود مبدعه الأسود البشرة، الأبيض الصدر  
والسريرة! ألا ترى معي أن عبلة هاته لعينة، بل شرموطة  
وعنصرية مقبلة؟

صمتُ خافضاً طرفي.

- شبه ما لك مع شاعر عبس المفلق، مع وجود الفارق  
الشاسع بينكما، فهو جرّاء حرقته وخيبته في حب عبلة خلف لنا  
شعراً عظيماً خالداً، وأنت في علاقتك بالسكرتيرة السابقة جمانة  
يصح عليك المثل: ربّ نعمة في طيها نعمة. أنت إذن تأكدت أن  
فحولتك ما زالت بخير. احمّد الله وأكثر له الشكر...

أشعل المحقق غليونه. خيرني بين سيجارة أو سيجار،  
اعتذرت. علّق مصطنعاً حياءً لا يناسبه:

في علمي المتواضع، خلافاً للخمر، لم ينزل نص في تحريم  
التبغ. لكنني في هذا وذاك أتوخى الوسطية ولا أحيد عنها. أما  
أنت فالراجع أنك تجتنب بنت الكروم وتضيف إليها بالقياس  
الدخان والأفيون. أليس كذلك؟

- بلى (أجبت). الصحة كنز الأحياء، والوقاية خير من  
العلاج.

- صح... والله صح! لكن زماننا هذا مليء بالتوترات  
والمغصبات، ومواجهته تحتاج إلى شيء من المهدّئات...

تملّمل المحقق في قعدته نافثاً في وجهي دخانه. قال بصوت  
لا يخلو من تضايق ونرفزة:

- كنتُ من قبل أستقبل الأظناء بأوساخهم وكرهه روائحهم،  
أصبر عليهم لوجه الحقيقة وطمعا في الكشف عنها ونيل رضى  
الله. وبعد رجوعي من مهمات في الخارج، أمرت لا يدخلنَّ  
أحدٌ عليّ منهم من اليوم فصاعداً إلا وقد تطهر وتعطر. وأنت  
الآن أول المطهرين المعطرين المزينين على نحو لن يحوشه  
غيرك... ما جعلني أعطف عليك ولا أفوض أمرك إلى مستنطق  
وعر شديد هو تشابهنا في نقطة بعينها. هل تعلمها؟

أجبت على مضض:

- سبق لك، حضرة القاضي، أن أنبأتني بها: كلانا خريج  
كليتين من بلدين شقيقين، لك إجازة في الشريعة ولي مثلها،  
ولك أخرى في الأدب ولي صنوها...

- إيه... صحيح! لكن فرقت بيننا الأقدار والسبل، وسبحان  
الذي يسر لنا هذا اللقاء لتتعاون على إظهار الحق وإزهاق  
الباطل...

صمت الرجل لحظة مصوّبا إليّ نظرة حادة مستفسرة. سألت  
مرتبكا:

- أي حق سيدي وأي باطل؟ في أي نقطة من الدنيا أوجد؟  
لماذا بالحبس التعسفي والتعذيب الممض تستنزفون صحتي؟  
هل تريدني أبكي وأتضرع كيما ترفعوا أيديكم عن جسمي  
الآخذ في الضمور والانهدام؟

صاح الرجل ملء حنجرتة مقاطعا، محتقن الوجه، خابطا بيده على المنضدة:

- عدم التفوه بالسؤال عليك واجب... ياناهد أقبلي... ياناهد  
أقرئي على هذا المعاند المادة العاشرة من فصل العدميات...  
تناولت الفتاة سجلا من الرف وتلت: تنص المادة العاشغة  
من الآتون الداخلي...

فجأة خطف المرعد المزبد السجل وتابع: السؤال من  
اختصاصات المحقق وصلاحياته، إنه وحده المفوض والمؤهل  
قانونيا لصوغ السؤال وطرحه. أما المتهم فيجب عليه عدم  
الخوض في ذلك إلا بطلب من المحقق وترخيصه، على أن هذا  
الأخير ليس ملزما بتسجيل السؤال ولا بالإجابة عليه، انتهى.

ظل القاضي يدخن غليونه بعصية، ثم قال:

- هلا أتيتني يا الوجدني بنكتة لعلها تعيد إلى التوازن منسوب  
السكر في دمي؟

صمتُ وقد غشيني التحير والاضطراب، فصففتني  
السكرتيرة منبهة: الأستاذ يسألك!... بصوت خفيض يروم  
التهدئة، قال الأستاذ:

- لا للتعنف ياناهد، لا للتعنف. يشهد الله أنني حتى في تحقيقاتي  
مع الصناديد الأشداء، الكارهين لقول الحق، ما عذبت أحدا قط  
وما ضربت وما بصقت. العنف، هكذا خلقت، يفسد علي مزاجي



بل وضوئي وصلاتي... هذا الوغد الجالس أمامي يستعديني عليه  
ويبخل عليّ بنكتة! لا بأس... أحكي لنفسني واحدة عليها تسوي  
أبخرتي، فما حك جلدك مثل ظفرك. اسمعها يا ناهد إن شئت قبل  
أن تذهبي: شيخ من بني خفاجة/ له إذا جنَّ الليل حاجة/ كحاجة  
الديك إلى الدجاجة... الأهم من هذا أن شيخنا تنافس أصحابه في  
اتهمه بخلط شعبان برمضان، فاستفحش تهمتهم وأنكرها، وقال  
إذا كنتم تستحلون اتهامي بشيء فاتهموني بما فيّ وأقرّه. قالوا: ما  
هو؟ قال: خلط شعبان برمضان ليس ما أتقنه، بل خلط شوال بذات  
القعدة. فضحك الصحاب لذلك شهرا ونيف...

هربت ناهد موحوحة متحرجة، فيما القاضي يطبطب على  
بطنه مقهقهها:

- جوزيتَ خيرا يا شيخ، ونُعِمْتَ قبيلةُ بني خفاجة! حسنتَ  
مزاجي إذ أضحككتني أضحك الله سنك يوم الحشر، وأعطاك  
من خيراته جنتين... والآن يا الوجدي، لنرجع من الهزل إلى  
الجد... أنت معي كمن يصوم عن الكلام شهرا ويفطر على  
بصلة بل زيلة؟ تقريرك إنشاءً سخيف بل لغو. ماذا يهمني،  
أنا المحقق، من أمر أرض وجفافها، وحبك لأملك وكرهك  
لزوجها، وغير ذلك من الترهات والحشويات، التي كدتَ  
تذهب بها إلى إخباري عن يوم ختانك وأول مرة استمنيت أو  
نكت امرأة أو بقرة. في كلامك نأبي سافر عن البيان والبلاغة  
للذين أوصيتك بهما خيرا، فلم تستجب ولم تلبّ. فوّت على

نفسك فرصة ذهبية في استبدال الكلمات والتعابير السوقية الشائعة بتلك الأخرى العالية القدر، الرفيعة المعنى والذوق، منها على سبيل المثال لا الحصر: الرمس والجذث والحمام والردى والديجور والديجوج وركب الوعشاء وافرقع وابدعّر وتطنبل واخلولق ولو ترما والكروور... مصيبة زبّاء وجريمة نكراء أن نترك قاموسنا العربي العظيم الثراء تعبت به أيادي الإهمال والنسيان، وتنهشه نيوب الجهل والنكران...

توقف الرجل برهة يسترد أنفاسه، مهمهما بنوع من التلذذ: لو ترما، الكروور! ثم أردف بنبرة فظة:

كأنني بك لإجازتك في الأدب حامل زور، اختلستها أو ربما اشتريتها في زمان الرداءة هذا وهبوط المستوى. أنت إنما قصدت تبريز براءتك من تهمة قتل زوج أمك، وتلميع صورتك كإنسان مسالم متخلق. هذي التهمة ودونها أخرى أعلمها، أسقطها عنك، رغم حوم كل الشبهات حولك، والشرط أن تفيد وتجيد في إخباري بالشاذة والفاذة عن ابن خالتك، الحسين المصمودي، وأسراره وتحركاته وعلاقاته الخفية الخطيرة. طوق نجاتك بين يديك. أريد كل شيء عن ذي الاسم الميداني أبي البشائر، ودع عنك أي ذكر لفضله عليك وإحسانه إليك، فهذا أعرفه، وهو ما جعل مصالحي تلقي القبض عليك وتضعك رهن الاعتقال النظري. فكر في الأمر جيدا وحرر لي فيه تقريراً بليغا هادفا تنجُ بجلدك، فتريحنا منك وتستريح...

رن الهاتفف. أمرني المحقق: حلّ بالشوكولاتا... تناول  
السماعة: احتراماتي سيدي الكولونيل... نعم... أعضاء بارزون  
في التنظيم الإرهابي الذي تذكرونه اعترفوا وأعطوا معلومات  
في غاية الإفادة والدقة... نعم... عددهم سبعة... ستة وقّعوا  
على طلب العفو والتوبة، وواحد مات بسكتة قلبية في كهف  
ماما غولة... نعم... تقول هي إنها عذبتة بعد أن عذبها بعناده  
ومقاومته... نعم حضرة الكولونيل، الشر بالشر والبادئ  
أظلم... نعم أنا على الخط أسمع وأطيع...

أشار لي بيده أن أذهب فليت. وحين جزّت السكرتيرة  
ناهد، بدا لي أن أتحاقق قليلا فغمزتها غمزات بليغة، وملء  
فمي الشوكولاتا. ندت عنها وحوحة خافتة وعيرتني: أنت  
شغيف وكمان عديم التأوى والأدب. قلت لها شكغا شكغا،  
مرفقا شكري هذا ببوسة هوائية، ثم خرجت للقاء حارسي  
بوجه مرح ونظرات جذلى. قريبا من الباب، كان حارسان يعدان  
سجيننا مقيد اليدين والرجلين للمثول أمام المحقق، لا ريب أنه  
من الخطرين... هل أصير يوما من هؤلاء إذا ما صمدت في  
موقف الممانعة وعدم الخنوع والعمالة؟

في ممرات العودة، بنية صادقة في إجراء شيء من التعارف  
والتواصل، سألت حارسي عن صحته وأحواله المهنية  
والعائلية، أجبني بكلمة واحدة: بخير. وحين أردت إغناء  
النقاش ردعني بترجيتي ألا أعرضه ورزقه للخطر. خرس.

وقبل أن يغلق دوني باب زنزاني أنبأني أن المقرر في برنامج يوم الغد إجراء مقابلة في كرة القدم بين فريقين من السجناء، ونصحني بالاستعداد والخلود المبكر للنوم.

في فراشي كما في أركان فضائي، فتشت وفحصت باحثاً عن دخيل آخر أو جثة. تبين لي أنني وحدي لا يزاحمني في توحيدي آدمي حيا أو ميتا. لاحظت أن بعض القوات ما زال عالقا بصحني، فأتيت عليه. تذكرت غنيمة هذا الصباح المائلة جيوبي، فأخفيت قوارير العطر والصابون تحت وسادتي، ونظفت أسناني بالفرشاة والمعجون كما يلزم، ثم أجريت تمارين تسخينية قبل أن أتمدد مراودا نوما أجلةً إلى ساعة متأخرة من الليل إدماني على التفكير المتوتر، مرة في ناهد بوسني، ومرات في شخصية المحقق الملتبسة الخيثة وما غمرني به من ترغيب وترهيب، ومن كلام يروم كسر معنويتي وهمتي وإن بالمخاتلات والتمويهات وشيء لا يستهان به من البلاغة المتكلفة المتفنقة.

## ماتش المساجين

في الغد عند حمّارة القيظ واشتداد العطش، كان موعدي مع  
مقابلة كرة القدم بملعب رملي خلف بنايات المركز. الفريقان  
معا من السجناء، حسبما ذكر وأُعلن من بوق معلق في نافذة.  
استرعى انتباهي أن فريقَي كلّه، وسموه الأسود الضارية، من  
الحفاة أو بنعال مطاطية مثلي، وأكثرهم مهزولون ضعاف؛  
بينما عناصر الفريق الخصم، وسموه الحُمْر الوحشية، يتنعلون  
أحذية احترافية، ويشبهون لاعبي الروغبي الشداد الأصحاء.  
سألت همسا أقرب حلفائي عن سر تلك الفوارق الخارقة،  
أجابني وهو يتريض: ستفهم. الصمت الآن أحسن.

بعد عمليات تسخينية، نادى على اللاعبين جميعا بصفارتها  
حَكَمَة ذات زي أسود، وهي بالذات والصفات ماما غولة، السيئة  
الذكر والصيت، فحاطبتنا بفرنسيّتها المحبوبة ولهجة الحاكمة  
العسكرية التي لا يشق لأوامرها غبار. قال الترجمان:

- لعبة كرة القدم عندنا ليست ما علمتم وعهدتم. نحن هنا فيها، كما في كل شيء، نبتكر الجديد ونبدع الأصيل. المقابلة تجري في شوط واحد متصل لا ثاني بعده، لا أشواط إضافية، لا استراحة؛ شوط واحد أحد تُحتسب فيه الأهداف، لكن النصر لا يعود إلا للفريق الذي يظل يصبر ويقاوم، ولا يعلن انهزامه ولا ينسحب... والآن توكلوا على الله حتى تكون الغلبة للأقوى.

بعد كلامها الغريب ذاك، أجرت الغولة قرعة افتتاح الماتش، فكان من نصيب فريقتي، ثم ذهبت تتفحص الشباكين، وتحدث مع بعض الحرس الواقفين على خطوط التماس مع كلابهم البوليسية. عندئذ بادر فريق الحُمُر الوحشية إلى إطلاق الأعنة للقفز والسب في حق فريقتي بعبارات بذينة منكرة، مصحوبة بإشارات التهديد والوعيد، ورد بعض صحابي على شرهم بشر أهون، فحدث تراشق بالبصاق واللطمات، ولم يوقفوا خرقهم للأدب الرياضي إلا حين عادت الحكمة إلينا معلنة بصفارتها بداية المقابلة.

وقتُ أقدره بنصف ساعة مضى على البداية، والبالون لا يفارق أرجل فريقتي، واعجباه! وقتُ سجلنا خلاله تباعا حصة ثقيلة من أحد عشر هدفا، كان نصيبي منها أربعة، وذلك من دون أن نلقى من الخصوم اعتراضات جدية ولا مقاومة تذكر. حتى حارسهم كان كلما رأى مهاجمينا يزحفون نحو شباكه، تكوم

داخله مبدىا ارتبأكه ورعبه أو فر خارج خط التماس صارخا مستغيثا، فيما أصحابه يتضاحكون ويقهقهون.

بدءا من الهدف السابع، شعرت أن مؤامرة ما تحاك ضد فريقى، فأنشأت أنبههم إلى ذلك عند تسجيل أي هدف إضافي، صار أغلبهم، وهم في غمرة التعانق والتباوس، يتهمونني بالتخاذل والتشاؤم، ويدعون أن فريقنا ينطبق عليه اسمه «الأسود الضارية» عن استحقاق وجدارة. لكنهم مالوا إلى موافقتي الرأي حينها دب العياء في أوصالهم واستفحل من شدة التهافت على شبك الخصم، وكثرة الأهداف والتصويبات الخاطئة، فأمسوا يجرجرون أرجلهم داخل مربع الدفاع، لا يتخطونه، وإذا غامر أحدهم خارجه فلكي يمشي متنزها، كما لو أنه في ملعب الغولف أو حديقة عمومية.

بعد انصرام الوقت المذكور بدقائق معدودات، تغير وضعنا تماما وساء، بل تطور من سيئ إلى أسوأ، ذلك أن خصومنا ما إن شبعوا من فصل الهزل والمسخرة حتى عقدوا أحزمة الجدد وشحذوا أسلحة الهجوم والثار، فأظهروا واستعرضوا عضلاتهم ولياقتهم البدنية القاهرة، إذ حولوا الملعب إلى ساحة حرب هجومية ضارية، وغارات عنيفة متوالية. ولما حشرونا في نصف الملعب ثم في خطنا الدفاعي المهزوز، أجهزوا بالضرب المبرح على من منا أمسك بقدمه البالون، أو فقط وقف بجواره؛ إجهاز أفضى بالتدريج إلى تساقط

متوعكين بكدمات وكسور وجروح، نُقل فاقدو الوعي منهم إلى المستوصف، وظل آخرون منطرحين على الرمل ينزفون ويئنون، ومنهم ذاك الذي سألته من قبل عن الفوارق الخارقة بين الفريقين. انحنيت عليه مواسيا، قال لي لاهثا: أظنك الآن فهمت... الفريق المتغلب بالعنف والضرب هو من السجناء العملاء التائبين، ومن هؤلاء الاحتياطين الملتحقين بفريقنا لتعويض جرحانا... ستراهم سالمين معافين عند نهاية لعبة البطش هاته، إن لم يصبك من قبل أذى.

وفعلا شاهدت هؤلاء، ومعظمهم من ذوي البطون المتنفخة، أبداً لا يجرون، بل يمشون الهويناء، يختالون، يتمخرون مدخنين، مترشفين البيرة. وإذا جاءت الكرة إلى قدم أحدهم أو اصطدمت به عرضا، بادر إلى تضييعها أو- وهذا في الغالب - إلى تمريرها للخصوم بشكل لافتٍ مفضوح؛ وأيضا كان بعضهم يقبعون في جوار مرمى الخصم، حتى إذا قُدّم لهم البالون على طبق من ذهب، تلاعبوا به حيناً ثم أتلّفوه بعيدا عن الشباك. هذا فيما صوت مراسل في بوق، لم يكن يُسمع جيدا من قبل، صار يهذي بكلام تُفهم كلامته، لكن والله ليس له أيُّ صلة بوصف المباراة لا من قريب ولا من بعيد.

متصيبا عرقا بفعل الحر والانفعال، هرولت نحو الحكمة، بنتِ الكلب، وقد تهادت على جنبات الملعب، متسكعة مدخنة، متبرجة بمؤخرتها المهولة، كأنما نسيت دورها وفقدت



صفارتها أو سرطتها. نبهتها إلى تجاوزات الفريق الخصم وخروقاته العنيفة، فلوت على ربطة عنقي التي نسيْتُ التخلص منها، وعاجلتني بضربة رأسية متبوعة بأمر حاد، فهمتُ من فرنسيته أن عليَّ إيعاد نتائتي عنها وتعويض حارسنا النائم داخل المرمى، وإلا رفعت ضدي تقريراً شديداً للهجة في إثبات عصياني وزيفي عن قواعد اللعبة.

قصدت للتو شباك فريقتي لمحاولة وقف نزيف الإصابات البالغة الثلاثين على أقل تقدير. تأكدت من أن سلفي حارس المرمى ما زال على قيد الحياة، ثم تموقت بين العارضتين متعبتا مستنفرا، فتوقفتُ في حماية شباكي من هدفين خطيرين، ولو بفقدان نعليّ الممزقين، لكن الهدف الثالث، المسجل بقذفة صاروخية على بعد بضعة أمتار فقط، ارتطم معه البالون بوجهي، فهويت على الأرض دائخاً مدهداً بعض الوقت، أقدم خلاله لاعبون، متحكمين مستهترين، على إدخال الكرة بضربات بهلوانية من مؤخراتهم أو حجورهم.

غالبت حالي بشق الأنفس، تموقت من جديد حافي القدمين، شاهدت بعض صحابي الصابرين، إذا مرر أحدهم الكرة فإنه يُمنع من المرور ويسقط. وفي هذه المرة زحف نحوي خصم وقد تمكن بشدة من البالون، توقف أمامي على بعد متر وهددني قائلاً: بهذه الإصابة أنيكك، يا دين أملك... تفرست وجهه وصحت: إلياس! أنت والله إلياس... كيف

حالك يا صديقي؟ فرد: بل عباس ابن فرناس. وقام بمراوغة بهلوانية مكنته من تمرير الكرة بين رجلَي لِإِذْلالِي، غير أَنِّي إنقاذًا لماء الوجه، تراميت عليها جنبيًا ومنعتها من الهدف، ثم استقممت واقفا لاويا عليها. آنئذ لُكمني خصمي لكمة أسقطتني أرضًا، وجرفني مع الكرة داخل الشباك، حيث انهال عليَّ بركلات عنيفة أفقدتني في آخر الدوار وعيي.

## ليلة تعذبي الأفظع

زنزانتني المشمسة!

هأنذا مرميٌ فيها، بعد أن خضعتُ لحصة ضرب وتعذيب  
أثناء مقابلة كرة القدم المزيفة تيك. تمددت على لحافي أداري  
جروحي وندوبي، أفتات من بقايا طعام شحيح على مائدتي،  
أغرق النظر في ما حل بي وفي احتمالات مآلي. ظللت على  
تلك الحال حتى أخذتني عيناى إلى نوم مستفز قاهر.

فجأة أيقظني وقع خطوات صادع. هلعت. تراءى لي  
السجان العملاق موجهها نحوي مشعله المتأجج. جذبني من  
تمددي واقتادني خارج مربعي. أردت من باب المجادلة الحسنة  
استخباره عن وجهتنا وتنبيهه إلى أن الطقس جميل هذا اليوم،  
لكني ما إن فهتُ بوضع كلمات حتى سلَّ لسانه المقطوع نصفه  
وأشار بالنفي إلى أذنيه، تعبيرا عن بكمه وصممه. وحين صار  
الهواء رطبا عفنا، افترضت أن المكان قد يكون قبوا أُعدَّ لقضاء

مهام غامضة قذرة. تأكد شعوري حين أقعدني حارس في ركن  
قبالة نفر من الجالسين على الأرض. عندئذ تلقيت مصعوقا ما  
لا يُتحمل: مشهد تلك الغولة التي سمعت عن قسوتها وبطشها  
من قبل، ورأيتها في ملعب كرة القدم رأي العين؛ غولة نصف  
عارية أراها هذه المرة، تنصب عرقا، منهكة في تعذيب رجل  
معلق من قدميه؛ وحشة عدوانية تتشدد بألفاظ بذينة في وجهه  
المعكوس المتدلي، ألفاظ السب المبرح والقذف الغليظ،  
تطعمها ببصقات مخاطية وتمشط جلده بألة نحاسية حادة  
تُنهك جسم المعذب النازف دما.

خلفها كان يقف ثلاثة حراس مسلحين في حالة استنفار  
قصوى. سؤالها المدوي المكرور: أريد، يا ابن الهزاة، أسماء  
خيلتك النائمة... اقترب منها حارس وبث كلمات في أذنها،  
فأصابتها نوبة غضبية، وصاحت بكلمات أجنبية مفادها:

كلهم من وحل واحد هؤلاء الجبناء! ما إن تأتي إلى  
الأمور الجدية حتى يُغنى عليهم. أعيدوا هذي الحثالة إلى  
قفصه، وغدا، وحق الوليات القديسات الصالحات، سأجعله  
يتكلم...

أشارت إلى العملاق بتنفيذ الأمر، ثم هوت على كرسيها،  
منهكة لاهثة.

لحظات كالرصاص فرضت عليّ ترقبا مشحونا بالذعر  
والقلق، سيما وأن أصدقاء توجعات معذبين وصرخاتهم،

مصحوبة بنباح كلاب، كانت من غرف مجاورة تخرق أذنيّ  
وآذان كل المنتظرين مثلي؛ وبعد أن خفت، صاحت الغولة  
المعبأة المستنفرة بصوت خشن حاد: «Au suivant!» كلمة  
ذكرتني بصنوها في أغنية لجاك بريل، تنادي بها مومسُ زبناءها  
المصطفين في قاعة الانتظار؛ أما في فم الغولة فالكلمة تعيّن  
المرشح للتعذيب. نعتني حارس بسبابته، ثم سارع إلى تقريب  
قصعة مني، زاخرة بأخلاط من العصيدة والقطاني الممرقة  
وقطع نقائق ولحم حيواني ملتبس الهوية. أكلة إبليسية ما أنزل  
الله بها من سلطان! مهددا، أمرني الرجل بالسجود واحتساء  
محتوى القصعة من دون إبطاء. وسببه، كما فسر، أن الرايسة  
لن تقدم على مباشرتي إلا إذا امتلأ بطني عن آخره. لم يكن لي  
خيار سوى الإذعان، متجرئا على إتباع لقمتي الأخيرة بسؤال  
عن طبيعة اللحم الذي فرغت من بلعه. ندت عن الحارس  
ضحكة باهتة وقال:

- خنزير مثلك لا نطعمه إلا قطع الخنزير، مغلاة بماء  
البحر المالح. وفي المرة القادمة، إذا عاندت نحشوك بقطع  
مغلاة ببول سماحة المدير العام ومساعدته العظمى التي  
تشرف بالمشول بين يديها...

- لكن الخنزير (أجبت مقاطعا) يحرمه عليّ ديني!

- دينك! يلعن دين أمك... لو كان لك دين، ما شفنا هنا  
وجهك الوسخ. والآن كفى من اللغظ! انهض، الرايسة تريدك.  
حركت بعض أصابعي داخل حنجرتي رغبة في التقيؤ، لم

أتوفق. عندئذ استقمت واقفا ودنوت من المرأة، حذبتها بنظرة  
شزراء تحفظ لي ماء وجهي، قلت:

- ما تفعلينه، سيدتي، قبيح جدا!

جذبتني إلى حضنها مقهقهة، حشرتني بقوة بين ساعديها  
الموشومين وصدرها الضخم، كما تفعل أم برضيعها. بلغ  
ذهولي متناه بفعال وضعي الإجباري المحتك احتكاكا  
شنيعا مقززا بدمامتها القصوى، ونظرتها الحولاء المشتتة،  
وعرقها المتصعب ممزوجا بعطرها السيئ الصنع. سمعتها،  
بنبرة متشكية متأسفة، تهمس في أذني بكلمات مخلطة اللغة،  
هارقة على وجهي دموعا سوداء بفعل كحلها، ومفادها أن ذاك  
المعلق الذي رأيته رجل شرير، أنا أني أجلف، يخفي عنها لعبه،  
ينفرد بحقيقته دونها، بينما هي تحتاج إلى أن يفتح لها صدره،  
ويقاسمها أسرارها، وإلا تسبب في بطلتها وخراب حياتها. ثم  
بصوت يصطنع الشهوانية والغنج، تابعت كلامها بفرنسيته  
الأثيرة، لكنني، هذه المرة، أو مأت بعدم الفهم، فأخذت، بقدرة  
قادر، تستعمل لغة الضاد، ولو بلكنة طبيعية أو مصطنعة.

- هذا النهد، شيري، ليس الآخر بالبانسمان، كيف تراه؟ هل  
يعجبك؟ قل الحقيقة، وهو لك... سترضع منه، تبوسه، لكن إذا  
عضضته، كما فعل كلب قبلك، أخصيتك بلا رحمة... أتمنى  
أنك ما زلت تُمني...

بيد حشّت مقدمة ثديها في فمي، وبأخرى أمسكت عضوي

الحميمي، كما لو أنه قطعة عجيب، فحصته وعصرته كأنها  
تقيسه وتزنه. ندت عني أنات أولثها على طريققتها الشاذة  
وبمعيارها الخبيث، فصرّحت: لا بأس، لا بأس. وفجأة مالت  
إلى الصرامة والتهديد وأردفت:

- لكن إذا أجريت معي لعبة الإغماء، وحق حرمة أُمي  
أطعمك خراءك... إذن إلى أي خلية عاملة أو نائمة تنتمي؟

هلعا محتاراً أجبت:

- لا أنتمي إلى أي واحدة...

- كذا! لكنك اعترفت للقاط الأكاذيب بانخراطك في خلية  
عاملة.

- لا أبداً، إنه يكذب...

- لقاط الأكاذيب ويكذب! يخرب بيتك...

- أو لربما كذبتُ رغم أنفي، تحت التهديد...

- إذن وأنت معي، في حضني، قل لي الحقيقة عارية... في  
أذني إن أحببت... خيلتك، ما هي؟

- إيه! الآن تذكرت... في زمن مضى، كنت في فرقة صغيرة  
تسمي نفسها فرقة اليقطين أو شيئاً من هذا القبيل...

- خلية يقظة! برافو حبيب قلبي! ونشاطها إيش هو؟

- الحاضرة، مدام...

- الحضرة؟! -

- صنف من الرقص أو الجذبة، حيث العضو يزجّ بجسمه في سباق محموم نحو الإنهاك أو الغيبة عما سوى المعبود.

- كلامك ملغوز! قل لي على إيش يتحدث الأعضاء؟

- لا شيء، مدام، خلا ترديد كلمة واحدة لا شريك لها...

- والكلمة ما هي؟

- الله حي! الله حي! كلمة تصدر بالتنفس من الأعماق، حتى يفنى الذاكر عن المحسوس ويبقى حيًا في ملكوت المذكور...

قاطعتني متذمرة:

- الله حي! هل هذا كود؟ كلمة سر؟

- لا، حاشا! هي كلمة في توحيد الخالق وذكره، بطرد الغفلة والنسيان وإيقاظ الفكر في حضرة الرحمن.

صاحت وقد تقنبت حبال صوتها واحتقن وجهها واحمرّ:

- شرايبا كل هذا! شرايبا!... واسم الزعيم؟

لفقت اسما مجهولا بمحض الصدفة:

موسى بن زليخة، سيدتي، إذا صحت ذاكرتي، لكن الرجل مات منذ زمن بعيد.

أمرتني المستنطقة بالتعرف على أسماء أخذت تتلوها ببطء



وعصبية. ولما لم تحصل مني إلا على لاءات، تارة خافتة وتارة  
مزمجرة، فجرت في وجهي سخطتها واستفسرتني مستفزة:  
- وإلياس، هذا الخنثى، رفيق محببك سابقا...

قاطعتها سائلا:

- إلياس بوشامة! كيف هو؟ أين اختفى؟

- أنا التي أسأل لا أنت... باطار...

- بل أنا ابن شرعي. لا أسمح أن تسبني أُمي...

- إلياس، كم مرة نمت معه، أقصد نكته؟

اقشعر بدني تدمرا ونفورا. صرخت ملء بلعومي:

- أبدا... أبدا...

قوست الغولة حاجبيها الذكوريين وصرخت:

- أبدا! ولو ملامسات؟ ولو بوسات؟

- أبدا. ديني يحرم اللوطية.

- هذي كلمتك الأخيرة؟

- نعم... الأخيرة مدام...

- مامزيل يا حمار...

من باب مجاملة جليستي وتليين الجوى، لا غير، قلت:

- مامزِيل! ولا مرة واحدة مامزِيل؟

- تعني إِيه؟

- أَنْتِ ما زلت جميلة وشهية. أتصور أن أحدا اغتصبك ذات مرة أو ضاجعك بالحسنى...

- الحياة الخاصة مقدسة، كاناي، مقدسة!

ثم صدعت امرأة: سيجارة...

أشعل الحارس واحدة ووضعها بين شفتيها. من دون أن تنهي احتضانها لي أو تخفف من قبضتها عليّ، شرعت تدخن بنرفزة مفتعلة وتلقي رماد سيجارتها في ثقب أذني. متلطفاً نبهتها أن أذني ليست منفضة. وبغثة أبدت تضايقها مني فأطفأت عقبها على صدري ورمتني أمامها، غير عابئة بصرخة توجعي.

تمالكت نفسي وأعصابي. خطر لي، طمعا في الاستفادة من الظروف المخففة واستدرارا لعطفها، أن أتحامق وأتغابي بدعوتها إلى فض نزاعنا بالملاكمة على سُنّة اللعبة وقواعدها. تعجبتُ لكونها قبلت مقهقهة، ثم أخبرت بذلك أعوانها، فقهقهوا بدورهم، ونمى الخبر إلى آذان الماثلين للاستنطاق والتعذيب، فندت عن بعضهم ضحكات مخنوقة.

أعلم يقينا أن ميزان القوى ليس لصالحِي، إذ الغولة من الوزن الثقيل جدا، وأنا من وزن الذبابة أو البعوضة؛ لكني، ذهنيا، وضعتُ في كفتي إيماني ببراءتي، ووجوب انتفاض المظلوم لحقه، وغريزة تشبثي بأهداب الحياة الكريمة؛ وعززت الكفة

معنويا بأمثال استنهاضية رافعة، طفقت أرددها على مسمع الجميع أثناء حركات تسخينية، من قبيل: إن البعوضة تدمي مقلّة الأسد؛ يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وغير ذلك.

نهرتني الغولة أن أوقف ترهاتي، عينت سجيناً حكماً زودته بصفارة، أشهدت جمهور السجناء الصغير على أنني مقترح المقابلة دونها، وصاحبُ الفكرة بلا منازع. قربني الحكم وإياها، ذكرنا بالمحرمات في رياضة الملاكمة من خمش وعض وضرب على أم الرأس وفي العضو التناسلي، ثم صفر إعلاناً عن بدء الجولة الأولى بعد أن لففت يديّ بقطع كتان، وأخذ موافقة الرئيسة على ذلك.

مقرراً الدفاع عن نفسي والذود عن حرمتي، مددت يديّ معقودتين، ملقياً على غريمتي نظرات ثاقبة مهددة ثم، اقتداء ببطل الملاكمة الأمريكي المسلم محمد علي، شفاه الله من مرض بركينسون وأمدّ في عمره، أخذت أطبق نهج الزنبور في اللسع الانتهازي الموجه، مقروناً بتقنية الرقص الكثير الحركة والمراوغة، المتجنب لأي تماس أو احتكاك جسدي. وهكذا أضحت ماما غولة تتلقى مني لكلمات مؤلمة على وجهها وصدرها وبطنها، تحت موجة تصفيقات من الحرس، متبوعين برهط السجناء. لكن ما إن دنت الجولة من نهايتها حتى أبدت خصيمتي - واعجابه! - خوفها وهرعت إلى الاحتماء بأعوانها المتبارين في إطلاق ضحكات مدوية متقطعة. أردت إيصال تمردي إلى مداه، زحفتُ نحوها بخطوات ثابتة جريئة، أمرتها

متحديا أن تترك مخبئها وتبرز لي: اخرجني إليّ إن كنت حقا امرأة حديدية! هيا إلى الجولة الفاصلة حتى أهزمك بالكاووا!

بصعوبة متناهية حملَ المروّوسون رئيسَهم إلى الحلبة وأوقفوها على رجلِها. أشار الحكمُ مصفرا إلى استئناف الجولة، والغولة بادية العياء والانهيار، فاغتنمتها فرصة لتصويب ضربة الرحمة إلى صدغها الأيسر، فهوت مغمى عليها. وبينما الحكم يعد الأرقام العشرة القانونية لإيقاف الماتش، والحرس يتنافسون مقهقهين في تهويتها ورشها، اقتربتُ من جماعة المتفرجين الرافعين شارة النصر، الهاتفين احتفاءً بي: الزنبور الزنبور/ بالباين هو المنصور...

متشيا بإنجازي، عانقت المعجبين المهتئين واحدا واحدا، بما فيهم سجينة محببة، ثم رجعت إلى المهزومة المنطرحة على الأرض، درت حولها دورات متفخا مختالا كالطاووس، رخصتُ للحكم أن يعد أرقاما عشرة إضافية أو أكثر، فصاح معترضاً: لا ثم لا! القانون هو القانون... وفيما أنا أمهد لانصرافي مظفرا، باغتتني المرأة بالانقضاض عليّ من الخلف كلبؤة، وصلبتني على الأرض بحركة بهلوانية، لا يحسنها إلا مصارع محترف من الكاتيغوريا الأولى.

الآن فقط أفهم لِمَ كان الأعوان أثناء المقابلة لا يفترون عن إطلاق الضحكات. ماما غولة كانت إنما تهزأ بي وتحول عراكي معها إلى أضحوكة ومهزلة. أخطأتُ حين ظننت أن

حصة الملاكمة معها ستجري حسب القواعد المتعارف عليها دوليا؛ وأخطأت أكثر لما توهمت أنني في مصارعة جسدية، ولو على الطريقة الرومانية أو اليابانية، مع خصم من الجنس النسوي لا بد تفضي بي، ولو بجهد جهيد، إلى الغلبة أو في الأسوأ إلى التعادل. لكن، وأنا الآن أرزح تحت ثقل الغولة المتوحشة، أتألم من الاختناق، وأعجز عن المقاومة والحراك، علي أن أرتاب جديا في أحكامي الذكورية المسبقة. هل أواسي النفس بالقول: ربّ نعمة في طيها نعمة، من باب أن انحماقي قد يقنع الغولة بعته ما في عقلي وببهلوليتي، فترأف بي وتعاملني على قد حالي وبعنف أقل؟

كم حمدتُ الله حين فككت الجاثمة عليّ ارتباطها بي وتركتني طريحا، أتنفس واسعا ملء جوفي. أما هي فقد قصدت زاوية وتهاوت على كرسيها أمام منضدة مليئة بالملفات وأجهزة الهاتف والسندوتشات وقنينات النبيذ والبيرة، وأشياء أخرى لم أرها نظرا لوضعي المتمدد الذي أمرني الأعوان بالإبقاء عليه، مع أن هذا لم يمنعي من رمق المنتصرة عليّ وهي تأكل وتشرب بشره شديد، متشدقة بكلمات فرنسية نابية، وبأخرى متفرزة مشمئزة من صنف «إيخ» و«أنفو»، كما لو أنها تعرب عن إهانة لحقت بها جراء تكليفها بمعالجة سجين مثلي، هُشّ المتن والبنية، ضعيف الأهمية والرتبة. وفعلا، سرعان ما أطلقت العنان للشهقات والزفرات، وصاحت فائرة مزبدة بما معناه:

هذي مهانة! هذا ظلم! أكلف بالحثالات والبهاليل، أكثرهم  
يغيبون عن وعيهم عند بدء التعذيب، ويختص الجنرال وحاشيته  
بأباطرة المخدرات ورؤوس الإرهاب والجريمة المنظمة، ولهم  
في شغلهم ما يشاؤون من خيرات وأموال، وما يشتهون من غلمان  
وفروج... المساواة بين الرجل والمرأة: mon cul وألف مرة mon  
...cul

لم تكتف المرأة بتعبير المساواة بين الجنسين ولمزها شفوياً،  
بل ركعت وعرت مؤخرتها الضخمة، وصارت على هيئتها هاته  
تطوف في أرجاء القاعة، مرددة باللحن كلمات بالعربية خليعة  
منكرة، عجزت عن عصم أذنيّ منها، وأنقلها مكرها، عذري في  
ذلك أن حاكي الفحش ليس بفاحش:

المساواة المساواة!

يلعن سَوْتها المساواة!

المساواة المساواة!

يا عين طيزي على المساواة...

هذا فيما الأعوان، مصفقين راقصين، يتعقبون الراكعة  
الراقصة المنشدة بهذه اللازمة: هذي كايته... ثم أمرني هؤلاء  
كما أمروا السجناء الآخرين باتباعهم في ما هم عليه وترديد  
اللازمة نفسها: هذي كايته. وما كان لأحد من المأمورين أن  
يستنكر أو يعصى.

هل أنا في سجن اعتقال أم في دار للمجانين والحمقى؟

الظاهر أن الفارق بينهما في هذا المكان أضعف من خيط عنكبوت، والمرور بين الفضائين لا إشارات ولا شفرات تنظمه وتديره؛ والدليل عليه أن الراكعة الراقصة المنشدة، الكاشفة عن عورتها، ما إن استقامت منهكة عرقانة حتى نعتني بلسان مخمور، فهب الحارس نحو مربعي لجري إليها ووضعني في قبضتها. عندئذ آليت على نفسي إتباعهم بالجري خلفي، ومتعتها (نفسي) بشتى المراوغات والفلتات البهلوانية. لكن بعون الغولة والعملاق الراجع من إحدى مهامه، توفق المطاردون في إمساكي وربط يديّ خلف ظهري، ثم وضعوا قنينة بين رجليّ وعادوا إلى مكانهم المعهود.

أمرتني الغولة بلهجة فظة عنيفة:

- اجلس عليها...

إنه امتحان فم القنينة! بهذا ناجيت نفسي... مفتعلا عدم الفهم سألت:

- أجلس عليها؟ على ماذا؟

صاحت آمرتي بعد أن أفرغت زجاجة خمر في جوفها:

- نعم عليها حتى تُدخل فمها في سوتك، يا دين أملك!

- لا تسبي أُمي، أرجوك... استعيزي بالله ورسوله من كلام الفحش والسلوك الساقط...

كررت المرأة أمرها الخبيث بلهجة التحذير الأخير. أجبت  
متمالكا أعصابي:

- أن أجلس نعم، لكن على كرسي، كما يليق، مامزِيل!

أطلق الحراس ضحكات مدوية، شاركهم إياها العملاق  
بفعل العدوى، وحتى أنا ساهمتُ في تسخين جو الجوقة  
الضاحكة، لا عن سذاجة بل استخفافا وتهجينا. لكن سرعان  
ما راجعتُ نفسي وتحليت بالجد والهمة، ثم سألت بصوت  
جنته ما استطعت نبرة الهوان والاستعطاف:

- لماذا تفانيكم في الإساءة إليّ؟

لاهية وملء فمها علك تلوكة، غمزت الغولة حارسا،  
فأجابني ككائن آلي:

- لا شيء... هكذا... لقتل الوقت، أو لأن وجهك الوسخ لا  
يعجب الرايسة... اجلس على القنينة.

صرختُ محتجا:

- أبدا... ديني يحرم عليّ ذلك.

ردت عليّ الغولة بسبب فادح في دين أمي، لم أسمع مثيله من  
قبل؛ ثم هرع الأعوان نحوي، والضحك لا يفارقهم، علقوني من  
رجل واحدة إلى حبل متدل من السقف. هيئتني المنقلبة لا تبشر  
بأي خير، لكونها تذكر بهيئة كبش مذبوح، مُعدّ للسلخ. اقتربت  
الغولة مني، سيجارة بين شفتيها وملامحها صلبة مستنفرة.



أخذت تكوي بتبغها المتقد أخمص قدمي فردفي وظهري وإبطي بالرغم من صبري الأيوبي على أوجاعي، ندت عني صرخات مخنوقة؛ ثم أقدمت الغولة على تفريق فخذي واسعا وحشت بعنف شديد رأس القينة في سوتي، عنف جعلني هذه المرة أملاً المكان بصرخات ألم حادة متصاعدة، فاهتبلتها معذبتني فرصة لتضييق الخناق عليّ بأسئلتها المكرورة عن ابن خالتي أبي البشائر وجماعته، وعن انخراطي في ما تسميه الخلية النائمة. وحين لم تحصل مني على شيء يهمها، انحنت على أذني وترجتني متضرعة، وللمرة الأخيرة كما نهبت، أن أقول لها الحقيقة وأمدّ لها يد المساعدة، بدعوى أنها أرملة وربة أسرة تعولها، وتوسلت إليّ أن أرحم طفلتها المقعدة وأولادها، وأيسر تلبية حاجاتهم وضمان مستقبلهم. ولما لم تنل مني ما تريد، كشفت لي عن خنيجرها، وطفقت تفحص أطراف جسمي، متعجبة مستكرة، وزمجرت بفرنسياتها الرعناء بما مفاده: لا شيء للنقب! هذي النعجة لا لحم لها. جلد رفيف على عظام خربة...

كم هنأت نفسي على نحول هيكلي البليغ وحمدته كثيراً! وهكذا اكتفت معذبتني بخدش ردفي وفخذي، ثم أخضعتني للفلقة بضربات عصا على أخمص قدمي المربوطتين، المبللتين بالماء البارد. وبعد أن أتعبها الضرب وأنهكني، أجرت حصّة التدوير والأرجوحة، السيئة الذكر والذكرى حتى عند أشجع المعذبين وأشدّهم بأساً، وكُنُت، وأنا على هيئتي الكباشية،

في تدويري عموديا حول قطبي ثم أرجحتي بخبطات عنيفة جنونية، تارة على مؤخرتي وطورا على بطني أو حوصلتي.

لو تعلق الأمر بهدهدي على نحو متزن متلطف، يذكرني بأحاسيس طفولية قديمة، لما أبيت أو تدمرت؛ لكن أن يُجرأوا لي ذلك بشكل وحشي، يشرح جسمي ويدميه عند كل اصطدام بحائط ذي نتوءات متعددة حادة، فلا عقل يبيح هذا الفعل الشنيع ولا شرع.

من آثار مخضي المنهك المضني أن انفصلت القينة عن سوتي، وأصببت معدتي المرهقة بأوجاع مروعة تسببت لي في اضطرابات وقلقل باطنية؛ أما رأسي الذي شق عليه تحمل الدوار والصدمات العنيفة المتتابة، فقد آل، ولو تدريجيا، إلى التآرجح بين وعي متآكل وفك الارتباط الحسي بحالي وبما حولي. وبالرغم من ذلك، ثابرت الجلادة في إشباعي بالركلات المسعورة المتقطعة، مع اتهامي بقساوة قلبي إزاءها، ومتوسلة إليّ بإصرار غريب أن أكف عن تعذيبها وأزودها بما من شأنه إعاقتها على حفظ منصبها والرفق بذريتها.

فجأة، أوقفت فعلها بي وثبتتني، ثم ترجتني أن أوقع لها ورقة، مرفقة رجاءها بقبلات آلية، خشنة حادة، كادت تعصف بشفتي وأسنانني المتصدعة. في غمار دوايري هذيت: لا اعتراض لي على امرأة تقبلني في الفم، لكن ليس من غولة همجية، ذات أنفاس نتنة وأسنان معدنية قاطعة.

لما يئست معذبتي من جدوى طرائقها ومني، أعادتني إلى  
فلك الأرجوحة بعنف أشرس وتفانٍ أدهى. وفي هذه المرة،  
أخذت مواد الوجبة الرديئة المتخمة تحدث في معدتي وأمعائي  
حالة فوران ودوران مستعرة، فاغتنمتها فرصة لأخذ بعض الثأر  
من المرأة الماردة الشمطاء، إذ كلما مررت طائشا بحذائها رفعتُ  
رأسي، وبكل ما بقي لي من طاقة قذفت صفحة وجهها بوابل من  
القيء الكثيف المتخثر، مؤملا من ذلك أن تُنزل بحشاشة وعبي  
الضربة القاضية. وفعلا لم تتأخر الغولة المُهانة عن استهداف  
ظهري بآلة كهربائية صادمة، أتبعتها بلكمة عنيفة على أم رأسي،  
ثم سمعت رهط السجناء المنتظرين نوبتهم يصرخون رعبا  
وهلعا، والفتاة تولول وتستغيث حتى الإغماء؛ وسمعت الغولة  
من عمق انحطامي تستعجل أعوانها في تشميمي البصل ورشي  
بالماء البارد، وتأمرنني أنا بالبقاء على قيد اليقظة. لكن سرعان  
ما اختلط كل ما حولي وتخيل، وانقلب المكان ومن فيه رأسا  
على عقب. نظري المتضائل لم يعد يدرك سوى أشكال غائمة،  
متبخرة، وأخرى شبحية متحركة، ثم ما لبثت جميعها أن  
انعدمت في هوة مدلهمةٍ سحيقة.

## هذي أضراري وبعدها حلقوا شعري

في صباح الغد، استيقظت على أثر آلام فظيعة، متعددة، محددة  
الموضع أو في كل الجسم شائعة. بشق الأنفس، استويت جالسا.  
لمست ضمادة حول رأسي، ثم أسناني وقد استفحل تداعيتها:  
ثلاثة أنياب لا يربطها بالفكين سوى خيط لحمي رهيف، فبادرت  
إلى تخليص فمي منها! تذكرت مرآتي المخبوءة تحت لحافي،  
أخرجتها لمعاينة الأضرار بوجهي وجسمي، فيا لهولها في مدى  
بصري العاجز المفجوع: رضوض وكدمات في كل الأعضاء  
والأطراف! جراح وندوب وتورمات! أنف محشو بعقد مخاطية  
ترغمني على الاستعانة بفعمي لطلب الهواء...

مضطرا إلى التبول، بذلت جهدا جهيدا للوقوف على رجلي  
وتقصد المرحاض. لاحظت بالمناسبة أن خطوي شبيه بخطو  
طفل حديث الختان. وبعدها فرغت، ذرعت زنراتي طولا  
وعرضا، مرددا بلا انقطاع: معنويتي ليست في الوحل. لا بد أن

أتفادى السقوط والوهن. لن ينالوا أبداً من عزتي وأنفتي، ولو كسروا أضلعي وأنفي... هوذا التمرين الذي ألزمت به نفسي مدة بضع دقائق. وحين أنهكني التعب، تهالكْتُ على لحافي، سائلاً بعناد وصوتٍ ضعيفٍ مكلوم عن اليوم الذي أنا فيه...

في وضعي السريري المتمدّد، ماذا يملك العليل مثلي فعله سوى إطالة التفكير في شروط الحال واحتمالات المآل، ثم التعرّيج، عند عياء الفكر واحتقانه، على استيهامات ومضية وأخرى ثابتة ملحاحة. ضمن الأولى تتجلى لي نساء ونساء، أكثرهن إطلالة وبروزا السكرتيرة ناهد، ذات الاسم على مسمى والصيت المستحق؛ أما الثانية ففيها أراني أحفر بيديّ وبما أوتيت من أدوات خندقٍ هروبي من سجنٍ المدمر هذا إلى قاعدة اختطافي، حيث أختفي زمناً عن الأنظار وأرسم جسمي ونفسي في ظل رعاية أُمّي المحبة الرؤوم. اعترضتني في طريق خلاصي مشبطات وعوائق، لكن كنت أتوفق في مراوغتها أو القفز عليها، تحدوني إرادتي الصلبة ورغبتني العارمة في إنقاذ حياتي من حلبة العبث القاتل ومخالب الفناء الداهم.

تتكسّد الاستيهامات وتتناسل، ثم بغتة ينقطع سيلها ويجف بفعل هبوطي الاضطرابي إلى مكان لا أغمض منه ولا أفسد، كالذي أنا فيه، واقعا تحت وطأة أباطرته وزبانيته، ممن قابلت بعضهم ولم أر بعضهم الآخرين.

كانت لي من قبل جلسات إدمانية مع الاستيهام والتفكير.

وفي كل مرة، تنصرم حبالها إما على إثر صدمات العجز والانسحاق، يتلقاها وعيي وجوارحي، وإما جراء اقتحام مربعي من طرف حارس يأتيني بقوت أو سجان يقودني إلى قاعات الاستنطاق والتعذيب.

في هذه المرة كان العنصر المشوش الصارم أصداء هرج ومرج تناهت إليّ من ممرات الزنازن المجاورة، وتبينتُ سببها لما هجم عليّ ثلاثة رجال شداد، واحد حامل آلة رش غباري، باشر بها زنزانتي طولا وعرضا وأرضا وسقفا، ثم وجَّهها إلى جسمي مركزا على رأسي وإبطي وعانتي. سألتُ ما الخبر، قال أحدهم إنها، بأمر من الدوائر العليا، حملة إبادة الحشرات المتكاثرة في هذا الفصل الصيفي بجنبات المركز كلها، وأردف أن الأمر من الدوائر ذاتها أن تُخلق رؤوس كل السجناء ولحيهم، وتُحشى شعورهم في أكياس معدة للحرق. نصحني الحلاق أن أمد له رأسي من دون احتجاج صارخ أذى بغيري إلى حلق حواجبهم وأنصاف لحيهم وشواربهم، عقابا لهم على عنادهم وتعصبهم. أقعدني على إسكاملة تحت حراسة صاحبيه، وأخذ يُعمل مقصا ضخما في حش الشعر الطويل حيثما وجده، كأنه يحصد بالمنجل السنابل أو الأعشاب الطفيلية؛ وبعدها شرع في تبليل رأسي وصدغي وذقني بالماء الراغي، أعقبه بتمرير موسى مستأصلا ما تبقى من الشعر كله. وقبل أن ينصرف الرجال إلى متابعة عملهم، خاطبني أحدهم: ها قد خلصناك من القمل والبعوض والصراصير، فكن من الشاكرين.

هأنذا أمام مرآتي، وقد سحبتها من مخبئها، أنظر إلى وجهي  
وأكاد لا أتعرف عليه. كل ما كان الشعر يخفيه من ندوب  
وتورمات وبقع برص تعري، وكل انفراج للشفتين بفعل التبسم  
أو التألم يكشف عن غياب معظم أسناني الأمامية. فاللهم  
عوضني عن شعري المحروق بشعر أوفر وأزكى، وارزقني  
لحية أخرى آنس بها وأسهر معها في ليالي أرقى وتجهدي. أما  
أعداؤك، يا الله، وأعداء البشر المستضعفين في هذا المجتمع  
فأرسل عليهم الطوفان والقمل والضفادع والدم، كما أرسلتها  
آيات مفصلات على آل فرعون المجرمين الطغاة.

في الغد، كسر حارس نومي بدعوة ضاجة إلى إفطار  
جماعي. رافقته مترنحا إلى قاعة السجناء المعهودة. حين  
رأيتهم جميعا حليقي اللحي والرؤوس، تذكرت أنني على  
شاكلتهم منذ الأس. صار التعرف على الوجوه صعبا والكلام  
معهم أصعب، خصوصا على من هو مثلي لا صديق له بينهم.  
في الطاولة التي عُينت لي لحظت سجينين بلا حاجبين، أدت  
نظري فلمحت آخرين أمثالهم، فطنت إلى أنهم عوقبوا بذلك  
على مقاومتهم لعملية الحلق واستنكارهم.

في ظل سيادة التوجس والحذر بين المجتمعين حول  
الطاولات، نظرا لاختلاط السجناء المزيفين بالحققيين،  
كانت تصويطات الملاعق والاحتساء والنحنحات هي الغالبة  
والمهونة من فشو صمت الألسنة، علاوة على حركات بالأيدي  
مريبة في جنبات الطاولات أو تحتها.

أخذت، بعد الإتيان على شربتي وقهوتي، أسترق النظر إلى جلسائي، راغبا في تمييز السجين الحق عن السجين المزور. بعضهم كانوا مصابين مثلي بالزكام والسيلان الأنفي والهزال، وبعضهم يبدون معافين أصحاء، ومع أن آلة حلق الرؤوس واللحى لم تخطئ أحدا من الفئتين، فإن فئة هؤلاء غدوا يشبهون عناصر سكين هاد الصناديد الصعاليك؛ أما أولئك فقد انكشفت كل عيوب وأعطاب وجوههم وجماجمهم. أين تنتهي حدود الحقيقة وتبدأ متاهات الخدعة والتمويه؟ سؤال غلى في ذهني واعتاص، سيما حين انتفض واحد من الفئة الثانية واعتلى طاولة مثيرا انتباه البعض، ثم أنزل سرواله صائحا وقد التفت إليه الجمع مدهوشين أو مقهقهين:

حلقوا لحيتي ورأسي، لكن طز عليهم. ذكورتني ما زالت ثابتة وفحولتي قائمة. ومن يشك في حجتي فلينظر إلى أيري المنتصب بين يديّ...

هرع الحراس إلى الرجل، لاحقوه وهو يقفز من طاولة إلى أخرى ثم يجري بين الكراسي مهددا مراوغا، كبهلوان ماهر عفريت. عمت فوضى عارمة وجلبة، وتعالّت أصوات هاتفة: النصر لمن حجته بين يديه! النصر النصر النصر... وأخرى: يعيش فحل الفحول! يعيش يعيش يعيش...



## مع المحقق وكاتبته الجديدة

اغتنمت حالة الانفلات الأمني تلك، فتسللت من باب المطبخ إلى جناح الإدارة فمكتب المحقق. تذرعت للحارس بخبر خطير أريد نقله إلى سعادة القاضي عاجلاً. عارضتُ صدوده بتحذيره من عاقبة موقفه وسوء التبعات. دخل يستشير السكرتيرة، فتبعته خلصة وصحت ملء فمي بما قلته للحارس، فيما المرأة تهددني بالعقاب الشديد وتأمّر بإخراجي. وفجأة هدأت جراء مكالمته هاتفية قالت بعدها للحارس اذهب ولي أنا اقعد.

قعدت قبالة المرأة المتفهمة الآمرة، أستحلي نجاح اقتحامي وانتزاع مقابلة مع المحقق من دون موعد. قعدت أسترق النظر إلى السكرتيرة الجديدة المنهمكة في عملها بين الحاسوب والملفات وأشياء أخرى. إنها يقينا غير سالفتها ناهد بوسني والأخرى التي اسمها جمانة. وسيمة متجردة، عيانان نجلاوان فاتران، شعرها أسودٌ حريري، لباسها عصري محتشم، ماكياجها

خفيف ناعم، قسّمات وجهها لا تشي بأي قساوة أو تعهر؛ وكلها  
شارات تبعثني، كما أحس، على نوع من الطمأنينة والانشراح،  
حتى إشعار آخر.

حاجتي إلى مكالمتها قويت، ولو أن انشغالها بالهاتف كان  
يعيقني. اغتنمت لحظة انقطاعها إلى الرقن، فسألتها: حضرتك  
من أي بلد؟ لم تجبني بل سألتني عن موضوع الزيارة. قلت  
متغيبا:

- موضوع الزيارة؟ إيه... موضوع الزيارة! الآن في  
حضرتك، مامزيل، الموضوع هيجرني وغاب... لربّما يرجع  
إليّ بعد حين.

- تريد الإخبار عن أحداث المطعم؟ سعادة القاضي يعلمها  
بالتفصيل...

لم أجرؤ على مساءلتها إن كانت لسعادته كاميرا خفية تطلعه  
عبر شاشة خاصة عما يحدث يوميا في المطعم والملعب وساحة  
الرياضة والممرات والزنازن وكل فضاءات المركّب الأخرى؛  
ولعله يعرف الشاذة والفاذة عن حركاتي وسكناتي وكل الوقائع  
أثناء إقامتي في مستودع الصدمة والترويع وفي زنزاتي الأولى  
ثم الثانية؛ ويعلم كذلك ما قاسيته من سوء معاملة وتعنيف في  
مقابلة كرة القدم الزائفة، ومن صنوف التعذيب في قبو الغولة،  
دمرها الله في الدنيا قبل الآخرة.

كون المحقق علم أحداث المطعم إبان وقوعها: هذي معلومة نافعة نفيسة فلتت سهوا أو ربما قصدا من فم الحسنة الوديدة، التي أتشرف بمجالستها لوقت ليته يطول ويتجدد حتى أستمتع، ولو عن بعد، بأنوثتها، وآنسُ بصوتها العنديلبي الرخيم.

أتاني صوتها هذا قائلا:

- هل عاد إليك؟

- ماذا؟ صوابي؟ عقلي؟

- بل الموضوع...

حككت رأسي الحليق مفكرا، قلت:

- ليس بعد... إنما ريثما يعود، هلا تعارفنا ودرشنا قليلا

قليلا... أرجوك... أبوس يدك...

أزاحت شعرها عن نصف وجهها وغمرتني بنظرة مشفقة

حنون، قالت:

- أنا أعرف عنك كل شيء. وأنت لن تعرف عني إلا ما يسمح

به حضرة القاضي...

افترضت أن تمنعها قد يفسره كون حضرته يشاهد مقابلي

معها على إحدى شاشاته الخفية. لذا أحجمتُ عن اللج

والإلحاح. بعيدئذ انبعث صوته من آلة على المنضدة آمرا

بإدخاله. هبّت المأمورة نحوي مفتشة أطرافي، فأسدت لها يد المساعدة إذ تعريت إلا من مئزري، وتلقيت شاكرا ممثنا من مرستها زخات عطرية شملت حتى رأسي ووجهي، ثم استعجلتني في ارتداء بذلتي وقادتني إلى ركن معتم من مكتب المحقق المنشغل بمكالمة هاتفية. دعنتني إلى الجلوس والهدوء قبل أن تُحييَ رئيسها وتنسحب.

المحقق منكب على مهاتفات شتى، فيما ذهني يتأرجح بين محاولة التقاط بعض معانيها والتفكير في السكرتيرة الجميلة اللطيفة اللبسة، التي توسّمتُ فيها الخير وبصيص أمل في ليل هذا المجمع البهيم، وارتاح إليها حدسي وفؤادي.

من كلام المحقق المتقطع على الهاتف:

نعم معالي المدير العام... حقاً ما تقولون. ما قام به السجين ٦٧ في المطعم فحش ومنكر. تباهى بفحولته أمام الملاء وتبرج... لا بد يُعاقب ويُزجر، لكن ليس بالخصي الذي عبرت لمعاليكم من قبل عن تحفظاتي عليه: سوء التبعات وحدوث ما ليس في الحسبان... صحيح... الخصيان وجدوا على مر العصور... صحيح... عمليات الإخصاء الفاشلة حالات شاذة، والشاذ لا يقاس عليه... إذن لكم في هذا الأمر اليد العليا وواسع النظر... وهو كذلك... تحياتي واحتراماتي...

بعد انتهاء المكالمة (ولا أدري هل هي فعلية أم مفتعلة)، ظل المحقق يناجي نفسه بكلمات وصلني منها: سلفي في

المنصب، القاضي فيصل الحاوي، شرع عقوبة الإخصاء، وبرر إجراءاته بسوابق لا يشفع لها إلا حصولها بالتحكم والقسر، أسندها إلى حجج رأى أنها قطعية، وهي عندي ظنية. تقليد إخصاء خدم الحريم وعينة من الرقيق يعود إلى عهد ولّى وأدبر، وإقدام أترك الجيش العباسي وعبيده على خضّي خليفة يوم وليلة، ابن المعتز، حجة عليهم يوم الحساب، لا لهم... وفي الجملة إنني لست على مذهب ذلك القاضي ولا في ركابه أسير...

قطع الرجل مناجاته المسموعة، سألتني بغتة من دون أن ينظر إليّ:

- وأنت، ما رأيك في عقوبة الخصي؟

بادرت بالرد:

- باطلة عقلا وشرعا. بدعة تنتهك حقوق الإنسان، والأمر بها مثواه النار وبشّ المصير!

- أحسنت! أنت إذن على مذهبي توافقني الرأي وتقف موقفي... يا نعيمة، أقبلي...

قدمت المنادى عليها حاملة ماعون غسل، شرعت تصب ماء من إبريق على يديّ رئيسها، وهو يفركهما بصابون فوق طست. وحين انتهى نشفتها بفوطة، وناولته قارورة أخذ يرش بها رقبته وصلعته وقفاه، ثم انسحبت بماعونها عجلي متعثرة.

انتبه المحقق إليّ مستغربا وجودي، أمرني بالتقدم والجلوس، صاح:

- عجباً! حمودة ذا؟! مش معقول! حمودة نيولوك! سبحان  
مبدل الأحوال والوجوه! ماذا أتى بك إلى هنا؟ لكن بدءاً كيف  
كانت مباراة كرة القدم الأخيرة في ملعب المركز؟ قيل إن  
نجمك سطع فيها وتألّق!

أجبت بنبرة ساخرة غير خفية:

- فريقي، حضرة القاضي، تمتع بلياقة بدنية عالية، سجل  
ما شاء الله من الأهداف بتمريرات ذكية وقذفات صاروخية.  
لكننا في آخر المطاف هُزمتنا بالضربة القاضية... تمزق نعلاي  
وأشبع تعنيفاً وضرباً. وهأنذا أمثل بين يديك بجسم منهك  
وقدمين حافيتين، ولا غالب إلا الله...

مبدياً أسفه، أجب:

- حذاء النايك الرفيع سيصلك مني هدية، تليه أقراص  
فيتامين تنعشك وتقويك. يا نعيمة عودي... شاي أم قهوة؟

أومأت بالإعراض عنهما معاً. حضرت المدعوة خفيفة  
الوطء، مبتسمة. نعتها المحقق وقال:

- نعيمة ذي، والله نعمة! لا لكنة في لسانها ولا تحريف في  
تخريبها الحروف... عرفت من قبل، يا حمودة، سكرتيرتين،  
واحدة وعرة شرسة، وأخرى وديعة سليسة. وفي الفتاة ذي

وجدتُ أخيراً واسطة العقد والوسط المبتغى... الوسطية  
عقيدتي ومذهبي، لا إفراط ولا تفريط، لا تشدد ولا وهن،  
لا تهور ولا جبن، لا تبذير ولا بخل، ثم - والكلام، حمودة،  
يعنيك - لاثرثرة ولا صمت...

أوقف المحقق سيل لغوه، وانشغل بإعداد غليونيه. استرقت  
النظر إلى الفتاة، فإذا بأهدابها السبلاء تنطبق، وبخديها الأسيلين  
يحمران من فرط الحرج أو الحياء. لم يشني عن الاستمتاع  
باستراق النظر إلى نعيمة إلا عودة الرجل مدخنا إلى إغداق  
الجميل وتفجيرها في اتجاهات شتى، لا يعلم أحد سواه خيطها  
الرابط ومنطقها اللاحم:

إيه... لا يلزم أن أنسى: الفتاة ذي وأنت، حمودة، مواطنان  
شقيقان من المغرب الأقصى الشقيق، نشيدها الوطني لو طلبته  
منها لأدته حالا بالتحية العسكرية وحماس منقطع النظر؛  
فتاة تحفظ عن ظهر قلب أسماء مئات النجوم في دنيا الرقص  
والغناء، عربيا وعالميا، لكنها، وهي المؤمنة، لا تعلق في عنقها  
صورهم ولا أيّ تماثم. الوقت يزاحمنا وإلا لأذنت لها بسرد  
سير عينة منهم...

توقف المحقق لحظة يملأ غليونيه ثم استأنف هذره مدخنا:  
- ونعيمة ذات حس وطني متوهج، مستنفر. كلما ناوشتها  
بالقول: مصر أم الدنيا إلا وردت عليّ تَوّا: والمغرب أبوها،  
فلا أحاججها ولا أشاكسها. أنا اليوم مصري بالعرض، عربي

قومي بالجوهر. مصر كانت أم الدنيا أيام زمان. لكن اليوم،  
يا خسارة! الأرض اللي صارت تعج بالناس الغلبانين والبطالين  
والحرافيش، تكون أم الدنيا! الأرض اللي تطلع جماعات  
التكفير والهجرة وإخوان كذا وإخوان كيت ودولة على قدها ما  
شاء الله عليها، تكون أم الدنيا! البلد اللي عجز عن أن يكون في  
التنمية الشاملة القاطرة وفي الديمقراطية المثال والقذوة، نقول  
عنه أم الدنيا! لا لا، أحسن لي أسكت... يكفي أقول مصر لم أعد  
أدخلها أمنا... أرجع إلى المغرب الشقيق، بلد - سبحان المنشئ  
المكور! - يوجد على مرمى مدفع من جنوب أوروبا، وجذوره  
في إفريقيا؛ بلد الأصالة والمعاصرة، أرض توافق الأضداد  
وتناغم المغرّبات... هذي الأنسة، مثلا، تنطق بالشهادتين،  
تصلي الصلوات الخمس، ولو بجمعها وتأخيرها، تصوم  
رمضان موزعا على مدار السنة بسبب الضرورة المهنية والعادة  
الشهرية، لا تركي لقصر يدها، ولم تحجّ لانتفاء الاستطاعة.  
لكن نعيمة، مع ذلك كله، لم تجد حرجا ولا غضاضة في طلب  
نصيها من الدنيا، فاشتغلت من قبل في بعض وكالات الإشهار،  
ورقصت في أعراس وحفلات، وزينت سيرتها الذاتية بتربعها  
على عرش ملكة جمال حبّ الملوك بمدينة... ذكريني باسمها،  
يا نعيمة...

لربما كانت المسؤولة تفور، مثلي، تضايقا وامتعاضا،  
أجاب:



- مدينة صفرو، حضرة القاضي، توجد، حسبما أتذكره في مدار فاس من جهة الجنوب - الشرقي.

- آه! صفرو - بفتح الصاد لا بكسره - صدقت يا ميس صفرو! الآن، قبل أن تعودى إلى شغلك، اسمحي لابن بلدك بوضع بوسة على حنكك، تهنئة منه على فوزك بتاج حب الملوك. قم يا محظوظ بما أحلله لك. القبلة الأخوية بين ذكور القطر الواحد وإنائه، وهم أشقاء، سنة محمودة، لم ينزل نص بتحريمها... قم وبُسها، يا بختك! لكن إياك ثم إياك أن تزيع وتغمس خارج الخد.

قمت لما أمرت به. وضعت على حنك الفاتنة المرتبكة قبلة خفيفة خاطفة، تجنبنا لجنابة جبرية لا سلطان لي عليها. وما إن خرجت الأخت المغربية عجلي متعثرة حتى بادر المحقق إلى تسألني:

- هل كل شيء بخير؟ عرفتُ أثناء أداء مهماتي رجالا سريعي الدمع والإمناء. ترى هل تكون منهم؟ هل أطمئن؟ أم تتلو عليّ ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَكُمْ نَسُوكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]؟ خلاص فهمت...

أجبت بلهجة لا تخلو من حدة وحزم:

- من هذي الجهة اطمئن، حضرة القاضي. ما تسألني إلى هنا لسماع كلام عن الخصي وموقفك منه، وعن مصر هل هي

أم الدنيا وعن المغربية وخصالها الحميدة... بل جئت في شأن واحد لا شريك له، وقد طفح الكيل معه وبلغ صبري مداه. إنه المتعلق بالمسماة الغولة أو ماما غولة. هذي المتوحشة خصّصتني مرة أولى بمعاملة سيئة مهينة، لكنني صبرت وتجلدت؛ أما في المرة الثانية فقد عذبتني على نحو وحشي فطيع، وهأنذا أرفع شكائتي بها إليك، حضرة القاضي، وأسجلها لديك على ضوء فقدي لأسناني الأمامية وآثار الجراح والرضوض على أطراف جسمي...

حك القاضي صلعته وقفاه، نفث دخانه مرات كأنه متحرج من أفعال معذبتني أو يرّم بكلامي. حدجته بنظرة مستفسرة، قال: - هل صدرك حر؟ إذن فهو للسرق قبر. أسرّ إليك بموقفي من هذي الغولة، وهو صنو موقفي من الخصي: الإعراض والنفي. كان يجب معاقبتها ليس على ما فعلته بك فحسب، وإنما أيضا لكونها في الدمامة كما في السلوك الذميم لا تُبارى، وفي الترويع والعنف لا يُشق لها غبار. لكن ما ذنبي وحيلتي وقد أعطاه شيكا على بياض العم سام. اليانكيز مكنوها من ضوء أخضر جدا، بل لا أخضر منه ولا أيع. وإن استعجمت مفهومي اليانكيز والعم سام، فاعلم أنهما يعنيان الأمران...

رن الهاتف. رد مستنظقي فيه بكلمات متقطعة قصار، معظمها في الموافقة والتأييد. مسح بمندبل عرق جبهته، قال:

- عد بنا إلى ما كنا فيه... وغلاوة نعيمة عندي وعندك، لك خيارات ثلاثة، لا رابع لها، يا حمودة: إما تفتح للغولة صدرك وتكشف عن أسرار تخص ابن خالتك أبي البشائر؛ وإما عوضاً عنها تفعل الشيء نفسه هنا معي؛ وإما تدأب على تحدي الغولة وتتحامق في حضرتها، كما فعلت من قبل، فتتخيلها هذي المرة بقرة، وتطوفَ حولها مرددا كلمات مستنفرة مهددة، من صنف: أنا ثور ابنُ ثور، على الغولة إني أثور... الخيار الأول سليم، والثاني أسلم، كلاهما يوصلك إلى بر النجاة؛ فيما الثالث أراه غير آمن ولا مضمون العواقب.

رمانى الرجل بنظرة محققة فاحصة. شددت لأمرى حزامه، قلت:

- ما أعلمه، سيدي القاضي، عن ابن خالتي هو عين ما قررت في مقالتي المرفوع إلى مقامك العالي، لا زيادة لي فيه ولا بهتان، إلا أن يحملني التعذيب على البوح بأشياء من وحي الشيطان.

قاطعني المحقق مغمض العينين، هاتفا:

- الله الله على الكلام المرصع بالسجع المسكوك والبيان المسبوك! دعني أستحليه، لا آبه إلى موطن الزلفى فيه، ولا إلى بعده عن الحق ومناحيه...

بدوري قلت مقاطعا:

- سيدي، إن كان كلامي كما حكمت، فالسجع فيه آتٍ عفو

الخاطر، لا بالتكلف والإرغام. أما التزلف فلم أقصده البتة،  
وأما الحق فلم أقل سواه.

حدّق المحقق فيّ من خلف نظارته بعينين جاحظتين  
لوامتين، وقال مبرطما:

- كل من عرفتهم من المعتقلين، ماضيا وحاضرا، يكررون  
الأسطوانة المشروخة ذاتها؛ كلهم، ولو كانوا من أصحاب  
السوابق، يدعون قول الحق صافيا لا غبار عليه، والبراءة  
الظاهرة من التهم اللاصقة بهم؛ كلهم يتظاهرون كما ولدتهم  
أمهاتهم: بيض الأفعال والنوايا والسرائر. وبعد التحقيق المثابر  
الصبور معهم، بالتي هي أحسن أو - عند الضرورة الماسة -  
بالتي هي أقسى وأوعر، ينتهون إلى الإقرار بخطاياهم، طالبين  
لقاء ذلك أحكاما مخففة بل، كما عند معظمهم، الاندماج في  
الأسلاك الأمنية والمصالح المخبرانية. وغالبا ما تُلبى طلباتهم  
بعد نجاحهم في اختبارات نفسية وأخرى طيبة. فإن كنت تؤثر  
الانتماء إلى هذه الفئة الناجية، فاسع إليها كما يحسن وينبغي،  
ولا ترجع إليّ هنا إلا وقد أخذتّ بالحل الأصح الأصوب،  
فتريحنا وتريح نفسك... والآن عد أدراجك، وتدبر أمرك وفكر.  
لكن قبل التفكير والتدبر، تخلص من أمثال تضر وضعك أو لا  
تنفع، من صنف: أنفك منك ولو كان أجدع، ويدك منك ولو  
كانت جذماء؛ بل دع عنك أحاديث نبوية مفصولة عن مناطها،  
أشهرها: «انصر أخاك ظالما كان أو مظلوما... الحديث»، ومن

ستر مسلما ستره الله يوم القيامة، إلخ. وحتى الآيات القرآنية، لا تقربها في مقامك، فإنها كلها حجج على من تسترّ عليه، ابن خالتك، الراكب هواه، المغرق في القبض دون البسط، وفي التطرف والتعصب دون وسطية الإسلام السمح؛ المطوّح عرض الحائط بنهي الله ورسوله عن الغلو في الدين، المتبع حذو النعل بالنعل سبيل الخوارج والصابئة والبرغواطيين، وغيرهم من أطياف الجانحين المتشددين. هذا من باب النصيح، فلا تكن من الغافلين أو الجاحدين. وعليه إياك ثم إياك من النطق كفر بعدما صمّت دهرا، أو أن تشرب بولا بعد أن صمّت حولا...

مغالبا ضجري من سماع هذر المحقق المهيمن عليّ،  
قاطعته مستأذنا:

- على ذكر البول، سيدي القاضي...

- هل لك في البول مقال؟

- لا! فقط لي حاجة، حاشاك، إلى التبول. أخاف نفاد صبري عليه مذ مثلت بين يديك، فأبول رغما عنيّ في سروالي، وهذا لا يليق بهذا المقام العالي...

- قف إذن وازهق. لا تنس أن الغولة، لو عاندت وتكثمت،  
قادرة على أن تسوي بنانك...

نعتُ السماء بسبابتي، قلت مقاطعا قبل أن أنسحب:

- وحده الله تعالى خلقتني وسوى بناني...

تنمر المحقق مكشرا عن نيوبه، صاح فيما هاتفه المحمول يرن:

- الغولة ستسوي بنانك بالأرض. ازهق...

في مكتب السكرتيرة، دست مامزيل نعيمة وريقة في جيبي،  
ثم سلمتني خلف بابها إلى الحارس الذي بادر إلى تقييد  
معصمي بمعصمه، مرعدا مزبدا، مقسما بالأيمان المغلظة  
أن لا مشي لي معه مستقبلا إلا كما فعل. لم أعبأ بلغظه، إذ  
انصرفت بيدي الطليقة إلى تحسس الوريقة في جيبي، متشوقا  
إلى افتضاضها وقراءتها ما إن أخلو إلى نفسي.

## الرسالة النبراس ومشاهدتي لإعدامات

في زنزانتي، فتّشت الأرض والسقف وكل الزوايا بحثاً عن عدسة كاميرا خفية أو لقاطٍ صوتيٍّ مدسوس، فقطعت الشك باليقين أن لا شيء من كل هذا يبدو للعين المجردة أو لليد اللماسة. ورغم ذلك ارتأيت أن أتدثر كلياً بإزاري الشفيف وأطلع متكوماً على الوريقة الرهيفة وما فيها.

فوا عجباه ويا نعمتاه مما قرأت!

«عزيزي حمودة،

شممت فيك رائحة بلادي ممزوجة ببراءتك من تهمة تتعداك ولا قبل لك بها... لا وقت ولا حاجة لأحكي لك قصتي. قصتك أولى بالذكر، لأنها الأمل والأدمى. خذ جذرك! كل استماتة منك في المقاومة والصبر على التعذيب ترشحك لما يريدون: أن تصير عميلاً مزدوجاً لاختراق جماعات مصنفة أمريكياً وعند وكالات مخابرات غربية في قوائم التطرف والإرهاب. كل خبراء

المجمّع ورؤوسه المتعددي الجنسيات يرومون خلق العميل المتعاون وبرمجته، ثم اغتياله بسلاح القتلّة الأجراء لو هو زاع عن السكة وتمرد. لا يهم أن تجهر لهم بما تسره وتستر عليه، فهذا مجرد معبر لدخولك بيت الطاعة، وأدائك مؤمنا مسير الخدمات محدّدة مرسومة، تورطك في دوامة ضاغطة مكبّلة، لا منجاة منها إلا بالموت. كاتبة هذي السطور، بالمعاناة والتجربة، تعي ما تقول. دخلتُ في الخدمة مضطرة - قبح الله العوز والبطالة! - ولا حيلة لي في الخروج منها حية...

عزيزي حمودة،

إذا شق عليك أن تصير ما يرغبون، خديم أعتابهم وخططهم الجهنمية، عليك بمراودة حل قد ينجيك لو أقتنته: أن تتحاقق وتتمارض. دَوْخٌ مستنطيقك بأعنى كلام الحمقى والمجانين، هدد معذبيك بسعالك وعدوى مرضك، لعل وعسى أن يياسوا منك، فيعيدوك إلى موطنك أو قريبا منه، مخدرا بأفيون، تصحو منه وأنت مراقب بدمليج إلكتروني ومستهدف برصاصة في الرأس، تصيبك ولا تخطئ، إذا ما رويت قصتك من حولك أو رفعت في شأنها شكاية ضد مجهول.

الوقت ضيق والخطر داهم!

إياك أن تبحث عني أو تسأل. وإن قُدِّر لك أن تمثل أمام المحقق مجددا وكنتُ ما زلت في خدمته، فتحملني صابرا صامتا إذا اضطررتُ إلى نهرك وتعنيفك.



بطاقتي إليك بمثابة حياتي في ذمتك. والله لو وقعت بين أيديهم لمزقوني إِرَبًا إِرَبًا. فاحفظها حيث لا عين، أو أتلُفها تماما. دعائي لك بالخلاص وحسن المنقلب...».

دعوت للمرسله الحنون، بنت بلدي، بخير دعاء. قمت أبحث لبطاقتها عن مكمّن آمنٍ مطمور. وفيما أنا أعالين وأقيس، نادى عليّ حارس لاستلام وجبتي. قطعّت البطاقة جزئيات وحشوتها في لهاقي وتحت لساني، ثم ما إن تلقيت حسائي حتى أفرغته في معدتي مزدانا بما زخر به فمي.

بطاقتك الآن، يا نعيمة، نعمة!

نعمة منك استبطنتها، فلا تخشي ظهورها وذيوها، واقتت بها حتى أتقوى على هدي إشاراتها وتنبيهاتها وأتنور.

المتاهة التي أنا غائصٌ فيها، دائخٌ بين شعابها ومناكبها، بدأت بعض خيوطها الرئيسة تنجلي لفهمي، بفضل البطاقة النعمة، الثاوية روحا ومعنى بين أضلعي وخلايا دماغي.

وسوسة عبرت ذهني مرة واحدة، تسم البطاقة بالمغرورة تارة، وبالمفخخة تارة. وسوسة شيطانية، ولاشك، سارعت إلى شطبها بل إبادتها في تصاعد إيماني بالتي خاطرت بمنصبها وربما بنفسها لمد يد العون إليّ، وبدت لي سلوگا وكتابة قوية الصدق، قمينة بالثقة والرهان القيم.

هذا هذا، وإن ظهر عكسه، فلا أمل لي بعده في الخلق

ولا شيء آخر أخسره سوى حياة هباء هي والموت على حد سواء.

نعيمة في باطني وكياني، هي النبراس إذن والسند؛ والسبيل إلى خلاصي يكون بحول الله من صنع عقلي وقدرته على انتحال حيله الماكرة عبر التقية والخدعة والتورية والتمويه والتضليل، وهلمّ جرا مما سيظل الصدر واللوح مفتوحين له، حسب طبيعة الظرف ودقة الموقف، وعلى ضوء إملاءات الروية والعقل، وحدوس البديهة والقلب.

بعض خيوط المتاهة انجلت إذن، وعليّ، متدرجا، برفع الغطاء عن أخرى ما زالت دامسة أو ملتبسة. لكن المعطى الثابت الذي لا ريب فيه عندي ولا مرأى أن هذا الحبس السريّ المجهول الموقع، تديره جهات أجنبية خفية بأيدٍ متعددة الجنسيات (عاينت منها عن كُتب عربا)، وأنا في مبرمج لاجتياز محن وامتحانات، عناوينها التعذيب وسوء المعاملة وغسل الدماغ، حتى إذا ما تفوقتُ فيها بالجلد والصبر على المكاره، رُشحت لإحدى الوظائف القذرة المطلوبة من وكالات استخباراتية مهيمنة وازنة، منها وظيفة العميل المخترق لجماعات معادية مستهدفة، ووظيفة البصاص الجماع لأخبار مفيدة، ووظيفة القاتل المأجور، وغيرها مما بطن ولا أعرفه أو لا أنصوره.

يعول مهندسو ذلك المخطط الجهنمي، ولا شك، على جيش احتياطي ملاييني، يتضخم عدديا مع الوقت، ويقوى

بطواير العاطلين وطالبي لقمة عيش. بؤس هؤلاء نعمة أولئك،  
ومصائب أقوام عند قوم أسمدة وسموم لتدجين دولٍ وترويع  
شعوب.

إني إذن أمام ضلع مرئي من أضلاع شبكة دنيوية، هرمة  
التنظيم، أخطبوطية الأشكال والامتدادات، يمسك بحبالها  
طواغيت، ويسيرها كلاب من عدة صنوف واختصاصات...

بغثة، وعلى ذكر الكلاب، قفزت إلى ذهني قصيدة «في  
المعتقل»، كتبها أواخر ستينيات القرن الماضي فؤاد نجم في  
سجن القلعة، لا يحضرني منها الآن إلا بعضها الذي رددته في  
نفسي ثم صدعت به بين جدرانتي وقضبانتي:

في المعتقل يا سلام سلّم

موت وأتالم

لكن لمين راح تتظلم

والكلّ كلاب

كلاب حراسه

وكلاب صيد

واقفين بالقيّد

يكتفوا عتتر وأبو زيد...

للكلاب - حشاك يا نعيمة - وأربابهم خطتهم الشيطانية في

تسخير أشقياء الأرض واستعبادهم طوع جبروتهم وشهواتهم،  
ولي أنا، عبد ربه ولا رب لي سواه، خطي في تعطيل برمجتهم  
لي، والاستعصاء على هندستهم وحساباتهم، وشق عصا  
الطاعة بالتحامق والتمارض معا. نعم أنا - وأعوذ بالله من قول  
أنا - الذرة الفرد، الضعيف بحجمي وجسمي، القوي بإيماني،  
المؤمن برهاني الذي لا أعظم منه في مقامي هذا، ولا أقوم  
ولا أخلص: إما أن أنجو بروحي من هلاك محدق داهم إلى  
بر أمان؛ وإما أن ألتحق بالرفيق الأعلى شاهداً وشهيداً؛ وفي  
كلا الموثلين، يا نعيمة، شارة نصرٍ سأبعث، نقطة ضوء واعتبار،  
تنضاف إلى مثيلاتها في سجلات الثائرين المنتفضين ضد  
الطغاة العتاة، وأيضاً ضد عبايد الخنوع والاستسلام...

فكرتُ في تناول قلمي وبقية أوراقِي كيما أوثق حلمي  
وخواطري، ثم أخفيها حيث مرّأتِي تحت تراب لحافي، لكني  
أجلت ذلك بعد أن اقتحم مكاني حارس مقنع، فقيّد يديّ  
خلف ظهري واقتادني بين ممرات وردحات حافلة بحركة  
حراس وسجناء غير عادية؛ ولما أفضى بي إلى ساحة خلفية  
لا أعرفها أوقفني بين جمهور، قال إنهم هنا للتفرج على تنفيذ  
حكم الإعدام في خمسة زعماء إرهابيين، اعترفوا بكل تهمة  
القتل والجريمة المنظمة المنسوبة إليهم. فتحت فمي للسؤال  
فأمرني بسده.

الجمهور مكون من جماعات متناثرة، يمنع الحراس

المختلطون بهم، كالمعتاد، أي كلام بين أفرادها. الوقت قريب من منتصف النهار، حسب موقع الشمس في كبد السماء. انتظار أثقل من الإسمنت لا تشوبه إلا نحنحات وخشخشات وحركات؛ وفجأة انبعثت من أبواق، يُرى بعضها على أبراج الحراسة، قرعات طويلة ضاجة، رافقها خروج خمسة رجال مقيدي الأيدي والأرجل من باب حديدي لمبنى أمام الجمع، يتبعهم جنديان مقنعان، مصوبين سلاحهما، وبأمر منهما وقف الرجال مديرين ظهورهم إلى حائط عال متآكل، كل واحد على بعد قدمين من الآخر.

كنت في موقع يمكنني من رصد وجوه الماثلين للإعدام. لم تكن عليهم أمارات الهلع والاضطراب. قلت هكذا يكون الزعماء البواسل الأشداء وإلا فلا، مسترخصين حياتهم في سبيل نضالهم، لا يأخذهم أمام الموت رجفة ولا خوف. وفي تدقيق رصدي وتغلغله، عجبا لبصري الثاقب الحاد ولما رآه: إلياس بوشامة بالذات والصفات، يقف في أقصى يسار أولئك الزعماء، عالي الهمة، وضاح الوجه، باسم الشعر. وأقسم بما يؤثر إلياس القسم به في هذا السجن: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ ١ وطور سين ﴿[التين: ١، ٢] إنه هو هو. صحت باسمه عاليا، وأردفت ملء حنجرتي: لك الله يا إلياس! تموت في سبيل الحق، وتبعث في الجنة مع الصديقين والشهداء...

أسكنتي الحارس خلفي بضربة على صدغي عقابا لي،

ونبهني إلى ماما غولة وقد اقتحمت الميدان في ما يشبه الجولة  
التفقدية. كانت ترتدي لباسا قاتما، وتحمل في يدها حزمة  
أكياس بلاستيكية سوداء. لم يكن يصحبها العملاق الأسود ولا  
أي غوريلا. بجسمها الضخم الفائض لحما وشحما ودمامتها  
المهولة الخارقة للعادة، كانت وحيدة تمشي، متمايعة مختالة  
كالطاووس تارة، متغطسة متوحشة كاللبؤة تارة. قصدت  
جمهور المتفرجين، تفرست وجوها بنظرات شزراء مزدرية،  
وهي تلوك علكها وتحرك ردفها وصدرها على نحو ينفر  
حتى قدماء الكبت الجنسي بين المعتقلين. ترقبت أن تخصني  
بالتفاته أو نظرة كيما أباغتتها بغمزة مستفزة أو إشارة بذئنة منكرة،  
لعلها تفهم أنني أتحدّها وألعن نشأتها وما يجيء منها، أو تدرك  
أن حمقي قد ازداد رقيا واستفحالا؛ لكن العاهرة الشمطاء  
تجاهلتنى وغضّت الطرف عني. وفجأة برز وسط الميدان  
سجين بدائي القوام والصورة، فركض كالفرس نحوها صائحا:  
حيّ على الجهاد، حيّ على القصاص. الله أكبر، لا غالب إلا  
هو... لكن ما إن اقترب من هدفه حتى أرداه جندي قتيلا، فكبر  
شهوذاً التكبيرات الأربع، فيما القاتل يغيب الجثة عن الأنظار.

بعد أن أتمت الغولة جولتها الاستعراضية غير عابئة بما  
حدث، يممّت وجهة الزعماء الخمسة، فأجرت أمامهم الجولة  
نفسها ثم، صحبة رجل بهيئة فقيه برزّ كجنّ، أخذت تتوقف  
قريبا من كل زعيم على حدة، تحدّثه كأنها تعرض عليه صفقة  
أو تساومه في شيء، وبعد ذاك، بحركة عنيفة تلبس رأسه كيسا

أسود، بينما الفقيه يناجيه بما أفترض أنه طلبُ الشهادتين أو دعاء بالغفران أو بهما معا. وكذلك فعلت الغولة مع الآخرين وفعل الفقيه، حتى إذا وصلت إلى الأخير في الصف، إلياس بوشامة، لقيتُ منه إعراضا عن التقنع بالكيس، توجهُ بالانقضاء على أذنها يعضها ويدميها، فأطلقت صرخات ألم وتوجع، وفرَّ الفقيه خائفا مستغيثا، فيما هب الجنود إلى فك أسر رئيسهم وإسعافها.

من موقعي، متحديا قبضة حارسي وتهديداته، صحتُ بكلمات مناصرة لإلياس وتأيد، أعقبْتُها هنا وهناك بين الحضور هיעة مبهمة، ما فتئت أن استحالت إلى جلبة استنكار وتنديد، وذلك جراء شروع الجنود في إفراغ ذخيرتهم الحية في أجسام الزعماء، تنفيذا لأمر الغولة المنسحبة تحت رعاية ممرضين. وعلت الجلبة واحتدت لما قام حراس بإلقاء الجثث في حاوية شاحنة على أهبة الانطلاق؛ لكن سرعان ما سُمع أزيز البنادق الرشاشة في الهواء صادرا من بعض الأبراج، آنثذ عمَّ الساحة سكون أشسع من سكون المقابر وأوغل.

في جو مآتمي مكفهر، اقتيدَ السجناء إلى المطعم الجماعي تحت حراسة مشددة، وفي الجو نفسه جلسوا لتناول وجبة، دلّني مكوناتها المكرورة أنها وجبة غداء.

ليس رغبة في كسر صمت الجلساء وخنوعهم، بل لأداء فريضة دينية واجبة، اعتليتُ مقعدي وخاطبت الجمع:

رجالٌ شدادٌ تقاة، أحلامهم كالجبال، ماتوا أمام أعينكم  
يا قوم، فلا أقل من أن نقوم جميعا ونستقبل القبلة، نصلي  
عليهم صلاة الغائب وندعو لهم... التكبيرات الأربع، يا إخوة،  
التكبيرات الأربع...

لم يبد أحد استجابة ولا حراكا، بل دبَّ في بعض الطاولات  
هدير ضحكات طليقة أو متقطعة، ثم تحولت إلى قهقهات  
ساخرة انتقلت عدواها إلى مقتعدي طاولات أخرى. استغربتُ  
الأمر واستفحشته، وكيف لا أفعل؟! كيف لا؟! وحين عاد  
المطعم إلى حاله الاعتيادي، تناهى إلى سمعي من إحدى  
جنباته صوت في اتجاهي: البكاء على الميت خسارة، يا وليَّ  
الله، وكثرة الهم تضحك...

لم أعبأ بالتعليق بل كبرت وحدي مرة فأخرى، وفي الثالثة  
والرابعة رافقتني أصوات مهلهلة متعبة. وبعدها قعدت عابسا  
متذمرا. مال عليّ جاري هامسا في أذني: لي عندك الحل،  
حلّ الحلول وحلّ النجاة، يقلب المرَّ حلاوة، والضيق سعة،  
والشقاء نعمة. يريك الغولة نعجة بل هريرة، والمدير ديكاً،  
والمحقق حمارا. ليس الخمر الحرام أعرضه عليك، بل حبات  
الإكستازي أو، إن شئت، القرقوبي المشتق من الحشيش  
الصافي. وكله بضمن مناسب. خذ حلّي بالسلف أو مقابل خدمة...  
آش قلنا؟

رمت مخاطبي بنظرة تمنع ورفض، وذهبت أعيد صينيّتي



إلى موضعها وأبحث عن حارسي المقنع لاستئذانه في تقصد  
زنزاتي. أجباني، وقد عثرت عليه، أن المجمع ليس خيرية  
لإطعام المساكين وأبناء السبيل، وأن عليّ المشاركة في غسل  
الأواني وكنس المطعم وتنظيف أثاثه وجدرائه. وكذلك  
فعلت صحبة رهط لا أدري هل هم من المعتقلين الحقيقيين  
أو المخترقين. وبعد إنهاء عملي طلبتُ الرجوع إلى مربعي،  
فرافقني حارسي إليه سائلا إياي لأول مرة إن كنت أريد شراء  
أشياء بأثمنة السوق السوداء، وعددها: سجائر أمريكية، نبيذ  
فرنسي، راديو ياباني، سواك حجازي، عطر هندي، حشيش  
مغربي، صابون بلدي، معجون أسنان وعلك بلا هوية...  
قاطعته بالإعراض عنها كلها.

## حصّة تعذيب أخرى

عودا إلى زنرائتي، استرعى انتباهي ازديان لحافي بحذاء نايك وسجادة وتيمومة وكتاب مجلد خلته نسخة من القرآن الكريم، وكذلك صحف ومجلات (عربية وغربية) سُطبت تواريخها وانتزعت بعض مقالاتها، ورجحت أنها ترجع إلى بضع سنوات خلت. جلست تَوّا أنصفح الجرائد وأطلع بعض عناوينها الأولى والداخلية. استوقفتني قليلا عينة منها: انفجارات إرهابية بالجملة في بغداد تخلف عشرات القتلى والجرحى / المغاريبات ضحايا الاسترقاق والاستغلال الجنسي في بلدان الخليج / خليجي ينقل السيدا إلى خليلته التونسية عمدا بطنجة / فيروس السيدا يهدد القارة السمراء / شبكات تهجير «فنانات» مغاريبات إلى مواخير الخليج والشرق العربي / اغتصاب الأطفال في المدارس وخارجها كابوس مجتمعات عربية / مقتل وجرح عشرات الأشخاص

في انفجارات إرهابية بالجزائر العاصمة/ أسرة في مراکش  
تسلط على خطيبة ابنها الكلاب والثعابين لإجهاضها/ إسبانيا  
تراقب أصوليين مغاربة في جيشها... أما المجلات،  
وكلها من الصنف البرنوغرافي الخليع، فرميتها في ركن معتم،  
معتصما بحجاب الحياء والتقوى...

مقال متعلق بتصريحات متوعدة نارية ضد المقاومة  
العربية لكبار أركان الكيان الصهيوني قرأته بآتمه. تأكد لي  
ما أعلمه وتعلمه كل الشعوب المستضعفة وأحرار العالم:  
جبروت إسرائيل المستقوي بدعم أمريكا الشامل اللامشروط،  
تعززه معظم دول أوروبا وحتى أنظمة عربية وازنة. المقاومة  
الفلسطينية واللبنانية تناضل نيابة عن كل العرب والمسلمين  
ليس ضد إسرائيل وحدها وإنما ضد جميع تلك القوى  
المتجبرة الجائرة... وفي هذا السياق قرأت مقالة نزلت علي  
فقراتها دفئا وسلاما، فسطرت على بعضها وتمنيت لو تعرفت  
على هوية صاحبها.

قمت أغسل يديّ بقطرات الماء الشحيح حتى أمس نسخة  
القرآن الكريم، ولو مطهرا بمقدار يسير، فهالني، إذ قلبت غلافه  
الفاخر القشيب، أن قرأت عنوانه: الروض العاطر في نزهة  
الخاطر للشيخ محمد النفزاوي. ارتعدت فرائصي واقشعر بدني  
لما في هذا الإرسال من استفزاز سافر واستهتار ممجوج.

هذي الإكراميات، تراها من عند من أنتني؟

لو لم تكن مخلوطة بهدايا ملوثة لمال ظني إلى نعيمة التي في قلبي وخاطري. أما وأنها كذلك، فلا ريب أن مرسلها هو القاضي المحقق، عربونا على مصالحة معي يريد لها لقضاء حاجة ما في نفسه اللثيمة الشريرة. لكن وحق فاطر السماوات والأرض، وباسم خطتي في الممانعة والتصدي، لن يصيدني المحقق الخائن في المياه العكرة، ولن ينال مني ما يبتغي وينوي. الصلاة على سجدته - هكذا قررت - فاسدة لا تصح، والتوضؤ بتمومته نقيض لا يطهر، وقراءة الروض العاطر في مقامي هذا أنقض وأفسد. كل هذه الأشياء وحتى الجرائد - ما عدا حذاء النايك الذي ما أحوجني إليه! - ألحقها رميا في الركن المعتم بمجلات الدعارة والمجون والعري.

في صبيحة الغد، بعد قيامي بعمل تنظيف وكنس في المطعم مع رهط من السجناء، اقتادني حارس مقنّع إلى غرفة سرية في قبو، لم أرها من قبل. قيّد يديّ إلى الخلف وأجلسني على مقعد أمام طاولة وكراسي. بعد انصرام لحظات انتظار زاحرة بالرهبة والقلق، دخل رجل مقنّع، قوي البنية والعضلات، لا شك أنه أحد غوريالات المجمع، وتوقف مع الحارس ورأى قريبا من ظهري؛ ثم أعقبته الغولة، متبوعة - وافرحتاه! - بنعيمة. والمرأتان خلقا وخلقة على طرفي نقيض، كالغزال المسالم والوحش الضاري، شتان ما بينهما. الغولة موغلة في قبورها القياسي وهمجيتها الهوجاء؛ ونعيمة رافلة في حسنها الأخاذ ونعومتها الفائقة.

بأمر من رئيستها، قامت نعيمة بتصويب مسلاط ضوئي إلى وجهي، اهتبلتها فرصة لإظهار انحماقي، تطبيقاً لفصل من فصول خطتي الأنفة الذكر، إذ جاهرْتُ نعيمتي منشداً، من دون ذكر اسمها أو إشارة إلى بطاقتها الشيقة: نورتي يا خيرَ زائرة/ أما خشيت من الحراس في الطرق؟ عوضاً عن إجابة منها، أتنني من الغوريلا صفعة على قفائي أخرستني، مرفقة بتحذير كأنه صادر بلسان كائن آلي: ممنوع السؤال، ممنوع التحرش الجنسي... وبعدها تحول إلى جانب الغولة المنهمكة في استهلاك الشندوتشات وقنينات البيرة تباعاً، وذلك بشره قلّ عند الآدميين نظيره. وبين الفينة والأخرى، أخذت بفمها المليان تبث في أذن الغوريلا كلاماً، فينقله إليّ في صيغٍ استنطاقية وجيزة صارمة، صاح بصوته الآلي:

- الرايسة تسألك عما تسترّ عنه من قبل ولم تقله...

بعينين رامشتين دامتتين من شدة الضوء الصناعي المسلط على وجهي، أجبت متحدّياً:

- ما في جعبتي قلته، ولا تُعاد إلا الصلاة على النبي.

ردّ عليّ الغوريلا مهدداً:

- فرغتَ يا ابن الكلب جعبة وتكتمت على جعب. أفرغها

كلها وإلا أفرغت عروقك من دمها... في مدينتك وجدة، عدا انكبابك على الكتب، كنت تنكبّ على أشياء أخرى... مثلاً على امرأة اسمها فاطمة اللوزي، أسكنتها في مكتبتك، وتريد الرايسة معرفة علاقتك بها...

أجبت على الفور بما أعلم:

- فاطمة هاته أرملة معدمة، وحيدة لم تخلف. ذقت من مرارة العيش ما لا يطاق. آويتها وساعدتها قدر جهدي مقابل تنظيفها المكتبة والنيابة عني أحيانا في تسييرها...

قاطعني مفتول العضلات:

- الرايسة تسألك إن كنت تزني معها...

- لا، معاذ الله (صحت). المرأة أختي من الرضاعة، تحرم علي...

أطلقت الغولة ضحكات صاخبة، مرددةً بلكنة طبيعية أو مصطنعة:

- أختك من الرضاعة، يا ولد الزنى... رضاعة اللبن! mon cul... وفيين هي اليوم؟

- لا أعلم (أجبت)... اختفت شهرين قبل اختفائي...

- بل قل، يا كلب، أخذت الماكي في الجبال مع أخيها الآخر من الرضاعة، ابن خالتك الحسين المصمودي...

عاد الغوريلا إلى استنطاقي بعدما فرغ من التقاط همسات رئيسه إليه:

- في جلسات التحقيق السابقة، تسترت على فاطمة اللوزي ولم تذكرها أبدا، لماذا؟

- لأن الكلام فيها لا يفيد التحقيق...

- بل يفيد... الرأية تسألك عن توجهك الجنسي.

- توجهي الجنسي! لا أفهم...

قاطعني مستغربا:

- هل في العلاقة الجنسية تميل إلى المرأة أم إلى الرجل؟

- طبعاً إلى المرأة لأنني رجل. لكن ليس أي امرأة. الفتاة أمامي لو استطعت الزواج بها على سنة الله ورسوله لما تأخرت. أما معذبتني تلك، الموت أفضل لي من العيش معها، والجنس اللطيف براء منها...

انتفضت الغولة واقفة، قذفت وجهي بما في فمها من أخلاط أكلها، ثم جلست تطفئ غضبتها باحتساء بيرتها.

استأنف المستنطق هجمته عليّ قائلاً:

- علاقتك بفاطمة اللوزي تفيد التحقيق، وتفيد تهمة الزنى الثابتة عليك بالحجة المادية الدامغة وبحكم الشرع... تسترت على هذا، كما تسترت على ما هو أدهى وأخطر: المتاجرة في البنزين المهرب بين الحدود المغربية الجزائرية بقربات وبدونات، كنت في البداية تنقلها بدراجة نارية ثم بسيارة تتحرك بغاز البوتان، قابلة للتفجير وقتل الأبرياء... لماذا تسترت على كل ذلك وأخفيت؟

غالبت حرجي وأجبت بحزم وتؤدة:

- هذي معلومات لو سئلت فيها لقلت كالتالي: نعم، هربت البنزين بمقادير يسيرة من قرى جزائرية إلى وجدة ونواحيها، لكن سرعان ما عدلت عن ذلك لغلبة المخاطر على الأرباح وتكاثر «البدونيين»، سمّي هؤلاء كذلك لأنهم بدون عمل عدا طرابندو بيدونات البنزين... أما تحريك سيارتي بالغاز فبسبب اعتدال ثمنه ورحمته بطاقتي الشرائية الهشة، لا غير.

بإشارة من الغولة، كثفت نعيمة ضوء المسلاط حتى أقصاه، فبدأ لي مَنْ وراءه أشباحا وخيالات لشد ما أصاب بصري من ضعف واضطراب. أدت نظري إلى الخلف للتخفيف عني، فلاحظت غياب المحارس. أمرتني المستنطقة بإرساء رأسي صوب الأمام. ولما استقمت ضج صوت الغوريلا:

- ترى الرايسة أن كلامك كله زبل وزفت. الآن للمرة الأخيرة، تسألُك أين يختفي ابن خالتك المكنى بأبي البشائر، أو حتى بعض رجاله. تعاون بجد معها تسقطُ عنك تهم الزنى والتهريب واستعمال سيارة مفخخة، وزد في السلة تهمة اغتيال زوج أمك... قلتَ إيه؟

دعوت ربّي في نفسي أن يقوّي صبري على ما ينتظرني من مساءات التعنيف والتعذيب، جراء الجواب الأوحـد الذي عندي على سؤال الغولة المهدّد المتوعّد: قلتَ إيه؟ بإشارة منها تقدمت نحوي نعيمة، فكررتُ في وجهي المضاء جدا السؤال نفسه بصوت خشن غير ناعم. قلت:



-نورتني يا خير زائرة/ أما خشيت من الحراس في الطريق...  
إني، وحق من خلقتك في أحسن تقويم وزين بنانك، لا أعلم  
شيئا عن أحوال ابن خالتي ولا عن مكان وجوده ولا عن  
أصحابه.

بادرتني نعيمة بصفعة على خدي استحليتها، فمددت لها  
خدي الآخر طلبا لحلاوة مزيدة، فصفعته بشدة لا تخلو من  
نعومة. رغبت لو أن صفعاتها طالت وتجددت حتى تنسيني  
الغرفة ومن فيها، وأتخيل صافعتي يصدق عليها المثل: من  
أحب عاتب وقيل عاقب. لكنَّ رغبتني سرعان ما أجهضها  
فائض البنية والعضلات، إذ جذبني إلى دائرة معتمة، مددني  
على ظهري قرب جفنة ماء، حشا فمي بقطع صوف وورق  
المرحاض، شمعه بلمصقة مقواة ثم بث في أذني: الآن، يا ولد  
القحبة، ستبصق الحقيقة بالخنق الدافئ.

الخنق الدافئ!

أقبلت عليَّ الغولة وجلست القرفصاء فوق وجهي، شعرت  
أنها تطبق إحدى ثقبها الحميمية على أنفي، فتحبس الهواء عني  
وتحشرني في شم غازاتها وروائح لحمها الكريهة، فلا ترفع  
قليلا طوقها الملوَّث عني إلا لتسألني هل أقبلُ التعاون، ثم  
تعود إلى فرضه عليَّ بعد تأكدها من نفوري وصدودي. رن  
هانفها النقال، أجابت بما معناه: نعم سيدي، الكلب يوجد  
تحت السيطرة، ولا بدّ يتكلم... نعم سيدي... ولما شعرتُ  
بضمور تنفسي وتضاؤل حركات رجليّ المقيدين، قامت

وعادت إلى موقعها تتابع أكلها وشربها، وظللت أنا طريح الأرض أئن وأكح.

بإذن من معذبتى - أو ربما من تلقاء نفسها - خلصت نعيمة فمي مما فيه وحررت رجليّ. سعلتُ مثلما لم أسعل من قبل، وتقيأت مرارتي ملء جوفي، معذرا لمسعفتي، التي بللت فوطة بماء الجفنة وانحنت عليّ تنظف وجهي وعنقي. هذأتُ شيئا فشيئا بفضل عناية فتاتي الرحيمة الرؤوم وقرب أنفاسها الزكية مني.

بعيد لحظات أقبلت الغولة، جست حبل وريدي ونبضي، ثم أومأت إلى الغوريلا فجرني وأجلسني القرفصاء حذاء جفنة الماء، وهو يصيح: الغطس الغطس! إما الاعتراف أو الحتف...

إنها إذن عملية غطس الرأس في الماء، السيئة الذكر والصيت. يقال إن المعذب بها يعاين موته بحبس الأوكسجين عنه مرةً بعد أخرى إلى أن يذعن إلى الاعتراف والتعاون أو يهلك دونهما. وهكذا فعلت بي الرايسة بوحشية متناهية، حتى إذا جاعت وظمئت أوردن هاتفها أنابت عنها نعيمة، التي أخذت في أدائها تقصّر مدد الغطس وتعتمد عدم الإلتقان وتكثر الغش. تنبه إلى ذلك مفتول العضلات، فوشى بها إلى الغولة المنشغلة بتغذيتها وهاتفها، فما إن فرغت حتى هجمت على نائبتها بصفعة مدوية أفقدتها وعيها، لاعتة سوء كفاءة المتدربات

الشابات وضعفَ حنكتهن ومعارفهن، ثم أمرت مساعدتها بحمل المغمى عليها إلى المستوصف وتأديبها، وبعدها تولتني بالغطس، فلا تخرج رأسي من الماء إلا لإطلاق لسانها النتن بسبب والديّ وديني، أو لتهددني مجددا بالموت غرقا إن لم أفتح لها صدري بالكشف عن أسرارِي. وبينما أنا أتملى وجه نعيمة تحت الماء، مستعينا بذكر الله وذكرها للصبر على قطع تنفسي ما استطعت، إذا بي أحس أن وهنا ما أصاب الغولة في النطق بسبابها ووعيدها، كما في مخض رأسي بين الغطس والهواء. ناجيت نفسي: هذا من آثار السكر حتى الثمالة عليها، وقد يكون لي به مخرجُ اعتاق، إن شاء الله. وصدق ظني، إذ ما لبث أن دخل الحارس مضطربا، فأعان رئيسه على الوقوف وتقصد أريكتها، وهي تهذي بكلمات متقطعة غامضة، ثم رجع إليّ، فأخرجني من الغرفة، واضطر إلى حملي على كتفه باتجاه المستوصف رحمة بي أو اتقاء لموتي بين يديه، لما رأي عليه من سوء حال وعجز عن المشي المتزن. هنا في غرفة انتظار أجلسني حاملي على كرسيّ ثابت، قيّد إحدى يديّ به وانصرف على عجل لحاجة يقضيها.

بقيت وحدي أنتظر انفتاح بابٍ قربي؛ وحين احتد الصمت وغلا تناهت إلى سمعي من خلفه أنات حسبتها لجريح قيد العلاج، لكن ظني تبدد لما مكنتني فضولي من استراق النظر من ثقب القفل، فرأيت ما كاد يسقطني على أم رأسي: طبيبة بصدريتها البيضاء منكبة على نعيمة، تحضنها، تلامس نهدِها

العاريين، تترشف من فمها قبلات عميقة، كما يفعل رجل مع امرأة. استعدت بالله في نفسي واسعا، ثم عدت إلى هيئتي السابقة على إثر سماعي لوقع خطوات في الردهة المجاورة.

أقبل عليّ الحارس، أزال قيدي وسلمني إلى الطيبة بعد استئذانها. لم يكن لنعيمة أي أثر! أحجمت عن أي استغراب أو سؤال.

امرأة في متوسط العمر، أجنبية المظهر، نحيفة، واطئة الصدر، قصيرة الشعر، لا لمسة ماكياج على وجهها ذي الملامح الذكورية اللافتة... استقبلتني مبشورة مطمئنة، أجرت عليّ بعناية فائقة فحوصات متنوعة عديدة. ركزت على صدري وجهازي التنفسي يدويا فإشعاعيا، وتوجت عملها المشكور باستخلاص حقن من دمي في قارورة لأجل التحليل، ثم بثت في أذني كلمات مفادها أن نعيمة أوصتها خيرا بي. سلمتني مرذاذين وأقراصا مرفقة ببطاقة استعمالها، وكذلك علييات بلاستيكية فارغة قالت إنها هبة من الفتاة. سألتها تَوّا عن حال نعيمة، أو مأت بما يشير أنها بخير، وعن موعدنا القادم فصالبت سبابتها بشفتيها هامسة: إذا بصقت الدم... وأخيرا شيعتني إلى الباب حيث كان الحارس في انتظاري.

من دهليز المعتوهين  
إلى مرآب «المتمرنين ليوم الحشر»

هل حقاً حُملت إلى لحافي نائما ومر يومان ولم أفق، كما  
يصدع بذلك صوت منبعث من زنزانة مجاورة لي؟  
بصعوبة متناهية وقفت على رجليّ، لاحظت تورمات متقيحة  
في قدميّ؛ بخطى متعثرة عرجاء قصدت بابي، أدركت أنني  
أقيم في زنزانة غير التي كنت فيها. الدليل: الباب ذو القضبان  
الحديدية، أرى من خلالها ممرا مظلما وحائطا مبرقعا بالثقوب  
وجلطات الرطوبة المتكثرة. مددت رأسي شمالا: دهليز معتم  
لا تدرك العين مؤداه؛ أدركته يميننا فإذا بي على بعد مترين وجهها  
لوجه أمام رجل بدائي شبيه بإنسان الكهوف، يعرض عليّ  
بواسطة عكازه كيسا مشحونا، ويقول بلهجة المستنكر الأمر:  
- صاحب السعادة ينعم بنوم هادئ عميق، فيما أنا أشقى مع

مرحاضي المخنوق. خذ الكيس، أفرغه في حفرتك وأرجعه لي بعد غسله، ولا بد...

ترددت في تلبية طلبه، فاستعجلني مستعظفا:

- خذه يُرحم أبوك... ذخيرة أسبوع كامل، هذا كثير! الجار للجار رحمة... ارفع الجار ولو جار...

قصدت بالشيء مرحاضي مترنحا، مقللا تنفسي، لم أجد في عقر الزنزانة سوى حفرة ضيقة القطر، مغطاة بياجورة، وصبور ماء شحيح. قررت أن المهمة مستحيلة نظرا لحجم الكيس الوزن ومخاطرتي، لو أنجزتها، أن أزيد في إفساد هواء مأواي وأجعله وبالا عليّ. كومت لحافي على ما وجدته من الماعون، اعتليتة بنية إفراغ الكيس من كوة محاذية للسقف، لكنه فلت من يدي المرتعدة ليسقط في فراغ مبهم.

عدت إلى أرض محلي أرتب ما كومته، ثم استلقيت مستردا أنفاسي، مغالبا أبخرتي الرديئة والتباس العناصر والخيوط في ذهني. ركزت نظري على الكوة، والنهار يزحف إلى متمه، تذكرت أنني قبل نومي العميق خضعت لحصة تعذيب قاسية مكثفة، أجزتها الغولة بمساعدة الغوريلا ذي العضلات. عاودني طيف نعيمة اللطيف أثناء الحصة وفي غرفة بالمستوصف، والطبية النصرانية تخضعها لكشوفات أؤثر الآن اعتبارها تقنيات فحوصية خصوصية عوض إساءة الظن بها، سيما وأني ما تلقيت من صاحبها إلا الخير والمعاملة الحسنة.

على نحو آلي فتشت في جيوبي فأخرجت منها مرذاذين  
مكتوب عليهما الفونطولين للمصابين بالربو، زودتني بهما  
حينذاك الطيبة، رفقة علييات بلاستيكية فارغة قالت إنها هبة  
من نعيمة إليّ. وفيما شرعت أفكر في دلالة هذي الهبة ومغزاها  
إذا بجاري يناديني أن أعيد إليه كيسه. أخبرته بما حدث، فأخذ  
يصرخ ويضرب الأرض والقضبان بعكازيه ويعدني بالويل  
والثبور؛ ثم علت أصوات كثيرة من زنازن مجاورة على طول  
الدھليز، بعضها يطالبني بتمكين الثائر المسكين من كيسه،  
وتعده ليوم غد بكيس آخر أنظف وأرفع؛ وبعضها يترجاه أن  
يسكن وينام ويفوّض أمري إلى يوم الحساب. وفي لجة الهرج  
واللغط تضاعفت هستيرية جاري، فادّعى أنني تملك متاعه  
وحرمة منه لحاجة خبيثة في نفسي أريد قضاءها، ورفع عقيرته  
بأدعية عليّ، لا أسوأ منها ولا أفدح، ومع كل دعاء يعم أرجاء  
القبو هدير السجناء بقول آمين. واستمر ذلك متواترا فمتقطعا  
حتى الهزيع الثاني من الليل.

سوط عذاب من صنف آخر سلط عليّ في هذا الدھليز الذي  
لا مرأ أنه للحمقى والمعتوهين، حُشرت فيه عمدا أو ربما،  
كما أرجو وأتمنى، عن طريق الخطأ والسهو لا غير.

في ما تبقى من الليل لم يرقد لي جفن. أرقّ على أرق، ونباح  
كلاب مستعر، وبوقٌ يستبيح دمي باللسع والمص، لا أنلهي عنه

إلا بالتفكير الساهم في نعيمتي ولغز هديتها، كما في الطيبة  
وهمستها الأخيرة لي: إذا بصقتَ الدم...

عجبا قلبي كيف يستमित في التثبث بالحياة والنبض،  
بالرغم من كل ما عانيته من تعذيب وخنق. لا ريب أن ما زاد في  
تقويتي على الصبر رسالة نعيمة إليّ، وعلامات عطفها الخفيّ  
عليّ.

مع انبلاج الصباح، جلست متربصا حارسا يقصدني بشيء  
من الطعام أو يمر خلف قضبانني. لا بد أن أبلغ عني وأنبّه  
القيمين أنني هنا لست في مكاني... أحكّ جلدي، أغالب  
أمارات ربوي، أسحق البق الضال أو العالق بجسمي، أرشّ  
فمي بمرذاذي وأنتظر.

لم يخب أُملي: قبيل انتصاف الصباح، سمعت أصوات  
حراس قريبا من زنزانة جاري، هرعت حبوا إلى بابي واستعنت  
بقضبانة للوقوف. كانوا ملثمين في الممر يلفون الجار في  
إزار أبيض ويجهزونه على محمل، فيما السجناء يكبرون  
أربعا ويدعون للميت. شاركتهم فعلهم الشرعي ما استطعت.  
ولما هدأوا نبّهت إليّ حارسا قريبا أنني هنا عن طريق الخطأ،  
ورجوته أن يعيدني إلى زنزانتني ١١٢. قوس في البدء حاجبيه  
استخفا أو استغرابا، ثم بقدرة قادر فرقع مفتاحه في القفل  
وأمرني باتباعه بعد أن مكنتني من عكازي الجار المتوفى. هكذا  
عكزت رفقته خلف حاملي النعش الثلاثة، بينما أيدي السجناء



تمتد نحوي مهددة على طول الدهليز وأصواتهم تغدق كلمات السب والدعاء عليّ، يردد بعضها: قُتِلَتَ نفسا بغير حق وتسير في جنازتها. قاتلك الله وخلدك في النار...

عند بهو وسيع في ملتقى ممرات، أوقفني مرافقي بغتة. سألني كيف جيء بي إلى عنبرية «المزنزين»، رويت له ما أعلم. وعن حكاية اتهامي من طرفهم بقتل جاري استفسرني، فقصصت له قصة الكيس وما فيها. أسهم مفكرا وعلق:

- وأمر إجماعهم، ماذا أفعل به؟

- سيدي الضابط (أجبت)، أنا لم أدخل زنزانة الميت قط، وإجماع المحمقى المزنزين لا يصح في الشرع.

حك قفاه مفكرا. أمر مساعديه بتسليم الجثة إلى حفار القبور واقتادني إلى باب في دهليز شاخص الإنارة وأغلقه دوني بعد أن نصحني بانتظاره مع من سماهم «المتدربين ليوم الحش»، وذلك حتى يحقق في قضيتي وعلاقتها بقصة الكيس.

المرأب الذي وجدت نفسي فيه عنوة عبارة عن محشر ذي سقف صفيحيّ عالٍ، تسنده أعمدة خشبية مركوزة في أرض رملية. مرأب يعج بالبشر من شباب وكهول وعجزة، أغلبهم واقفون وقوف الساق على الساق، والباقي جلوس وهم من المعوّفين وأصحاب العاهات. ظللت قريبا جدا من الباب، مترقبا عودة الضابط. أراد عجز أن أجلس مكانه، شكرته

مظهرها اتكائي على عكازي وارتياحي إليهما. سألته عن حاله وحال هذا الحشد الغفير من عباد الله، فتناوب على إجابتي بعض الواقفين:

قال واحد: الناس، يا أخي في الله، هم كما تراههم منذ ما يقرب من شهر. ضعافهم يقتعدون الأرض، ومرضاهم يتكومون عليها...

وقال ثانٍ: مرة في اليوم يرموننا من ترعات السقف بالخبز والتمر وقناني ماء، فنقتات بما تيسر ونتنظر الفرج ممّن لا غالب إلا هو.

وقال ثالث: أما من أراد قضاء حاجته فعليه باختراق الصفوف إلى ذلك المرفق المسيح بالألواح الخشبية وأزرة الخيش، لا وضوء إلا بالأحجار، ولا صلاة لمن استطاع إلا صلاة الخوف أو التقصير. الطغاة القتلة يدعون ظلماً وبهتاناً أننا غلاة مكفرون، ويذهبون في تعذيبنا مذاهب شتى، منها تدريبنا على يوم الحشر، حسب تعبيرهم المقيت وخيالهم المعتل...

وأضاف رابع: لكننا هنا صابرون على بلوى المحنة، حتى نجتازها أحياء أو نبعث بعدها شهداء...

انطلق صوت، لم أتبين صاحبه، رافعا عقيرته بالتجويد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٧)

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٣ - ١٥٦]. رددت أصوات كثيرة من حولي، وأنا معها، الآية الأخيرة؛ ثم إن صمتا ساد بغتة بعد تهاطل سيل أكياس صغيرة وقناني بلاستيكية، تلقيت نصيبي منها عن موزع، فإذا هو خبز وتمر وماء شروب. ظل الصمت مهيمنا وقت الاقليات وسد الرموق. وبعد الفراغ منه شعشع صوت جمهوري قوي:

عباد الله: حال الطواغيت بيننا وبين الوضوء والصلاة، فلنجبهم بالأذكار والأوراد، تطهرنا وتعصمنا من الضعف والهوان. قال نبينا الأكرم، صلى الله عليه وسلم: إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة. وقال ما أصاب عبدا هم ولا حزن فدعا بهذا الدعاء إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا... عباد الله، ادعوا الله معي بأسمائه الحسنى: هو الله الذي لا إله إلا هو. الرحمن. الرحيم. الملك. القدوس. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار...

وصاحب الصوت كل من في المحشر من العرب ومن عليهم سموت العجم، فكان مشهد أعناقهم المشرتبة وحناجرهم المنشدة المتشوقة مما تقشعر له الأبدان وتهيج به الأفتدة.

حين خلص الجمع من ذكرهم ذاك، الذي شاركهم فيه قدر  
الإمكان، عاد الصوت الجمهوري إلى البروز:

عباد الله، قال سيد الأنام: من سَبَّحَ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ  
ثلاثًا وثلاثين، وحمّدَ اللهَ ثلاثًا وثلاثين، وكبّرَ ثلاثًا وثلاثين  
وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك  
وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غُفِرَ خطاياهم وإن كانت  
مثل زبد البحر.

وما إن توقف الصوت، الذي لا شك أنه لإمام فذّ تحرير،  
حتى هاجت الأفواه وتسابقت في طلب المغفرة بالتسبيح  
والحمد والتكبير والتوحيد عددًا ما ذكره الإمام. وبعد ذلك  
تناوب الجمع فرقة فرقة على رفع عقائدهم بالأمجاد النبوية،  
تعرفت منها على فقرات من بردة الإمام البوصيري وأحزاب  
من دلائل الخيرات للإمام الجزولي؛ ثم أعقبها بعضهم  
بالإنشاد الصوفي ورقص الحضرة، وذلك كله في حفل  
روحاني مهيب.

توالى فصول ذلك الحفل متدفقة، دافئة، متجددة، انصهرت  
فيها بذهني ووجداني دون جسمي التعب من اتصال وقوفه على  
عكازين أمسيا جزءا مني. خشيتي من أن يعود الضابط إليّ ولا  
يجدني جعلتني ألزم مكاني قرب الباب، لا أحيد عنه، ولو أن  
حاجتي إلى الحركة والتبول بدأت تبرز وتلح.

أخذت فرقة دائية مني تردد نشيد الأنصار الشهير في استقبال  
المصطفى الأمين وصحبه بالمدينة المنورة:

طلعَ البدرُ علينا      من ثِيَابِ الوداع

وجبَ الشكرُ علينا      مرحباً يا خيرَ داع

فانتقلت إلى فرق أخرى عدوى حماسهم الإنشادي فإلى الجمهور الحاشد كله. ولم ينل من جذوتهم المتأججة إلا انهمار سيول مائية باردة من ترعات السقف، مصحوبة بصوت رعدي صادر من بوق لا مرئي يردّد هذا الشعار: النظافة من الإيمان. اغتسلوا جيداً بالمجان... لم يفلت أحد، ولو بمقادير متفاوتة، من البلل الذي أدى بالناس هنا وهناك إلى نوبات عطس وكحة وسيلان أنفي، وأصابني أنا برعشات متصلة اصطكت على إثرها أسناني ثم بسعال حاد استعصى على أعمال مرذاذي.

وحين انقطعت التساقطات المائية، عاد الجمع إلى ما كانوا عليه من أذكار وأوراد، مع تكاثر راقصي الجذبة الذين أحالهم يُعيدون بها الحرارة الحيوية إلى أجسادهم المبللة الكآزة. وفجأة ضجّت من ترعات السقف موسيقى التكنو الصاخبة، فحاول المنشدون والراقصون ملء حناجرهم وحبالهم الصوتية مغالبتها والتغطية عليها، لكن الإنهاك أخذ شيئاً فشيئاً يدبّ في أوصالهم، ناشراً بالتدريج سرطان سكون قاهرٍ قسريّ.

اقتعد الأرض معظم أعضاء الجمع متزاحمين متضاغطين. انصرمت قطع التكنو تماماً، وبعدها تعالت أصوات مكبرة للإعلان عن سقوط موتى. انتبهت إلى العجوز حذاء قدمي، استيقنت أنه بات في عداد هؤلاء بعد أن جسست وريده وأغمضت جفنيه. كبرت أربعاً رفقة الدانين مني، ثم رأيت

الباب يُفتح وطابورا من الحراس المسلحين يقتحمون المحشر ويشرعون في إخراج الموتى على محامل مطاطية. ولما قصد اثنان منهم المتوفى بجوارى ووضعاه على نقالة، تهاويت فرقه حابسا أنفاسي، فاضطرا إلى حملي معه، ظنا منهم أنني في قبضة عزرائيل، وتوجهاني على هذا النحو إلى المقبرة، وأذناي تطنان بأزيز طلقات نارية وبصياح الإمام: الثبات الثبات على الموقف يا عباد الله!...

كان الوقت فجرا. اكتفى الحراس بتصنيف الجثث على مقربة من خندق وسبع غميق، وذهبوا في مهمة ما أو لاستكمال نومهم. آنئذ، متلحفا ببقايا سدول الظلام، زحفت كتمساح جريح بعيدا عن الخندق المعد للدفن الجماعي الأعمى، حتى إذا لحقتُ بكدية معشوشبة تنفسُ الصعداء واسترحت، خائفا سعالِي براحتي، مفرغا مئائتي من بولها الذي كددت في حبسه وأنا فوق العجوز الميت.

الشمس البازغة الصاعدة لا ترحم المختفي في هذي الصحراء العارية الجرداء، ولو تكوم وتضاءل، بل تكشفه، تفضحه، تنعته لأي حارس متجول أو رقيب من برج عال. من زاوية انبطاحي، قريبا من عيني، أبصرت حذاء جندي. رفعت رأسي نحو صاحبه فتلقيت تهديده وأمره بالنهوض. تبين له أنني عاجز عن طاعته. سألتني إن كنت في حالة فرار، أجبت لا، وعن رقمي السجني فعددته مهتاجا ثم على مهل. حملني فرحا على كتفه، كما لو أنني فريسة صيد، وسار بي وهو يصيح بالقول:

البحث عنك على قدم وساق... أنت غنيمتي هذا الصباح...  
ادع الله لي أن تكون في سلم الأجور سبب ترقيتي.

حكيت لرافدي قصة ضياعي في عنبرية المعتوهين ثم في  
مرأب المتمرنين ليوم الحشر، لكنه كان منصرفا عني تماما إلى  
ترديد كلماته ومطالبتي بالدعاء له. وقبل أن يلقي بي في زنزانتني  
ويقفل دوني بابها، حدثت عني في الطريق إليها جنودا وحراسا  
يفوقون العدد الشرعي، وأشهدهم على أنه السباق إلى اكتشاف  
جحري وإلقاء القبض عليّ.

## بين جدراني، فيروز النصرانية!

كم ساعاتٍ طوالٍ أو ربما أيامٍ استغرقها نومي المتصل،  
المتخلل بيقظات فجائية خاطفة، أذكر وطأة هلوساتها المروعة  
دون مادتها؟

حين أخذت أحك عيني، هالني أن أبصرت، والوقت ضحي،  
عينة جردان وفئران مجتمعة على استهلاك ما تراكم من صحون  
الطعام أثناء سباتي؛ وهالني أكثر أن لاحظت رأس امرأة يبرز من  
تحت ملاءة على اللحاف أمامي. حاولت الوقوف فلم أستطع.  
هششت مهددا على الجردان وأخواتها الصغار فعادت من  
حيث خرجت. حبوت نحو حفرة المرحاض، غطيتها بحجرها،  
ثم نحو بابي فاستعنت بقضبانها على النهوض، وطفقت أصرخ  
ملء فمي، منبها إلى وجود امرأة في زنزاتي على غير سنة الله  
ورسوله. لم أحصد من ضجتي سوى ارتداد صوتي إليّ منهكا  
ضعيفا، أعقبه تعليق أقرب سجين خلف بابه: يا حمار! أنتك



أنسى إلى فراشك وترفضها! رجل أنت أم خشي؟ انكح القعبة  
بالمجان، يا بختك! وإلا فوّتها لي أمخضها نيكاً كما لم أمخض  
امراً من قبل. كبتى وصل سيله الزبى! فوّتها لي مقابل حشيش  
معتبر وللحارس حفنة بقشيش... إيش تقول؟

لم أعبأ بهذر جاري. أرحت أنفاسي وحبال صوتي قليلاً،  
ثم عاودت صياحي مجدداً، لم أجن منه هذي الكرة غير إيقاظ  
الرفيقة الدخيلة، التي انبرت تتهمني بالعمالة والتجسس عليها في  
زنازتها ونومها. أنكرت ملكيتها للمحل، بدليل مطابقة رقمه ١١٢  
لرقمي، وأنفقت بعض البلاغة في الهجوم المضاد عليها واتهامها  
بالمخبرة المخترقة، مُهمّتها إغرائي بالزنى مقابل الحصول على  
معلومات، عجزت الغولة بالتعذيب استخلاصها مني.

تصورت أن المحقق لربما يشاهدني الآن مع المرأة عبر  
كاميرا خفية، ويضحك ملء شذقيه علينا ويتفكه، فقفزت نحو  
لحافي واعتصمت به متكوماً، لازقا بحائطي الخلفي، جاعلاً  
في ذهني وجوارحي بين الدخيلة وبين حجاب الله وما قدرت  
عليه من حواجز ومحاذير. لكن المرأة ما إن رأته هادئة،  
أتحاشى النظر إليها، حتى انتفضت واقفة وتجردت من لباسها  
السجني تماماً، وخاطبتني بلهجة العتب والتفريع:

- انظر... هذا جسمي أثخنوه كله بالأخاديد، كل طرف  
ومفصل فيه إلا وأنهكته الغولة وغيرها بالعصا المكهربة وشتى  
أدوات النهش والتجريح. هل بعد ما رأيت تصر على اتهامي  
بالتجسس والعمالة؟

أجبت مستحييا، محدقا في بعض ندوبها وقروحها:

- أنت التي، سيدتي، باتهامي بدأت الشر...

ارتدت لبسها وجلست متنهدة، مقرة:

- صح! سلوكك التوجس والحذر يسري كالسرطان حتى بين من عرفوا إقامات في الكاشو، وذاقوا العذاب المهيّن الأمر... العتاة الخنازير نجحوا في خلط الأوراق والأدوار، وحولوا إخوة أشقاء إلى أعداء... دمرهم الله وجعل كيدهم يرتد إلى نحورهم.

تبدت لي الرفيقة الجديدة من كلامها مكلومة حصيفة. أضافت:

- إيه! مطابقة رقمك لرقم الزنانة ليس حجة... اكتظاظ المجتمع بالسجناء لا يسمح لأيّ منهم بالركون إلى محل خاص. مرات عديدة وضعوني في زنازن للنساء وفي أخرى للرجال. مرات عديدة تناوب بعض هؤلاء على استباحة جسمي وهتك عرضي... لا تفزع مني. لن أغويك ولن أغتصبك كما تفعل سجينات مأجورات. قد أكون مثلهن مصابة بالسيفيليس أو السيدا، لكن وحق مولاي الذي أخافه، لن أنقل دائي المفترض إلى أحد، ولو كان عدوي أو من الخونة...

سكتت المرأة فجأة وأغمضت عينيها، كأنها تغالب انفعالها بحبس دموعها. آنئذ تسنى لي تملي وجهها ذي الملامح المليحة

القاسية. عمرها يناهز الأربعين ونيف، جسمها الضامر أضعفه  
العسف والتجوع؛ شعرها مخضب ببياض نوراني يضفي على  
هيئتها وكلامها مسحة رزانة ووقار.

سألتها متحنتا:

- ما بك يا أمة الله؟ من أنت وماذا أتى بك إلى هذا المجتمع  
الرهيب؟

مسحت عينيها مبتسمة. غمرتني بنظرات تنم عن حزن دفين.  
انتقلت قريبا مني، استلت من جيبها قفازا أبيض غلفت يدي به  
وقالت:

- حكّ ظهري للتخفيف عني، فيما أنا أحكي لك نتفة من  
حياتي. اسمي الميداني فيروز، شرفني به الرفاق ظنا منهم أنني  
أحسن تقليد مطربتنا اللبنانية المحبوبة... ما بي، يا عبد الله، عين  
ما بك، مع اختلاف في الأعراض والظروف. كلانا يُسلط عليه  
الظلم والظلام، يُقهَر ويُسحق حتى يدخل بيت الطاعة، خديم  
أعتاب الجبايرة الطغاة، مأمور تصاميمهم الفاشيستية وغاياتهم  
الشريرة. لأسباب لا أعلمها نقلوني من سجن أبو غريب إلى  
هنا، ولا سؤال لهم إلا أن أكشف عن أسماء وعناوين قوميين  
وشيعة وشيوعيين مقاومين أنتمي إلى تنظيمهم، ووشى ببعضهم  
زوجي الخائن، فأطلقت عليه رصاصة في الرأس أردته قتيلا...  
منذ سنتين وصناديد الجلادين الأمركان يرهقوني بالاستنطاق  
والتعذيب، لكن صبري الأيوبي هزمهم، لأنني اخترت الشهادة

حاملةً صليبي ولقاء ربّي متى شاء وكتب. فهل عني النهرُ غيرَ ما  
عناه لَمّا فجرتُ عينُهُ فورَتُهُ واجتذب البحرُ مجراه!  
فهمت أن المرأة أُمامي مقاومة عراقية نصرانية، خاطبتها  
بلهجة الإكبار والتنويه:

- حيّاك الله، يا مولاتي، وبياك، وجعلك مع الولايات  
الصالحات والمناضلات الأبيات، اللائي لهن في الدنيا الذكر  
الحسن وفي الآخرة نعيم الجنات... أشرت، سيدتي، أنك  
نُقلت من سجن أبو غريب إلى هنا... أين نحن هنا؟

- لا أدري بالضبط (أجابت)، لكن الغالب على ظني أننا  
في مكان ما من صحراء بالقرن الإفريقي أو متاخمة له، والله  
أعلم... أنا الآن متعبة، أريد النوم. غدا إن شاء ربنا وبقيتُ على  
قيد الحياة، أحكي لك المزيد عني وأسمع منك حكايتك...

لم تتمّ جملتها الأخيرة، إذ اقتحم أربعة حراس الزنزانة،  
انتزعوا السجينة من لحافي واقتادوها بفضاظة وعنف إلى  
الخارج، غير آبهين بمعارضتي واحتجاجي، مكتفين بسبي  
واتهامي بالزنى وتهديدهم بالرجوع إليّ. جهرت نحوها  
بالقول: اسمي حمودة الوجدي، يا فيروز. اصبري وصابري،  
الله معك!... وردّت عليّ وهي ترفع شارة النصر: إذا لم يكن  
الله مع أمثالنا، فمع من يكون؟! مع من يكون؟!

من عتبة بابي وعلى طول دهليز الزنازن، تناهى إلى سمعي  
صوتها الفيروزي منشدا، تصحبه أصوات سجناء وتصفيقاتهم:

وَأَنَا كُلِّي إِيمَان	الغضبُ الساطعُ آتٍ
سَأْمُرُّ عَلَى الْأَحْزَانِ	الغضبُ الساطعُ آتٍ
بِجِيَادِ الرَّهْبَةِ آتٍ...	مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ آتٍ

ساد الصمت دفعةً واحدة. تمددت على جنبي مردداً نشيد فيروز ذات السؤدد والعزة، وعند النطق بكلمات «الغضبُ الساطعُ آتٍ»، كم أشبعت مخدتي لكما، كم بكيت! سعالِي العائد بقوة وحده أخرسني، فداريته بتسليط مرذاذي على فمي الفاجر تماماً، سيما وأن أصوات بعض الجيران تنافست في حثي على طلب الانتقال إلى عنبر المسلولين وسطحهم. وبقدرة قادر هدأتُ وخنقتُ آخر كحاتي، منصرفاً كلياً إلى التفكير في ما يحل بفيزوز الآن من سوء وأذى، وكذلك في حالي وقد أتعبتُ الجلادين ببسالة صبري على مكارههم وجرائمهم، حتى لكأنني أصبحت في عرفهم فرداً ميؤوساً منه، لا نفع فيه ولاخير.

متدثراً بإزارِي الشفيف قيدت بعضاً من تلك الخواطر على وريقاتي وأضفت إليها ما يلي:

لست أيوب ولا هرقل ولا عنترة بن شداد، وحتى أمثال هؤلاء من الأحياء، لو قيض لهم أن يقعوا بين أيدي غيلان هذا المجتمع وطغاته، الذي أنا حل به منذ بضعة أعوام خلت، لكانت مصائبهم صنو مصائبي في الشدة والهول. منكوب الجسم أنا، منكوب النفس، لكنني لم أهزم بعد، وفي اعتقادي أنني لن أهزم إلا بالضربة

الماحقة القاتلة التي تتردد قيادة المجمع العليا في الأمر بكيّلها لي، طمعا في انهياره وإعلاني الخضوع والتوبة. غير أنني وقد استرخصت بقائي على قيد حياة أشبه بالموت بل أخطّ وأفنى، فلا قيمة لي ولا معنى إلا في أن أكون حصاة في آلتهم وشوكة في أقدامهم. فاللهم أفضل مسعاهم إلى استعبادي وكسر كرامتي، وقي عقلي من كل مكروه وزيف عن طوره، وإن تحامقُ أحيانا مضطرا متحايلا، فلحاجة في صدري أريد قضاءها.

محتي السجنية علمتني ما لم أكن أعلمه، وكشفت لي في نفسي عن نوايض ومقدراتٍ ما كنتُ أعياها أو حتى أفترض من قبل حيازتها. في سالف أيام حريتي المغلوطة، كان يصح عليّ كلام كاتب يغيب عني الآن اسمه، يقول تقريبا: كم أمطار ورياح عرضت لها جسمي، باحثا فيها عن نفحات القدس وانسراح البال، فلم أصب في نسيجها وعتوها إلا بزكام حاد، وسعالٍ رئوي من مايات شتى وأوزان!

أما اليوم... لم أتمّ جملي حتى داهم ربّعي متزعو فيروز الأربعة. طمرتُ وريقاتي تحت لحافي وكشفت عن وجهي. أمرني حارس بالوقوف ناعتا إياي بالزاني؛ وأوضح آخر: الزانية اللي أخذناها من تحتك جلدناها مئة جلدة، وفي ذمتك أنت مئة مثلها، نوافيك بها عما قريب.

أعلنت صائحا بطلان زعمهم لانتفاء الشهود، فنهروني ثالثهم مدعيا أنهم هم الشهود الأربعة، تجلّ شهادتهم في

الشرع وتكفي، وأمرني بجمع أطرافي ومرافقتهم. مددت أمام أعينهم قدميَّ الجريحين المتورمين، لاعنا شهود الزور والبهتان، ذاكرا وعيد الله فيهم، ثم خيرتهم بين أن يحملوني على أكتافهم أو يمدوني بعكازين، وحشتهم على مطالبتني بحل وسط يضمن السلامة للجميع ولو إلى حين، قالوا: ما هو؟ قلت: أن تخلوا مكاني وتتركوني وحالي... تناظروا قليلا ثم انسحبوا - واعجباه! - منكسين رؤوسهم صامتين.

اتهامي بالزنى وتهديدي بالمئة جلدة ثم انصياع الحراس المذهل لمطلبي الأخير: كل هذا، ولا ريب من حظيات لقمان وألأعيه الماكرة الخبيثة، وهو القاضي المحقق، لا أراني الله وجهه وظله. ولا غرو أن يرسل إليَّ بأخرى متأرجحة بين الوعد والترغيب والوعيد والترهيب، فلن يجدني، بحول الله وقوته، إلا وفيا للعهد، ثابتا على الموقف كالطود.

انصرف فكري إلى فيروز. تألمت لاستفحال الأخاديد القديمة على ظهرها بفعل المئة جلدة الجديدة؛ تذكرت قولها الشائق لي: هل عنى النهرُ غيرَ ما عناه لما فجّرت عينُهُ فورته واجتذب البحرُ مجراه؟! قول حقيق بالتأمل والتأويل، أمل أن أجالسه وأوفيه حقه باستجلاء أبعاده ومعانيه العلية، إذا ما فرّج الله كربتي وتخلصتُ من هذا المجمع الصادم الرهيب... أما علييات بنت بلدي نعيمة فإنني ما زلت أنظر في فك شفرتها وفهم لغزها ودلالاتها.

خبط خابط على بابي أما باستلام وجبتي، أجبته ما أنا بقائم  
ولا بأكل حتى يأتوني بعكازين ويداؤوا قدمي. فتح الحارس  
الباب. وضع صحنًا حذائي ثم انسحب وهو يهتف: ما على  
الرسول إلا البلاغ.

غطيت الصحن بفوطة حتى لا تشم رائحته حشرات جواله أو  
جرذان وفئران متربصة. ظللت في هيتي منظرًا على ظهري،  
أرملق قطيعة سماء من كوتي، أقيس الوقت بتغير لونها، وأترقب  
ما سيجد في أمر مطلبي وإضرابي عن الطعام.

من الزنازن المجاورة، كانت تنبعث أصوات شتى، هذا يتلو  
آيات من الذكر الحكيم، وذاك يدعو جيرانه إلى سماع قصصه  
بصفته حكاوتي المهجع بلا منازع، وآخر ينادي بالإنصات إلى  
نكته الجنسية من صنع مراكشي خالص. وبعد اشتداد جو الهرج  
والضوضاء، علا صوت خشن قوي كأنه صادر من بوق، قال:  
الصمت الصمت في ما تبقى من اليوم. وإن غدا لناظره قريب.  
النظام النظام بديمقراطية التناوب على الكلام. وكل متتهك أو  
مشوش لا عطف عليه ولا سلام...

كانت هذي الكلمات إعلانًا عن تخيير سكون مطبق على  
زنازن الدهليز كلها. ظللت أنتظر عاصفة تعقبه، فما حصل شيء  
منها ولا نزر. وبعد تكاثف السكون وتواتره، مصحوبًا بلسعات  
برد قارس تنذر بشتاء زمهريري عديم الأمطار، تكومت تحت  
بطانيتي وأسلمت مقاليد قلقي وخوفي إلى نوم زاحف كسيح  
من تدبير أورفيوس أو جذاب منوم آخر...



## أمام لجنة تسوية لبنان

عند استيقاظي كانت ذاكرتي ما زالت رطبة بنتف رؤيا  
منامية، تبدى لي فيها ابن خالتي الحسين وهو يستغفرني في ما  
حصل لي بسببه، ويتعلل بكونه لم يطلعني أبداً على كفاحه حتى  
يعدني عن كل شبهة أو متاهة قد لا تحمد عقباها. ولكن صدق  
نيته وقصده حيالي عاكسه عمى الطواغيت ورياحهم الهوج.  
ودعا على هؤلاء بأدعية ما سمعت أبلغ منها ولا أحد؛ ثم  
نصحني بالصبر على مساءاتهم كيما تكون كلمة الله هي العليا،  
وغاب رفقة رجال مسلحين بين أدغال جبلية شائكة منيعة.

جوابي إليه فهت به يقظاً وبادرت إلى تدوينه: لا ذنب لك،  
يا الحسين، في محني ولا جناح عليك. أما الصبر فقد صار  
معدني الثمين والمصابرة أمست عندي جبلة. فاطمئن عليّ  
واعتن بأحوالك ورجالك واهتمّ. وفقك الله إلى ما يُرضي الله.

هل تزجية لوقت ومدارةً لأمعائي المتضورة جوعاً غفوت  
أو ربما نمت بعد إخفاء وريقتي المحبرة؟

يقظتي المفجوعة كانت بفعل ارتجاج أرجاء الدهليز كلها  
تحت خبطات أحذية طابور من الخبراء في تفتيش الزنازن  
ما ظهر منها وما بطن، ومعظمهم من الأجانب. وحين داهم  
فريق منهم مربعي، أمرني كبيرهم بمواجهة الحائط واقفاً،  
رافعا يدي. مددت لهم قدمي ففهموا أنني مقعد. أراحوني عن  
لحافي، ومرّر أحدهم آلة إلكترونية على كل أطراف جسمي،  
انتزع من جيوبي محتوياتها، فحصها بعناية، أعاد إليّ مرذاذي  
واحتفظ بعلييات نعيمة، ثم أخضع كل الأشياء حولي لبحث  
يدوي وبالألة نفسها. سألني أحدهم بعريية لكناء، وهو يريني  
بين يديه عليياتي ومرآتي ووريقتي والمجلات المهملة عندي:  
ما عدا هذي، هناك حشيش تخفيه، شفرة، موسى، بقشيش؟  
أو مأت بالنفي؟ ثم، بعد أن ذهبوا، حبوت نحو لحافي المفروث  
وتهاككت عليه، مفكراً في سحب وريقتي مني وما قد ينجم  
عنه من عواقب سيئة ومضاعفات مشؤومة.

غيتي المتصلة عن مطعم المجمع وساحته وملعبه لربما  
أقنعت القيمين أنني مهدد بالشلل وجادٌ في إضرابي عن الطعام.  
لذا لم تمض بضع ساعات على رحيل طابور المفتشين حتى  
أقبل عليّ ممرضان وحملاني على نقالة إلى المشفى. هنا أخذ  
واحد يعالج قدمي ويضمدهما، وشرع الآخر في إخضاعني

للتغذية القسرية عبر أنبوب بلاستيكي حشاه في خيشومي حتى  
معدتي. عمليتان متوازيتان لم يكن لي بد من تحمل أوجاعهما  
المتنوعة، مع أنني صرفت تفكيري إلى نعيمة وصديقتها  
الطبيبة العجمية، اللتين أثرت، من باب التحوط والحذر، عدم  
الاستخبار عنهما.

حينما فرغ الممرضان من عملهما، أوقفاني على عكازين  
جديدين وسلماني إلى حارس حليق الرأس بدين، اقتادني،  
وهو ينظر في ساعته، إلى قاعة سفلية في بناية المشفى  
نفسها، حيث أوقفني حذاء طاولة صغيرة قبالة منصة ضخمة.  
أقبل رجلان وامرأة من باب خلفي وجلسوا على أرائكهم  
متهامين، ثم لحقت بهم الغولة واضعة على أذنيها سماعة  
ونعيمة - نعم نعيمة! - متأبطة ملفا، فجلستا على طرفي  
المنضدة. الذين لم أتعرف عليهم افترضت أنهم مناطون  
في المجمع بمهمة خاصة. أنبأني الحارس في أذني أنني في  
حضرة لجنة تسوية لبنان، أجلسني وانتصب مستنفرا وراء  
ظهري، ملامسا قفائي.

كانت المرأة هي السبابة إلى أخذ الكلمة بتلاوة نص يعرف  
بي، وبعده سألتني إن كنت أقر بما ورد فيه. أو مأت بالإثبات.  
صفعني الحارس على قفائي وأمرني أن أقف وأقول: نعم  
سيدتي الرئيسة، ففعلت. طالبتني بالبقاء واقفا ولزوم دقيقة  
صمت ترحما على عزيزة ماتت، فلييت. وبعيد انصرام الدقيقة

رجوتها أن تكشف عن هوية العزيزة المتوفاة، أجابت بحدة  
وغلظة: أمك. أخبرنا بموتها من نثق به...

هويت على مقعدي حزينا مفجوعا، ثم تماكنت نفسي  
وقويتها بكون نعي أمي في هذا الطرف وعلى هذا النحو إن  
هو إلا خبر زائف مكذوب، هدفه النيل من معنويتي وكسر  
صمودي. تابعت المرأة كلامها:

- نحن أعضاء لجنة تسوية البنان الموقرة، اطلعنا على التقارير  
المتعلقة بك. استخلصنا منها ومن شهادة حضرة القاضي المحقق  
أنك شخص عنيد، قوي الشوكة والشكيمة، لك في امتصاص  
الصدمات قدرة معتبرة، ولك مثلها في هيتباراد الصبر على  
الآلام، تستحق عليهما ميدالية ذهبية. سعادة المحقق الموقر  
يصنفك في فئة المازوخيين، مستعذبي العذاب النازل بهم،  
وهي - هذه الفئة - عملة قوية بقدر ما هي نادرة. بناتك إذن يهم  
رؤساء مجمعنا، ويقبلون بل ييغون دمجك في سلك الخدمة.  
صحتك نعالجها، صك تهمك نسقطه، بما فيه موت جارك  
السجين صاحب الكيس وكذلك الزنى مع المدعوة فيروز؛  
عيوبك نتغاضى عنها، بما فيها شغفك بالأدبيات البورنوغرافية  
والإضراب عن الطعام وهلم جرا، وذلك كله لقاء قبولك التوقيع  
على عقد الخدمة... قلت إيه؟

بصعوبة متناهية، وقفت مبديا نقطة نظام بشارتها المعهودة،  
صحت قائلاً:

- سيدتي، إن كانت أُمِّي التحقت بالرفيق الأعلى، فإنني لن أصدق الخبر إلا بشهادة وفاة شرعية لا غبار عليها. أما معظم التهم الموجهة إليّ، فأنا أعلن براءتي من سالفها وأيضًا من محدثها، كأكذوبة الزني وبهتان شغفي بالنصوص الخليعة...

قاطعني أحد الرجلين سائلًا، وهو طرّماح نزق:

- وتسببك في موت جارك السجين، صاحب الكيس؟

- هذا الجار، سيدي، سمعت صوته ولم أره قط. والكيس وما فيه عذرة كله... خراء!

صفعني الحارس على أم رأسي صفقة سوتني بمقعدي، وهو يجلجل: حسن ألفاظك أمام اللجنة المحترمة، يا حمار!

تناوب الطرمّاح وزميله الدحداح على تطويقي بحزمة أسئلة، فقاطعتهما جالسا بنقطة نظام أخرى، قلت بصوت مسموع:

- أضربت من قبل عن الطعام، فأطعمتموني كرها بالأنبوب، والآن باسم شكيمتي وشوكتي أضرب عن الكلام إلى أن تبعدوا عني هذا الغوريلا اللازق بظهري.

ساد بعض الصمت في القاعة؛ أومأت المرأة إلى الحارس بالابتعاد، ففعل.

استأنفت الست استنطاقي بأسئلة قصيرة، فأخذت أوافيها بأجوبة على قدها. استفسرتني بلهجة لاذعة:

- العلييات البلاستيكية، ماذا عنها؟

متحاشيا النظر إلى نعيمة المنهمكة في تسويد تقريرها،  
قلت:

- كانت في سلة المهملات بالمستوصف...

- لأيّ غاية سرقتها؟

- التقطتها للعب بها وقت فراغي...

- ومرآتك المخبوءة؟

- لأعين فيها آثار التعذيب على جسمي وأحصيها.

تململ الطرماح وصاح بلهجة الكشف والإدانة:

- أو قل لاستعمالها للنحر أو للانتحار...

- ليس عليّ أن أقتل النفس التي حرّم الله ولا أن أقتل نفسي.

- لا علينا... لنأت الآن إلى نقطة مهمة. عثرت لجنة  
تفتيش بين أوراقك على مقالة لمجهول عن الصراع العربي -  
الإسرائيلي، سطرت على فقرات منها، هل تؤيدها؟

- المقالة في جريدة لا أدري من وضعها في زنزاني ضمن  
جرائد ومجلات، ولا شك ألفت من نظرة عليها. تلك الفقرات  
سطرت عليها لأنها في حكمي معتبرة وعين الصواب. إنما  
ذكروني ببعضها...

- ببعضها فقط نظرا لضيق الوقت: الفلسطينيون مخيرون

إسرائيليا بين الخضوع والانصياع وبين المنافي أو الاستشهاد.  
كيف لنا إذن أن نثق في مفاهيم الغرب عن العدالة الإنسانية  
ونقيسها بمعياري الضرورة والشمولية؟

تجردت للقول متحمسا:

- وما ردكم على السؤال الثاقب ذاك؟

- نحن الذين نسأل (صاح الطرماح)...

أضفت من دون أن أخاف في قول الحق لومة لائم:

نعم أذكر أيضا أن الكاتب، وهو عندي سليل الدوحة العلية،  
دوحة الأحرار العادلين، أضاف ما معناه: إني لا أرى أي تبرير  
معقول لعقاب العرب على الجرائم النازية، كما لا أرى أي  
شرعية لإقامة حركة توسعية في الأزمة الحاضرة على ذكريات  
توراتية...

قاطعني الدحداح متنطعا:

- إذن أنت تتبنى مجمل تلك المزاعم؟

- نعم، كما أتبنى خاتمة المقالة النيرة: إن صراع العرب ضد  
إسرائيل والقوى الداعمة لها لهو الوجه الآخر لصراعهم ضد  
عجزهم وتأخرهم...

- كاتبك لم يكن بعيدا عن معاداة السامية ونفي الهولوكست.

هل أنت أيضا تنفيه؟

- لم أقرأ شيئاً من هذا في المقال. والهولوكست إذا عنيتم به  
المحرقة التي أجرم النازيون بارتكابها في حق يهود أوروبا على  
دفعات صادمة وبالجمل، ها هي دولة إسرائيل قبيل إنشائها  
وطوال عقود وجودها تجترح في حق الفلسطينيين صنو تلك  
المحرقة، وإن بالحقن والتقييط، تكسر عظامهم، تغتصب  
أراضيهم تباعاً وتنسف مساكنهم وأحياءهم، تهين يومياً كرامتهم  
وتحشرونهم بالآلاف في معسكرات اعتقال، تدنس مقدساتهم  
وتهود مآثرهم وما لهم من شجر وحجر، ثم وامعتصماه!...

علا صوت الطرماح على صوتي معززا بضربات مطرقة  
على المنضدة:

- كفى لغطاً، كفى... لنأت الآن إلى النقطة الأهم: رسالتك  
إلى ابن خالتك المطلوب للقضاء...

قاطعت الرجل محتجاً:

- لم تكن رسالة بل بطاقة سجلت عليها نتفة من رؤيا منامية،  
تبدى لي فيها الحسين ابن خالتي...

- في أي مكان رأيته؟

- على جبل شامخ ذي مياه وأشجار، لا أدري موقعه على  
الأرض...

زمجر الدحداح مهدداً:

- وماذا قال لك؟



- مفاد كلامه أنه، من شدة محبته لي وعطفه عليّ، لم يطلعني أبداً على كفاحه، وذلك حتى يقيني من كل شبهة أو متاهة لا تحمد عقباه.

- كم عدد المسلحين الذين كان يقودهم؟

- لم أر غيره...

- هل تحلف أنك لم تلاحظ جماعة معه؟

- إنها مجرد رؤيا منامية، فعلام أحلف؟

- صح! (علقت المرأة). الآن تعود إلى زنزانتك. تُفكر جيداً في عرض دخولك سلك الخدمة، وتبلغ سعادة القاضي المحقق باختيارك الأخير... لا تحرق أوراقك كلها، حسن ما بقي لك منها تُلْ أوراقاً أخرى رابحة... رُفعت الجلسة.

ندت عني ضحكة مسموعة لم أستطع خنقها، قلت:

- أوراقك تقولين مولاتي! منذ جيء بي إلى مجمعكم لم تكن عندي أوراق حتى أحرقها... ولا واحدة... ولا بعضها...

ألقيت نظرات عجلى على نعيمة وهي تنسحب مع أعضاء تسوية البنان من باب خلفي. وقفت متكئاً على عكازي وتوجهت نحو حارسي المستنفر، المقطب الوجه. تلثم وسألني بصوت أجش إن كنت أريد مداواة قدمي، أو مأت بالإيجاب. أمرني: إذن عكّز خلفي...

في غرفة بالمستوصف فحصني طبيب عليه سمات الجراح  
وصدرية ملطخة بالدم، كأنما هو جزارات من مسلخ أو ما شابه.  
مقوسا حاجبيه حذرني من خلف قناعه الطبي أن قدمي اليسرى  
الكثيرة الثورم والتقيح آخذة في الغنغرة، وقد تحتاج بعد أيام  
إلى عملية بتر. رجوته أن يعالجها فوراً. قال حارسي اللازق  
بي: ليس قبل أن تفشي ما تخفي. أجبت: على ما صرحت به  
والله ليس لي زيادة...

أوقفني على عكازي وأمرني بالخروج معه. لبيت الأمر  
وسرت مقاوما دهنهتي ودواري بترجيج ظني أن توقع الطبيب  
قد يكون هو الآخر من إحدى مساومات المتشيطن الخبيث  
والأعيبه، القاضي المحقق، لا أراني الله وجهه.

لو كان بإمكانني التخلص من هذا الرقيب الثقيل الظل  
والخطو، لذهبت وحدي، متفقدا في المجمع أمكنة وأجنحة  
وفضاءات لم أرها قط، وبشرا لم أتعرف عليهم، ولو أنني أشتم  
وجودهم وعيشهم في ظروف لعلها أفضع وأقسى مما عرفت.  
لكن رقيب مأمور بملازمتي حتى يودعني في زنزاتي، مربع  
ضيق وقنوطي. سألته قبل أن يغلقها عليّ، عن سبب تلثمه  
فذكر واحدا لا ثاني له: حفظ أنفي من شم روائح السجناء  
الكريهة، وإذن رائحتك أنت.

كلاب، بل أولاد من لا دين لهم ولا خلاق!

يقترون في مد السجين بالماء، لا يتعدى نصيبه اليومي  
منه نصف سطل، يشرب منه ويتوضأ ويستنجي ويرش بعض  
أطرافه، ثم يعيرونه بتانة رائحته. نثانة كينونتهم وطباعهم  
المتأصلة لهي، والله، الأفدح والأدهى، لا تنفع في إزالتها  
مياه الدنيا ولا عطورها. خطر لي أن أقول كل هذا للملثم  
الغبي، لكنني أحجمت نظراً لعيائي ويأسي من كلام عديم النفع  
والجدوى.

جيراني، وقد تمددت على لحافي، كانوا على غير عاداتهم  
خالدين إلى النوم، لا يسمع إلا شخير بعضهم، وقد يكون  
المؤرقون منهم يدارون مثلي أوجاعهم وهواجسهم في صمت  
مطبق، أو بأناث بالغة الخفوت وعبرات خفية منهمرة.

## حال رجلي تسوء والدهليزيمور

في الصباح، وأنا أحتسي قهوتي وأقضم كسرات خبز، قفزت إلى ذاكرتي رؤيا منامية تبدت لي فيها أُمِّي حيّة تترق، بين جمع من النساء، ترسل الدموع السواجم، تتنهد وتشهق، شاكية إلى الله تكلها وحزنها، متضرعة إليه أن يتغمّد ابنها الأوحد بعطفه ورحمته. وحين تصبرها النسوة وتمنّينها برجوعي، تضرب على فخديها تارة وترفع كفيها إلى السماء تارة، وتئن قائلة: أعرف ولدي. يستحيل ينساني ولا يرسل إليّ وريقة، حتى لو كان في قاع القيعان. ابني طمرته الأرض أو أكله حوت البحر...

بل إنهم غيلان التجبر والظلم، يا أماء، يتفانون في نهشي والنيل من همتي وبأسي. لكنني ما زلت صامدا صابرا بعون الله ورضائك عليّ، أنا الذي أحسنتُ دائما إليك ولم أقل لك أبدا أفّ.

إعاقتي القسرية حدّت من حركتي داخل مربعي. بعض

حاجاتي المستعجلة بتّ أقضيها حبا. حتى الحراس صاروا  
يؤثرون إعفائي من مرافقتي إلى المطعم العمومي أو ساحات  
التريض والمشى؛ وشمل هذا الإعفاء القيام بغسل أواني  
المطبخ الرئيسي، وكنس ردهات وممرات، وتنظيف زنازن  
المرضى وذوي العاهات، ما عدا بالطبع زنزاتي.

انصرف همي كله إلى مراقبة حال رجلي اليسرى والنظر  
في شغل نفسي بما يخفف عنها وطأة القنوط والضيق. عندما  
جاءني حارس بوجبة سد الرمق، توسلت إليه أن يمكنني من  
قلم وأوراق. طلب المقابل. وعدته بأدعية صادقة له ولأحبته.  
أطلق ضحكة صاحبة في وجهي ثم عبس وسألني جادا:  
دعاؤك مستجاب؟ قلت إن كان بالخير وصادرا على لسان  
مؤمن ممتحن مثلي، فقد يستجيب الله له، هو الوهاب الكريم.  
ردّ عليّ بشيء من الانفعال: آتيك بما تطلب مع وجبة الغد أو  
بعده. لكن ليس قبل أن تكرمني بأول دعاء... لي مع زوجتي  
الأولى بنت عانس في الثلاثين، ادع لها أن تجد بعلا من أولاد  
الحلال؛ وزوجتي الثانية لا تلد لي سوى البنات! وهي اليوم  
حامل. ادع الله لي أن يخرج لي منها هذي المرة ولد ذكر...  
استجبت لطلبه بما قل ودل، فهرع إلى الخارج فرحا شاكرا.  
سجلت لحسابي أنني لأول مرة، أثناء إقامتي في هذا المجتمع  
الرهيب، أتبادل مع حارس كلاما ذا طابع إنساني، ولو أنني لا  
أضمن حسن مجراه وعاقبته.

في دهليز الزنازن المجاورة دبت حركة غير عادية. زحفتُ نحو بابي لإصاخة السمع واستراق النظر. استنتجت أن الحرس والرقباء منهمكون في ترحيل سجناء - مرضى أو أموات - وتعويضهم بآخرين يشي ضجيجهم ووطء أقدامهم بأنهم كثر، كُلفوا بكنس زنازتهم الجديدة وتنظيفها.

استبشرت خيرا بهذه الساكنة الوافدة التي قد يخلق اكتظاظها نشاطا دائبا من شأن حرارته أن تزيح عن القلب، ولو بمقدار، صداً الممل والوحدة الخائفة، ويحد شيئاً ما من اكتساح فصل شتاء شحيح المطر، شديد البرد القارس.

لم يخب ظني، إذ ما إن حل وقت العشي وأخذ السجناء الجدد قسطاً من الراحة حتى انبعث صوت جهوري قوي يدعو المقيمين إلى الدنو من أبوابهم. لبيتُ الدعوة معكزا، ومما تنهى إلى سمعي من كلام الرجل:

«عباد الله... حكم علينا الطواغيت بما يحرمه سبحانه وتعالى وكل الشرائع. أنا وبعض الإخوة من جيرانكم هنا قضينا سنتين ويزيد في البلوك ٧، يسميه سدننه الجحيم الأولمبي أو مختبر هيتباراد التعذيب، الذي في تقديرهم المعتل يدفع بقيس إلى التنكر لليلاء وبعثرة إلى التخلي عن عبلاه... من النزلاء من ماتوا مرضاً أو وضعوا حداً لحياتهم بعد أن جُتوا، عفا الله عنهم؛ ومنهم من على مرآى المنعوتين للترهيب، أعدموا في حقول الموتى المغمورين أو أجبروا على حفر

قبورهم بأيديهم. تغمدهم الله جميعا بواسع رحمته وأسكنهم فسيح جناته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

«عبد ربه مخاطبكم والإخوة الباقون على قيد الحياة وُضعنا في هذا الجناح - ربما إلى حين - بعد أن ضاق معذبونا بنا ذرعا، وآثروا أن نخلي المكان لمن هم في تصورهم أقل بأسا وصبرا في تحمل أهوال الجحيم الأنف الذكر...».

«شركاءنا في الأسر... نحن النزلاء الجدد لسنا من جنس ملائكي منزّه معصوم، ولا من أطيايف الرهبانية وتاركي الدنيا وأهاليها، بل نحن مثلكم، اخترنا سبل الحياة الحرة الكريمة، واسترخصنا أرواحنا دونها، نتألم ونشقى ولا نبغي عنها بديلا. خيارنا كخياركم، هو عندنا جميعا الميزان المضيء، ورهان الوجود الأبقى والفوز المبين، وحده وقت المحن والشدائد، يحولنا إلى جمرات تحت الرماد، يقوي صمودنا وصبرنا، ويقرب أعمالنا من آمالنا...».

«اللهم إني قد بلغت. فلنعدّ لعشرتنا أسباب اليسر والهناءة، ولوقتنا ما يليته ويفيدنا. قال تعالى في سورة يوسف: ﴿تَخُنْ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ يَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾؛ وجاء في درر عليّ كرم الله وجهه: إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فابتغوا لها طرائف الحكم...»

انصرم صوت الخطيب فجأة، وتبين لي السبب في مداهمة

طابور من الحرس للدهليز، آمرين السجناء بالصمت ولزوم أركانهم، ثم سُمع صوت كبيرهم يصدع باللعن والسب، التقطت منه: وعدتني يا داعية الفتنة الباطنية أن تثوب عن هرطقة التشيع، ونكثت وعدك. لم تترك لي من خيار سوى قطع لسانك. كمّمُوا فمه وخذوه إلى حيث ينال أمام الشهود جزاءه...

ما إن خلا الدهليز ومحيطه من طابور الحرس حتى عمّ المكان سكون مخيف، زاد في تعميقه زحف سدول الظلام وتلحف السجناء كل ببطانيته توقيًا من قرسات برد الليل الصقيعي، ومثلهم فعلت، سيما وأن حرماننا جميعًا من وجبة العشاء بات في حكم المؤكد، وذلك جراء إنصাতنا للداعية المغضوب عليه وعدم مجابته وإسكاته بكلمات الردع والتكفير.

رجلي المريضة أخذت تمعن في إيلام كل أعضاء جسمي، ولو أنني دثرتها بما استطعت، أضف إليها، يا خالقي، السهاد الممض وتزاحم الصور الرقطاء اللاسعة في ذهني، كل ذلك ولد لدي رغبة عارمة في إطلاق صرخات مدوية مستغيثة، لم يمنعني من تلييتها إلا خوفاً من إيقاظ جيرانني وإفساد النوم عليهم؛ لذا جعلت كفايتي في زفرات مكتومة لا تتعدى أذني، شبيهة بأنات مصاب بالإمساك المعوي، آيته الدفع بالتي هي أحسن.

ظللت على تلك الحال، لا يعلم بسوئها وضراوتها إلا الله،



حتى إذا حل الهزيع الثاني من الليل، تردد في أرجاء الجناح صباح  
سجين يطلب كُلابًا يقتلع به ضرسا يؤلمه. سمعت أصواتا تنهره  
وتسبه، وأخرى تنصحه بالصبر حتى يجيء حرس الصباح؛ هذا  
والمسكين يتضور وجعا، ويلهث بكلمات حرى مؤثرة، مفادها  
أن رئيس ممرضي المستوصف اشترط عليه لقاء علاجه أن  
يكشف عن أسماء وعناوين مافيا سلفية، يدعون انتماءه إليها  
وهو منها براء. وبقي يمعن في الصراخ ويسأل المحتجين عليه  
عما عساه يفعل. وبغته انقطع صوته تماما، كأنما أغميَ عليه أو  
جُر جر بعيدا مكمَّم الفم وربما سلب الأنفاس.

مصائب قوم عند قوم فوائد، قول المتنبي هذا يصح عليّ  
في مقامي الراهن. انشغالي بشكوى الأسير الضاجة الصارخة  
ألهاني عن ذاتي، وما قد يكون آل إليه من سوء العاقبة جعلني  
أحمد الله على كتمان أوجاعي، بالرغم من أنها، حسب تقديري  
وإحساسي، أفضع وأعتى من ألم سن ولو كان ضرسا. وبعد هذا  
الحمد وذاك الإلهاء، رفرَف على عينيّ نعاس قسري أشبه ما  
يكون بالغيوبة المخدرة.

## من حظيات المحقق تعييني مفتيا

يقظني هذا الصباح كانت فريدة من نوعها، غير مسبقة، أي على نغمات الطبل والغيطه، ترددت أصداؤها في جنبات الدهليز، مصحوبة بجلبة جيراني المتفضين المتسائلين. وكم دهشت وذهلت لما اقتحمت مكاني الجوقة المكونة من رجلين، يتقدمهما العملاق الأسود حاملا على رأسه صينيتين، وحطهما أمام عينيّ أنا الجالس بين عكازيّ ما إن توقف صاحباه عن صخبهما. أقدم أحدهما على غسل يديّ بمزهرية ثم وضع اليمنى على مصحف من القرآن الكريم داخل صينية طالبا مني أداء القسم. سأله علام. قال اليمين أولا وإظهار السبب ثانيا. قلت هذا لا يحل، وكررتها ثلاثا. اضطر الرجل الثاني لمواجهة صدودي إلى سحب رقعة من كفه وتسليمها إليّ، مدعيا بصوت رسميّ أجش أنها مرسوم إجازتي للإفتاء بتوقيع حضرة القاضي، لا ينازعني فيها أيّ داعية باطني بل ولا

أيُّ فقيه ظاهري. وأضاف أن الصينيتين وما فيهما من ملبس ومأكل ومشرب هبة من سعادته إلى المعين الجديد للإفتاء، وإشارة احتفاء بترقيتي وإسباغ النعمة عليّ...

منكسا رأسي وبالعاريقي من شدة استغرابي وامتعاضي لما يفيض به خيال القاضي المخبول المعتل، لزمّت الصمت قليلا لإعداد الرد الثاقب الفادح على العرض المفخخ المغرض؛ هذا فيما الجيران يتناقلون ساخطين لاعنين خبر أقربهم إليّ عما يدور في زنزاتي؛ وتعالّت أصواتهم حادة متصاعدة، هذا يتهمني بالجاسوسية والعمالة؛ وذاك يؤيد التهمة بكوني أحظى من المحقق بجلسات مطولة وبمعاملة تفضيلية مريبة، منها تمتيعي بزنازة سينغل وإهدائي صينيتين يعلم الله ما فيها من خيرات؛ وآخر يحتج عليّ ببذلة راقية ذات كرافت مواتية لاحظني مرة أرنديها، وأيضا بحذاء نايك رأيّ مرات أنتعله مزهوا. وهكذا اجتمعت حناجر الجميع والتفت على سب الخونة والمخبرين مثلي، وتوعدوني بأسوأ عقاب من الله وعباده...

استعنت بعكازيّ على الوقوف. نهبت زواري أن ترقّيتي تستحق جولة استعراضية أمام جيراني. قال حامل المصحف معترضا: ليس قبل أداء اليمين. أجبّت: الجولة أولا... تناظر الموسيقيان لحظة ثم تقدماني والعملاق خارج مربعي. على طول الدهليز، عكزت صائحا ملء حلقومي: حسبي الله ونعم الوكيل! يخذلني من أناصرهم! وكررتها ما استطعت، حتى إذا

انقطعت كلمات القذف والتشهير في حقي، أردفت وأنا أكشف  
عن رجلي المتورمة المتقيحة:

إخوتي في الأسر... هل تصح تهمتكم على من مثلي يعكّز  
للمشي، وله رجل موعودة للقطع؟ جلدونا يساوموني في  
علاجها مقابل أن أتعاون وأتجسس، وأنتم تسمونني بما أنا براء  
منه! أدعو الله لكم بالعفو والصفح، وأدعوه تعالى أن ينقذنا  
جميعا من هذه المحنة العسية التي سلطها علينا الطواغيت،  
وزرعوا لنا فيها عبوات النسف وأسباب التوجس والشقاق.  
اللهم استرنا برحمتك وغفرانك، وخفف عنا مشاق السعي  
إليك، وآزرنا واعضدنا ولا تكلنا إلى أنفسنا الواهنة المضطربة.  
اللهم شدد عقابك للذين ظلموا وطمعوا في الأرض، وأنجز فيهم  
وعيدك في الدنيا قبل الآخرة. آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله  
رب العالمين.

كان السجناء جميعهم واقفين وراء قضبانهم، لاصقين بها،  
يرددون مع كل دعاء آمين، مادين إلي أياديهم بالسلام وطلب  
المعذرة والسماحة، وأعينُ بعضهم تفيض من الدمع؛ هذا فيما  
العملاق يحول بيني وبين مرافقيه، وعلامات التأثير بل البكاء  
بادية على وجهه الضخم ومقلته المحمرتين.

حين شعرت بوجوب إيقاف التظاهرة، تجنبا لعواقب قد  
تكون وخيمة، قفلت معكرا إلى وكري، متبوعا بالرجال الثلاثة.  
أوقفني الغياط وذكرني متلعثما بأمر أداء القسم، فرددت عليه

بصوت مسموع وصل ولا شك إلى أقرب جبراني: لا قسم لي على وظيفة أرفضها ولا قبل لي بها؛ كما أمتنع عن قبول الصينيتين وما فيهما. أخبر بهذا سيدك، وأبلغه أن السجين ١١٢ يحتاج في موقفه بقول فطاحل الفقه وأئمة: من أفتى قبل أن يتعلم كمن تزبب قبل أن يتحصم...

رددت أصوات كثيرة هذي المقولة نقلا عني أو عن ملتقطيها من أقرب جبراني، هؤلاء بلهجة الإقرار والتمين، وأولئك بصيغة الاستفسار عن المناط والفحوى، وآخرون طالين معنى «تزبب» في لسان العرب. أعرضت عن أي كلام في هذي المسائل، فولجت مربعي، ملقيا على العملاق نظرة وذّ وامتنان، سيما وقد منع الطبال من أخذ الهدية ولازم الرجلين في طريق الانسحاب.

بعد مضي لحظات، استرددت فيها أنفاسي كما لربما فعل كل رفاق الأسر، ملت إلى الصينيتين، أبصرت على إحداهما بوقا لا شك أن المحقق أرادته لي أداة لتبليغ فتاواي. تناولته مجربا، قلت:

إخوة الدهليز والجناح كله! إبراء لذمتي أطلعكم على ما في الصينيتين: واحدة تحتوي مقبلات وفواكه شتى طازجة أو يابسة وقناني لبن وماء؛ وفي الأخرى نسخة من القرآن الكريم وتفسير الجلالين وسجادة وسبيحة وجبة وقلنسوة وطيلسان وألبسة داخلية ونعلان ومبخرة بقطع من العنبر والعود القماري

ومزهريّة وأخيراً ترانزستور؛ والهدية كلها هي الآن متاع لكم،  
توزعونه بينكم بالتراضي والأريحية...

تناهت إلى سمعي أصوات كثيرة تُملكني المتاع ذاك غنيمةً  
حلالاً مستحقّة، وانفرد صوت قوي الحجم والوقع بالثناء  
على رفضي القاطع لرتبة الإفتاء المعينة من طرف الإدارة،  
لكنه التمس مني باسم إخوة الأسر ألا أبخل عليهم بالإرشاد  
والموعظة الحسنة، مصداقاً لقول سلفنا الميامين: الدين  
النصيحة...

اغتنمت انقطاع الأصوات وعودة الهدوء إلى الدهليز بسبب  
تفقدات حرس سمعت أصداء خطاهم، فتمدّدت على ظهري  
أنشد الراحة وأرْمَقُ الغنيمة الحلال المستحقّة في صينية المأكّل  
والمشرب. وبينما أنا أجربّ أصغر ترانزستور رأيته وألتقط بثه  
المتقطع الضعيف بلغة متخشّشة عجماء، إذا بي ألحظ نبشاً  
في أسفل الجدار المحاذي للحافي، حسبته بدءاً لفأر يبحث عن  
منفذ، لكن سرعان ما برزت عبر الثقب جعبة من الورق المقوى  
وصلني منها صوت يعرف بنفسه وبالجعبة على أنها تيلفون  
التواصل بين نزلاء الزنازن. سألتني إن كنت على الموجهة، أجبت  
أي نعم. وما إن اطمأن على جودة الخط حتى قال إن له حزمة  
أسئلة من وضع سجناء كُثُر، جمّعها وانتقى أحسنها وأذكّاها،  
ومفاد بعضها في جواز ذكر اسم الله، سبحانه وتعالى، في هذا  
السجن الملوّث بالكبائر والمنكرات، وبالتنات من كل صنف

ونوع. ردّدت وفمي على مدار الجعبة: يجوز بل يجب ذكر الله كثيرا لتقوية النفس على الجلد والصبر في محنة العذاب والمساءات، كما كان حال المسلمين الأول، أيام الجاهلية وانتشار الخمر والميسر والأصنام والأزلام وظلام الوثنية ووأد البنات...

ثم بلهجة متحرجة، أضاف الصوت أسئلة سوّغها بمقولة لا حياء في الدين، ومجملها يتعلق بسجناء يعانون من الإسهال والإمساك والبواسير، وآخرين من كثرة الاحتلام في النوم واليقظة، وبعض هؤلاء، والعياذ بالله، تصيبهم الغلظة ويحصل لهم القذف المنوي ما إن تقع عيونهم على سجينة أو حارسة أو راقنة. أما فئة أخرى، وهي من وجّه مجانسة لهذه الأخيرة، فأصحابها يسألون عن حكم الشرع في اضطرارهم إلى الاستمنااء للتخفيف عن أنفسهم من شدة الكبت والحرمان... ومشكلة المشاكل لكل هؤلاء وغيرهم تكمن في ندرة الماء وشحه، مما يعيق حاجتهم إلى التطهر وإزالة الجنابة، ويعطل وضوءهم وصلاتهم.

بثت أجوبتي لماما في أذن من أضحي بمثابة مسمّع الجماعة، فسرّدت ما تيسر من آيات رفع الحرج والعسر وأخرى في الرفق واليسر، وذكّرت بوجوب الاستتار عند الابتلاء، وبأن الضرورات، في حالات قضية قاسية، تبيح المحظورات، ثم أوصيت بالتيمم وأداء صلاة الخوف وصلاة المريض والأسير،

كما نهيتُ المرضى والمعتلين عن الصيام في رمضان وسائر الأيام، حتى لا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة...

«ما على الرسول إلا البلاغ. كلامك أوصله كله بحول الله إلى طالبيه. أسمعُ خطوات الحرس. غطَّ الثقب بترابه، وإن لاحظوه يوماً، لا قُدْرَ لك، فحملَ مسؤولية حفره إلى الفئران والجرذان فتعذر وتسلَّم».

كان هذا آخر ما نطق به المسمع قبل أن يسحب جعبته على عجل. نفذت وصيته بخصوص الثقب، وبقيت على هيئتي أراقب ما حولي وأستم. أطلَّ عليّ موزع الوجبات بنظرة تومئ بشيء واحد لا ثانيَ له: لك في الهدية ما يغنيك عن وجبات أيام وأيام... يا بختك!

صينية المأكَل والمشرب أحبَّ العملاق الأسود، جزاء الله خيراً، أن تكون من نصيبي وحدي، ولو أعرضت عنها فستكون، لا ريب، من نصيب الحيوانات اللبونة والحشرات النقابة. استبعدت احتواء موادها على سمّ قاتل لكون مرسلها ما زال يريدني حيّاً لتسخيري في مآربه الشيطانية كالتعاون والتجسس والإفتاء، وهلم جرا. تغذيت برغيف وتمر ولبن، صببت على وجهي بعض الماء وأديت متمددا ما قدرت عليه من صلوات، مروضاً نفسي على نيل قسط من السلوان وراحة البال، فإن لها عليّ حقاً لا بد لي منه.

أثناء استرخائي، تذكرت الحارس الذي وعدني بقلم وأوراق



ودعوت له بدعاء طلبه مني. استغربت لغيبته وتأسفت، متمنيا أن يكون السبب خيرا. وفيما جريت وراء أفكار مبهمة وتوهمات، انغمستُ في نعاس قسري ملتبس، امتد بي إلى جوف الليل حيث انكسر بفعل رجات في الدهليز، أثارها صوت سجين يستصرخ ضماثر المرضى ومن في قلبه ذرة رحمة لتخليصه من آلام بواسير حادة تحرمه من التغوط والنوم.

هتفت أصوات برقم زنراتي طالبة مني إسكات المريض بفتوى أو نصيحة. أجبت بالبوق أنني جاهل بالطب والصيدلة، لكنني، عوض ذلك، ذكرت له لماما حكاية صوفي من فرسان الحياء والفلاح، نال حصته من البواسير إلى حد الاستفحال والوجع الأعظم، فكان يصبر عليها حتى لا يسمع بها أحد ولا ينظر إلى عورته أيُّ كان. ويروي بعض مريديه المقربين أنه كان، قبل أن يتوفى بمرض آخر، يجاري قصص الأمم والأقوام الذين هلكوا من قبل، كعاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد، ويجعل منها مروحة، وذلك كلما بلغ به الألم مبلغ التضرع والانهاك...

تنافست أصوات في تبليغ خبري، وسماء بعضهم نصيحتي الضمنية، فأوعزوا للمريض باتباعها كي يستريح من أوجاعه ويريح الآخرين من ضجيجيه. وفعلا، ما هي إلا دقائق حتى خيم على الدهليز - واعجباه! - صمت مطبق مكنّ النزلاء من استئناف نومهم، مفكرين على الأرجح أن ما حدث كرامة من كراماتي، وليس الأمر من زاويتي كذلك. ظللت على وضعي

يقظا أشيع عقابيل الظلام إلى مثواها السحيق وأترقب أول  
الأنوار.

مع مطلع الصباح دخل عليّ الحارس الذي طالما انتظرته.  
حط أمامي صحن الفطور ثم انحنى عليّ مقبلاً رأسي شاكراً.  
سألته ما الخبر، قال طرباً بصوت عالٍ رجوته أن يخفضه:

- أنت والله وليّ صالح ودعاؤك مستجاب. بنتي العانس  
تزوجها ابن حلال، وامراتي ولدت لي ولدا ذكراً بعد أن لم  
أرزق منها إلا الإناث.

- هذا (علقت) من فضل الله وحده، لا شكر إلا له، هو  
الكريم الوهاب.

- هذا كيس أوراق وأقلام أعطيكه وفاء بوعدتي. ويكون لك  
مني أعظم منه لو أنعمت عليّ بدعاء آخر...  
قاطعته متحرّجا:

- هل هو دعاء خير؟

- كله خير لي... أن يدمر الله رئيسي بسكتة قلبية ماحقة حتى  
أتخلص من قهره وأرتقي مكانه.

- هذا دعاء وعر وعاقبته غامضة...

- أرجوك لا تحرمني منه... أبوس يدك...

- تلزمني معلومات كثيرة عنك وعن رئيسك وعن موقع  
المجمّع وهويات رؤوسه ومديره.

- ما أعلم مما تطلب نزر يسير. وهذا النزر لو أفشيتَه لطاح رأسي، يا وليَّ الله، قبل أن يُطيح دعاؤك برأس قاهري... عليَّ الآن بالذهاب قبل أن أثير حول علاقتنا الشبهات...

- اذهب وفكر ودعني أفكر، لكن هل لك أن تمد يد العون إلى مرضى هذا الدهليز؟

- سأخبر بحالهم وبحالك طيبة أثق بها وبعض الممرضين. أستودعك الله.

قبل الحارس جبهي وهرع مسرعا إلى الخارج، ولساني ينغل بالسؤال عن هوية الطيبة إن كانت تلك التي قابلتها من قبل في المستوصف وعاملتني بالحسنى... التفتُ إلى صحن الفطور، التهمتُ ما فيه قبل أن يتجمد، ثم إلى رجلي فرأيت تورمها يزداد، وزرقتها القاتمة تزحف من شدة احتقان الدم وتخثره في العروق. بادرت إلى لفها بطيلسان المفتي درءا عنها قساوة البرد الصباحي، ثم سحبت الألبسة الداخلية من الميدة فارتديتها بجهد جهيد، وتدثرتُ بجبة المفتي من تحت بطانيتي منتظرا ما قد يأتي.

الملل والثبوت، في عرف الجلادين، من صنوف التعذيب النفسي التي يسلطونها على الأسرى لكسر شوكتهم وحشر معنوياتهم في درجة الصفر وبين ثنايا انهدامهم، وذلك حتى تغزو رؤوسهم وأبدانهم حشائش الخنوع والانبطاح. لكني، ملتفتا إلى الوراء، أراني ذهبت بعيدا في رياضة التمتع والصبر

واكتساب النفس المثابر الطويل، فلا يحق لي بعد ما طويته  
من مسافات وعقبات أن أكل وأرضخ. رجلي مرشحة للبت،  
فليبتروها، وربوي قد يعاودني في أي وقت؛ لكن، وحق من  
خلق وكون، إما أبلغ خط النجاة والنصر، ولو بالزحف، وإما  
أهلك دونه وأسلم الروح إلى بارئها راضية مرضية.

سجلت خواطري تلك على ورقي الجديد، وأضفت إليها  
أخرى في ذم البغي والعبودية المذلة وتقريظ هواء الانعتاق  
والعيش الحر...

همسات من ثقب الجار عبر جعبته أوقفت نشاطي. بدأها  
برفع آيات الشكر والامتنان إليّ باسم نزلاء الدهليز وأصالة  
عن نفسه، وذلك لما قدمت إليهم البارحة من كلام حلو ونصح  
أحلى. وأبلغني طلبهم التبرك مني بأكل بعض التمر والزبيب  
من صينيّتي، كيما يحلوا به أفواههم ومعداتهم، فتكون لهم  
مني منافع الحلاوتين. لبست الطلب مطاوعا، إذ مررت مادته  
من الجعبة حتى لم يتبق لي منها إلا النزر اليسير. بعد لحظات  
تعالّت في الخارج أصوات تعدني بتمر الجنة وزبيها، وأخرى  
تدعو لي بكل خير لكوني تشفعت في نقل مرضى الدهليز إلى  
المشفى للعلاج، الصارخين منهم والمنطوين على أوجاعهم؛  
غير أن صوتا كأنه منبعث من بوق استعجلني في الرد على أسئلة  
وصفها بالشاقة، وصاغها تباعا: هل عند نفاذ الصبر وانحطام  
الجسم تحت التعذيب يحل الانتحار في شرع الله؟ وعلى ذكر

الله، هل هو مع المسحوقين أم مع الساحقين؟ هل للتفويج على النفوس التعب الضجرة يحل سماع النكت الخليعة؟

خيم صمت مفاجئ، كأنما القوم كلهم ينتظرون أجوتي. فكرت بعض الشيء، ثم عكزت نحو الباب قابضا على البوق، قلت صائحا:

قتل النفس، يا أخي، نهى شرع الله عنه بهذا الأمر ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ورحمته تعالى يستحقها المخلوق بالصبر على المحن والبلايا. أما أن يكون الله مع الظالمين فحاش حاش وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، هو الذي لا يظلم مثقال ذرة، والقاتل لنبيه نوح في قومه الجاحدين العصاة ﴿وَلَا تُخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [هود: ٣٧]. وأما النكت إجمالا فتندروا بها تزجية للوقت لا لقتله، وترويحاً للنفس بما يسرها ويفيدها. وإن كانت لحاك نكت ومستملحات خليعة، فليعلن عن طابعها هذا حتى يصم المستحيون المحتشمون آذانهم. ولولا ضيق المكان والظرف لأثريت أجوتي وفصلت...

لم أنه كلامي حتى هجم عليّ رقيب لم أره من قبل، انتزع مني البوق وأمرني أن أسكت وأتوقع. آثرت الاستجابة فعاد أدراجه مقطب الوجه مهددا. وأحسب أن زملاءه فرضوا الأمر نفسه على باقي النزلاء، فساد صمت لبعض الوقت مشوب نحنحات وكحات، ثم أعقبه من بعيد صوت مسموع مجودا

سورة يس، فتتبعته في مصحفى بعد أن طهرت يديّ بالمزهرية،  
حتى إذا أنهاها ظللت أقرأ ما شاء الله من السور الأخرى، متشبها  
بها كألواح نورانية تخلص النفس من أدرانها وتنقلها عاليا إلى  
ذرى التأمل والاعتبار.

## بين المشفى وإشراكي في عمل دفن جماعي

عندما فتحتُ عينيّ وانتبهت، لمحت الحارس العملاق ينحني عليّ مطمئنًا مشفقًا، يتناول المصحف الكريم من على صدري، يقبله ويضعه في صينية المبخرة والمزهريّة؛ ثم إنه قام بإشارات وإيماءات فهمتُ منها أنني مطالب بمرافقته إلى المشفى قصد تلقي العلاج. لم يكن في بريق نظراته ما يشي بغير ما عبّر عنه. أظهرتُ ابتهاجي بالأمر وترحيبي. أعانني على الوقوف، لكن حالة دهنّتي ودواري حدثت به إلى حملي على كتفه وتأبط عكازي. وهكذا عبر بي الدهليز متباطئًا فيما جبراني من شبائيكهم يهتفون باسمي وحياتي متحمسين: يعيش وليّ الله حمودة/ يعيش البطل حمودة/ يعيش يعيش يعيش! وبعضهم يدعون لي بقوة الصبر على ما ينتظرني مع الغولة في قبو التعذيب؛ وبعضهم يتوسلون إلى الله وأوليائه الصالحين أن يغلبوني على المحنة ويعيدوني حيا إلى جوارهم حتى أنفعهم بنصحي وأشرح لهم معنى «ترَبّ» في لسان العرب.

في غرفة العمليات بالمشفى وضعني حاملي على سرير عال متحرك، ثم انصرف مؤتمنا ممرضا على عكازي وملقيا علي نظرة لا أعطف منها ولا أحنّ. خلع الممرض كل لباسي، رماه في سلة، وأخذ يرش بالماء الدافئ أطرافي وينشفها ثم يعطرنى بماء كولونيا. وبعد ذاك قاس درجة حرارتي وضغطي الدموي، فحص بقلم ضوئي قعر عيني وفمي وجس مواضع حساسة في بدني، فما إن أتم عمله وسجل نتائجه في جذاذة حتى أقبل طبيب مقنّع، عليه سمات الأجنبي. اطلع على الجذاذة وهو يضع قفازين على يديه، وشرع يدقق النظر في رجلي المريضة ويفحصها بعناية فائقة، كأنه يتهاى لتقرير مصيرها إما بالبر وإما بالأدوية والمضادات الحيوية. وأخيرا همس للممرض بكلمات لم تصلني، وذهب من دون أن ينبس في اتجاهي بينت شفة.

حدجني الممرض بنظرة ملتبسة أولتها تأويلا متشائما، ثم وخزني بمحنة حسبتها لتخديري، وبعدها انهمك في تنظيف تورمات رجلي وتقيحاتها بأدواته المخصصة وبقطع القطن المغموسة في سوائل ذات رائحة كحولية قوية. خلافا لما توقعت بقيت على أتم اليقظة، مفكرا أن ما تحظى به رجلي من إسعافات دوائية مكثفة يبعدها، والله أعلم، عن خطر البتر ولو جزئيا. وتأكد لي هذا ما إن أخذ مسعفي يلفها بضمادات عديدة، وازداد اطمئناني حين ألبسني بذلة برتقالية اللون ونقلني إلى سرير في غرفة صغيرة مجاورة، حيث أنبأني أنني سأقيم فيها بعض الوقت تحت الحراسة الطبية حتى أشفى. أغدقت عليه شكراتي



الحارة ومزجتها بأسئلة عن اسمه وهوية أعضاء الطاقم الطبي  
لعلي أستدرجه لإخباري عن الطبيعة الأعجمية صديقة نعمة  
ومعاملي بالحسنى، لكنه نبهني بلهجة مشرقية أنني هنا للعلاج  
لا للكلام، ثم عيّن لي حبات أتناولها مع فواكه قبل النوم وغاب  
وراء الباب.

لا ريب أن من بين الحبات التي تناولت واحدة لها فضيلة  
تنويمية. يريدون لرجلي أن تبرأ بالأدوية ولذهني أن يستقيم  
بأقسط نعاسية وافرة مطردة. حاجتي إلى التبول أيقظتني في  
عزليل لا أدري لأي يوم هو. لم أجد أثراً للعكازي. اضطرت  
إلى القفز برجلي المعافاة باحثاً عن مرحاض. حال الظلام  
الدامس دون اهتدائي إليه في مربعي المقفل بابه عليّ. احترت  
بين أن أصيح بالنداء على ممرض ليليّ أو أن أفرغ مثانتي على  
حائط ما، أخذت بالحل الثاني مكرها وعدت إلى وضعي  
السابق، حيث قضيت وقتاً بين مرادة نوم متمنع وترقب انبلاج  
الصباح.

حين حل البياض محل السواد بين جداراني، أقبلت عليّ  
ممرضة سميّة سمراء في سن اليأس. سبّت من أشاع رائحة  
كريهة في الغرفة، وقاومتها باستنشاق قارورة استلتها من جيب  
صدريتها، ثم اعتلت كرسيا وفتحت نافذة لم ألحظها من قبل.  
غابت برهة ورجعت بفطور على مائدة متحركة وضعتها أمامي.  
استفهمتي إن كنت أنا من زوّج الجدران بالبول، ومن دون أن

تنتظرمني جوابا جرعتني دواءً سائلا ووخزتي بمحقنة، وفمها  
يأمرني بالأكل. سألتها قبل أن تسحب عن المرحاض فأشارت  
إلى ركن خلفي ذي ستار بلاستيكي.

وجبة الفطور، والحق يقال، أراها ذات مواد متنوعة، غنية  
بالبروتينات والفيتامينات. تعجبت وأنا أنأولها بشهية متفتحة:  
ما هذي الحفاوة السريرية وهذا السخاء الحاتمي! هل تكفيرا  
عما اجترحوه من سيئات وآثام في شأني، أم تدبيرا لحيلة  
يريدونني فيها حيّا معافى أو قد يتوجونها بغيلة؟ في الحالة  
التي أنا الآن عليها يحسن بي أن أترك الحبل على الجرار  
والأقدارَ تفعل ما تشاء؛ والصمودُ الصمودُ آتِي ورهاني حتى  
النصر أو النحر.

أتيتُ على ما في صحون الصينية وتميّت المزيد. نظرت  
إلى رجلي الملفوفة بالبياض، كأنني أستخبرها عن وضعها  
الصحي، فأومأتُ بشارات الميل إلى التحسن والأمل في  
الشفاء. وبعدها حولتُ نظري إلى النافذة الفوقية، بدت لي  
قضبائها نورانية من شدة انعكاس أشعة النهار وزرقة السماء  
عليها. بقيت هكذا أنقل بصري بين رجلي وقطعة الأعالي  
المزدانة أحيانا بأسراب الطيور المهاجرة، حتى إذا أقبل عليّ  
ممرض الأمس استقبلته محيا مبشورا، فرد التحية وبادر إلى  
تجديد ضمادات رجلي بعد أن نظفها بسوائله العبة ومساحيق  
صيدليته. ولما انتهى أمرني بالتمرّن على المشي. استوعرت

ذلك ورجوته أن يمكنني من عكازيّ توقيا لسقطة قد تضر بي. أتاني بواحد منهما وقال: امش... ذرعت مربعي الضيق خطوات متكئا على عكازي المفرد. استحسن الممرض مشي، أعادني إلى وضعي السريري، أوصاني بأخذ أقراص بعيد الغداء. وقبل أن ينسحب حدد لي موعد أوبتي إلى مستقري مساء هذا اليوم.

وجبة الغداء التي جاءتني بها المرأة السمينة السمراء كانت هي أيضا في مستوى ما تشتهيه النفس وتستسيغه. ذكرتني الممرضة بتناول أقراص ففعلت. حاولت مكالمتها بمنتهى اللياقة والحسنى، لكنها أبدت إشارة تفيد أن للحيطان آذانا. وخزنتني بمحقة ثم انصرفت ساحبة الصينية وما بقي فيها. وبعدها شعرت باسترخاء عارم، مبشرا بهجمة نعاسية على جفنيّ وحواسي. لكن الهجمة أخطأتني بسبب إقبال حارس مقنع عليّ مرددا: النزهة النزهة أولا! تذرعت بنقاھتي وسوء حالي عله يعفيني، فنهروني مهددا: لا تُكرّر إلّا الصلاة على النبي. رجوته أن يرجئ الأمر إلى موعد آخر، فلكم رجلي المتماثلة للشفاء مستعجلا نهوضي. غادرت سريري لاتقاء لكمة أخرى تكون أشد وأعتى. رافقته متوكئا على عكازي المفرد، قطعت معه أبهاء ودهاليز بين عابرين من شتى المراتب والأصناف، حتى إذا أخرجني من المبنى ألحقني بجمع من السجناء، فسرت معهم في موكب رهيب تحت حراسة مسلحين شداد ذوي نياشين وخوذات، وبعضهم يبدون من الأجانب. سألت أقرب أسير مني عن الخبر،

أجابني حذرا متلعثما: يذهبون بنا لنحفر قبورنا أو قبور أشقائنا... أخذتني الرجفة واصططكت أسناني المتبقية، فيما السعال يعاودني فأكتمه ما استطعت، ولولا أن السجين الذي كلمت أعارني مرذاذه لاستفحل حالي ودللتُ عليَّ الحرس أجمعين.

وصولا عند أرض بطحاء متربة، سلمونا قووسا ومغرفات، ووزعونا مثنى وثلاث، وأمرهم الصادع أن نحفر قبورا بعمق ثلاثة أذرع لا أكثر. لم يكن بدّ من تلبية الأمر. واضعاعكازي حيثما استطعت، أخذت أنبش الأرض وأحفر بحسب ما يسمح به حالي وعطبي. انتبه إليّ حارس فهددني بالرمي في قبر وردم التراب عليّ إن لم أعمل بتفانٍ وجدّ. كلفتُ نفسي فوق وسعها، يساعدنني من الحفارين هنا وهناك من عطفوا عليّ وأشفقوا.

حين صفر ضابط معلنا انتهاء العمل بعد أن أحصى القبور، أمرنا أعوانه بالجلوس حيث نحن، وسمحوا لنا باستراحة وشرب قدر من الماء. مضى علينا وقت أثقل من الرصاص، ورؤوسنا وأبداننا ترزح تحت نير شمس حارقة، أصيب بعضنا بضرباتها، وسمح لأسير شاب، قيل لي إنه طبيب، بإسعافهم قدر المستطاع، أي برش رؤوسهم وبعض مفاصلهم بالماء البارد.

فجأة تهامس جمع القاعدين بما يرونه عن بعد وسموه قافلة الموتى، قال جاري إن منهم من قضى مرضا ومنهم من أُعدموا. أمرنا بالوقوف فورا. اشرأبت أعناقنا جميعا إلى الآتين نحونا،

يرفد الاثنان منهم بين أيديهم محملاً عليه جثة مغطاة، وكل الرافدين من المساجين. ولما حلوا بيننا، توجه كل ذي محمل، بإشارة من الجنود، إلى الحُفر وأفرغوا فيها ما عندهم، ثم أمرنا نحن بإعادة كتل التراب المتراكمة حيث كانت وتسوية القبور بالأرض. تردّد معظمنا وتباطأنا في تنفيذ الأمر؛ ثم تعالت أصوات كثيرة عزّزتها ملء حنجرتي بالتكبيرات الأربع، وبعدها رفعت عقيرتي بالدعاء للموتى وسط المردّدين «آمين»؛ ولم نقدم على الدفن إلا بعد أن اشتد أزيز الرصاص في الهواء وقرب أرجلنا. وما كدنا ننهي المهمة المفروضة علينا قهراً حتى شاهدنا العجب العجائب: سجين يُجهز بفأسه على جنديين فيرديهما قتيلين ويشق رأسه بآلته ويسقط مضرجاً بدمه. هرع إليه جنود، أوقفوه على رجلبيه للتدليل على أنه ما زال حيّاً، ثم رموه في حفرة شاغرة وردموا التراب عليه. وبعد معاينتنا لهذا المشهد المروع استعجلنا الحراس في العودة إلى مكامتنا.

التحق بي حارسي، نبهني أن النزهة انتهت وحشني على المشي أمامه، ففعلت متوكئاً على عكازي الذي حمدت الله أنه لم يضع مني.

عوداً إلى مكمني بالمشفى، وجدت الممرضة السمراء السمينة في انتظاري. أجلسني على السرير وجردتني من بذلتي السجنية، وبعد أن سترت عورتي بفوطة أقبلت على رش بدني بماء يفوح برائحة الورد، ثم أزاحت ضمادات رجلي وباشرت

ما تبقى من ندوبي بالتنظيف الكحوللي، مكتفية في الأخير بما  
قل من التضميد الملصق، ناصحة إياي بترك رجلي عارية تنفس  
الهواء. ألبستني جبة المفتي نظيفة مبخرة بالطيب، وأطعمتني  
بعض الطعام الشهوي قبل أن تمددني على ظهري وتخز ردفي  
بمحقة سرعان ما جلبت لي علائم نعاس عارم.

## في فراش معذبتني، ليلة القذارة والهول

- منذ سنوات لا أعدها، يا بعلي العزيز، وأنا لا أنام إلا بعين واحدة. أخاف لو غطست في السبات أن تمتد إليّ أيادٍ لا حصر لها، فتفقد عيني، وتقطع ثديي، وتدخل الإبر والسفايف في كل ثقب، ثم تشوهني بالأمونياك وتهرق عليّ سطل بنزين لتضرم فيّ نارا متوقدة تحولني إلى حفنة رماد، تكون أنت المنتخب لرميها في أعفن مرحاض. ألسـت بهذا تحلم يا من أنت منذ اليوم بعلي؟

المرّة الأولى التي سمّنتي «بعلي» ظننتها نطقا من الغولة بكلمة لا تعرف معناها، لكنني في المرّة الثّانية صحتُ في وجه خانقتي: لا... لست بعلك!

- بل بعلي أنت (أجابت)، وبالشرع والكاغد. هو ذا عقد النكاح بتوقيع عدلين. دخلت بي هذي الليلة. حلمي الأعلى وقد حرثتني أن أنجب منك ولدا يكون من طيبتك

وصلبك. وعما قريب، حمودة، يتحقق الحلم وأبشرك بخبر حملي...

كلام المرأة الواثقة من نفسها يصعقني، ينزل عليّ سما ودوارا. صرخت ملء فمي:

- أنت شمطاء مخرفة. ما أنا بزوجك ولو أقعدتني عصابتك على كرسي كهربائي أو مزقتني إربا إربا...

- لا تزن سني ببدانتني يا نور عيني. أنا دون الأربعين، لم أياس بعد من الحمل والولادة...

ربّ ارفع عني هذي الغولة المهولة وغلبتها عليّ. تريد بمكرها ذاك أن تذهب بعقلي بعد أن قوّيتني عليها يا مولاي، وعلى عصبتها الماكرين...

ربّ فرج عني كربتي، واحلل عقدتي، واعضدني في هذي المحنة الجديدة التي لا قبل لي بها، ولا حيلة ولا طاقة في دفعها.

ربّ لا وليّ لي ولا ملاذ سواك. يا ستاريا معين...

استفهمتي ممسكتي عن سبب سهوي، لم أجب، وعما إذا كنت أصدق زواجنا، أو مأت متقرزا بالنفي الحاد القاطع. ختمت على فمي بوسة آلية عنيفة ولدت عندي رغبة في القيء قوية، وبعدها وضعت أصبعين بين شفتيها محدثة صفيرا صاخبا، فمثل أمامنا أربعة رجال. تعرّفت من بينهم على داعية



لا أذكر بالذات أين أبصرته. سألته بعد أن أحكمت قبضتها عليّ:

- الفقيه! هل زواجي بهذا الذكر تحتي يحلّ في الشرع أم لا يحلّ؟

أجاب الرجل ومعه مرافقوه الثلاثة بصوت واحد: يحلّ يحلّ... وأردفت مستهترة:

- وهل دخل بي أم لم يدخل؟

أجابوا أيضا بصوت واحد: دخل دخل دخل...

حررت رأسي قليلا وصحت في اتجاه الداعية:

- ماذا فعلوا بعقلك يا أخي؟ خدروه خلخلوه؟ هل يصح دخول رجل بامرأة من دون أن يعلم أو يعي؟

أجاب على الفور ككائن آلي مبرمج:

- نعم يحصل ذلك مثلا في الحلم، فيقع الاحتلام وقذف المني في فرج أنثى إذا وُجدت لصيقة به، وقد يؤدي برحمها إلى الحمل والوضع. ولله في خلقه عجائب وآيات...

رفعت عقيرتي بالدعاء على فقهاء السوء وشهود الزور، فأشارت الغولة إلى الجمع بالغروب. ولما اختلت بي، قيدت بالسريّر يدي الأخرى ورجليّ بعد تفريقهما، واستلقت فوقى بكل ثقلها ونتاجتها قائلة: الآن، حبيبي، ستعلم وتعي. ثم فعلت

بي ما لا يصدق ولم أتخيل جوازه حتى في الرؤى المنامية  
الكابوسية المهلوسة، إذ انشغلت بتعنيفي واغتصابي، مبدية  
مهارة فائقة ومهنية متعهرة، هذا فيما صراخي يردد إليّ خاسئا  
واستغاثاتي تخمدتها المسيطرة عليّ بركل رجلي التي لم تُشف  
بعد. وحين قضت وطرها انطرحت جنبي لاهثة عرقانة، كأنها  
فرغت من معركة حامية الوطيس، ثم وقد استردت أنفاسها،  
أخذت تنشد بصوت خشن أجش: عَيْنِيكَ عَيْنِيكَ/ جَابُو  
الهوى/ من شيشاؤا/ جابو جابو الغاشي/ وهو ماشي/ عَيْنِيكَ  
عَيْنِيكَ/ طيحو الزرّور/ من فوق السور...

لو وجدت حيلة لغرز أصابعي في عيني المطربة الرديئة،  
لفعلت من دون تردد ولا احتساب العواقب. عجزني عن  
ذلك يؤلمني، ويؤلمني أيضا اضطراري إلى سماع صوتها  
يغني سخافات وترهات أخرى؛ ثم إنها عانقت مخدة سمتها  
رضيعي وضناني، وأنشدت: نيني يا مومو/ حتى يطيب عشاء  
أمّو/ ويجي باه من الجنان/ ويجيب له خوخ ورمّان...

قالت إن كل ما غنته حفظته عن سجينة مغربية عروبية  
قبل وفاتها بضائقة قلبية حادة. سألتني إن كنت سأتي لطفلها  
بالخوخ والرمّان. لم أجب. ظللت أقاوم تلوث أذنيّ بهذياناتها  
الهوجاء حول قصصها الجنسية السابقة على ما سمتة قصتنا  
الجميلة، الفريدة من نوعها، ثم حول عزمها الاستقالة من  
خدمة المتاعب بقصد اتباعي إلى أي مكان في الدنيا ولو كان

جزيرة، نبي فيه عشنا، تقول، ونتحاب ونربي طفلنا ونقتات  
من غلات جنانا ومن لحوم وألبان ماشيتنا. وتشدقت بلغو  
آخر أوغل وأخرق، حاولت جهدي الإعراض عنه بالغوص  
في تدبر مصيبي الزبأ الجديدة وما قد ينجم عنها من أكرار  
ومأس وخيمة.

بعد لحظات خرجت من غوصي مفزوعا، عدت إلى  
واقعي العويص المر بفعل انفجار فم الغولة جنبي بالعتب على  
مقاطعتي لها وإضرابي عنها، وأرقت غضبتها بتدخين عصبي،  
مرغمة إياي من حين لآخر على مشاركتها سيجارتها وترنيدها.  
ولما أنهتها رمت عقبها وسحبت من تحت السرير طبقا مليئا  
بشندوتشات وقناني خمر وفواكه، ووضعته بيننا بعد أن استوت  
جالسة. رغبتني في التقوت فامتنعت، وفي الخمر فزمت شفتي  
بشدة إيماء بتقرزي ورفضي. فتحت قنينة بأسنانها وقالت: أما  
خمر المحبة فوالله ثم والله من يد عروستك تشربه... وأمام  
ممانعتي وصدودي ضربت رجلي النّقهة، ثم لما أعيأها صبري  
أمسكت خصيتي بقوة، وأقسمت لا ترفع عني يدها إلا إذا  
استجبت. زخم التضور ألما أحدث فجوة في فمي ما لبثت  
معذبتني أن حشتها بفم القنينة وعملت على تجريعي سائلها  
بالإكراه، فكنت ألفظ ما أستطيع، وأبلع تجنبنا للخنق ما يتسرب  
إلى حلقومي؛ وكذلك أفرغت في جوفي قنينة ثانية فثالثة، وهي  
تصحب فعلها المقيت بكلام بذيء وسب مبرح من صنف:  
يلعن دين أمك... أقبل الزواج بهذا العريس الحقير يا ناس،

ولا نسكر؟! تفضل خمور الجنة على خمري، ومن ضمن لك الجنة يا ابن القوادة؟!...

أوقفت الغولة جُرمها بغتة. لعلها أتمته أو ربما أصابها وهن ما. لمحتها تدخن وتشرب بشراتها المعهودة، فيما الخمر أم الخبائث، التي لم أقربها أبدا من قبل، تسري حمياها في شيئا فشيئا. سمعت مكرهتي على تجرعها عنوة تقول:

- الليل الآن يا بعلي لنا... ما فيه سوانا هنا... احك لي بعض النكت... أبوس فمك أبوس يدك... نكت مألحة لا حياء فيها... وحدها هذي النكت تضحكني وتجلب لي بعض النعاس... احك وإن حققت لي طلبي طلقتك في الصباح فأرتاح منك وترتاح...

بصوت مهلهل متقطع قلت:

- الله... تبارك وتعالى يمهل ولا يهمل... عقابه للظالمين والظالمات شديد... سيعذبك العذاب الأليم... أكثر مما عذبتني وعذبت آخرين...

- بل أنت حمودة من تعذبني بصمودك ونفورك، تحرمني من حقائقك وأسرارك، لا تريني غير عنادك وسوادك. أنت من سيعذبك الله... الآن إياك تغمض عينيك. اسمع ما يفتح شهيتك للنكت. هذا سجين تأسفت على موته بين يديّ بنزيف دماغي حاد، كان يحكي لي على هذا السرير من النكت ما يعجبني

مقابل أن أخفف عنه. قعداتي معه كان يحضرها خادمي القزم الشيخ ويحفظها كلها.

صفرت ثلاثا فمثل أماننا مبايعا مخلوق لم أر من قبل أقصر منه، تصل لحيته البيضاء إلى ركبتيه، وفوق رأسه طرطور على قد قامته. قال:

- سمعت نداء مولاتي، فقطعت أداء صلوات بقيت طوال أسبوع في ذمتي لكثرة الأنشطة والشواغل...

أمرت المنادية قزمها بالحكي، فتجرد له مليا صاغرا، قال:  
في أول قعدة بدأ كلامه منكك المفضل يرحمه الله: كان يا ما كان حتى كان الحب والسوسان... أمرته، مولاتي، يعفيك من الخزعات ويفذلك النكتة عارية، بلا لف ودوران... واحدة لا تنساها سيدتي تضحك كلما ذكرك بها، يصفها صاحبنا بالواقعية من حيث وقعت له شخصيا. قال: زوجتي لعنها الله تميل جدا إلى كل الذكور، ما عدا ذكري... وعلى ذكر الذكر، حكى أخرى عن مصري صعيدي أخذ زوجته إلى طبيب النساء، ولما طلب هذا منها، وقد اختلى بها، أن تخلع سروالها جرت إلى بعلها في قاعة الانتظار تولول وتشكو، فنهروا وأمرها بالاستجابة. وحين عادت وجدّ الطبيب طلبه، أجابته بدلال وغنج: اخلع سروالك أنت الأولاني... وفي الطريق إلى البيت قال الزوج معجبا: الدكتور ذا، ما شاء الله، مخّه كبير زيّ كذا،

وعلقت المرأة: وكمان ذكره كبير زيّ كذا... سألتها: عملتها؟  
أجابت: أنت أمرتني. قال: أنت من بكره طالق...

طبّطبت الماحنة المتفحشة على عينيّ لمنعي من النوم،  
وأردف القزم متحمسا:

- وحكى المنكت، قاتله الله، قصة امرأة علمت بعد شهر من  
زواجها أن بعلها يسكر في الحانات وينكح العاهرات، ثم جاءها  
خبر أسوأ في أنه يباشر مؤخرات الغلمان، فسخطت وغضبت  
ثم دعتة إلى حل سلمي أن تمتعه في الدار بما يطلبه برا. قبل  
البعل عرضها على سبيل التجربة. وفي ليلة التطبيق نادته كما  
يلزم، ثم ضاجعته من الثقب الحلال؛ أما حين أخذ يفعل بها  
الأفعولة الأخرى، أطلقت صرخات ألم فظيعة، فنهرها وصاح:  
يا امرأة كوني رجُل...

قهقهت الغولة ملء شديها ولكمتني كي أضحك، ثم أمرت  
الشيخ: زدني.

- تكون، مولاتي، ملحّة الوداع؟ كان يا ما كان... بل هذا  
شاب أعزب يعمل في مصنع طوال اليوم. وكلما رجع ليلا إلى  
بيته وجد أمه في غاية الحزن والاكفهرار، لا تجيب إذا سأل.  
ولما ضاق به الأمر استشار صديقه الأوحد، فتلقى منه نصيحة  
مفادها أن يجالس أمه وهي في قمة حالتها تلك، ويقلدها فيها  
حتى يقف على السبب فيبطل العجب. وكذلك كان. فما إن  
غاص الشاب قبالتها في لجة التجهم والانقباض حتى التفتت

إليه أمه مستفسرة: ولدي بوعزة... إياك تكون مثلي... ما وجدت من ينيك؟!

دوت ضحكات الغولة وقلقلتنني كيما أضحك أيضا، ثم طالبت القزم أن يشنف أذنيها بكلام عن نفسه عودها عليه في ختام كل قعدة، فقال: عوضني خالقي عن قصري، والحمد له والشكر، بقوة الحافظة وعظمة الأير، يحسدني عليهما الفيل، وهو مضرب المثل بقوة ذاكرته وطول ذكره. وبعد ذاك أغدقت المقهقهة المتهتكة على مهرجها عبارات الإعجاب والتنويه وعليّ عبارات قدح وتوبيخ لكوني لا أحكي النكت، ملح الحياة، ولا أتمتع وأنشط بما أسمعه منها. وتوعدتني بمعاقبتي على ذلك حين يصبح؛ ثم إنها أكلت وشربت، ثم هذت بما عزفتُ عنه، ثم تمددت وتجشأت وضرطت وزفرت كثيرا كثيرا...

ومن أغرب ما شاهدت مذهولا أن القزم، بدل أن يعود أدراجه، صعد إلى السرير وتكوم في حضن الغولة. أشرت إليه أن يزهد فأجابني همسا: ليس قبل أن تأذن مولاتي، وإلا فرأسي ولحيتي على كف عفريت... أبديت له إيماءات أخرى مستفسرا، ردّ بواحدة تفيد أن مولاته تسمع وترى ولو كانت نائمة، وأنّ عليّ أن أصمت وأنام... وبعد ذاك انجر إلى حضنها، وصدر عنهما لهاث وحراك وأنات...

ربي ماذا اجترحت من الذنوب والمعاصي في حقلك أو في  
حق عبادك حتى أبيت هكذا معذبا مؤرقا مع كائنين شنيعين  
شاذين، تلا فعلهما المنكر شخيرهما الفظيع الصادع: شخير  
غولة متغولة وشخير قزمها الماجن المطيع! أم تراك، ربي،  
تمتحنني بالسكر القسري والشقيقة الفالقة وتدافع الهلوسات  
والهواجس السوداء في كياني ورأسي!

ظللت كذلك أناجي ربي في نفسي وأبث إليه شطحاتي  
وشجونني، حتى إذا لاحت أولى الأنوار، ارتج المكان بصوت  
الغولة مستكرة رائحة البول في فراشها، لاعة أم فاعله وأباه.  
قفز القزم خارج السرير، وفمه الغائر في لحيته المرتعشة يلغو  
بالإيمان المغلظة أن المتبول ليس هو. أمرته بإرسال الحارس  
الأسود، وطوحت بي بعيدا عنها بعد أن فكت قيودي، ثم  
خلصت السرير من اللحاف والإزار والبطانية، ومزقت عقد  
نكاحنا المزيف، وهي تتوعدني بعقاب مهين من العملاق.

حين حضر المطلوب، أمرته الغولة بصوت خشن فظ أن  
يرميني في حفرتي ويفعل بي ما يشاء، ناعته إياي بالسكير  
والمطلق، جاهرة بأن وضعها كأم عزباء أحب إليها من الزواج  
بيعة الرجال مثلي.

حملني الرجل على كتفه بعكازي وخرج حثيث الخطى، كأنه  
يستعجل الابتعاد عن رئيسه وفمه الكريه التنن. وقرب دورة  
مياه أوقفني وأشار لي بدخولها وتسليمه جبتي والاعتسال ريثما



يعود إليّ بعد لحظات. وكذلك كان، إذ ما إن تطهرت من ليلة  
القدراة والنجاسة حتى أقبل عليّ ولقني ببطانية دافئة وحملني  
إلى زنراتي حيث ألقاني على لحافي مع عكازي وكيسين، ثم  
انصرف وعيناه المحمرتان تفيضان، والله، بالعطف والدمع.

تعاونت الهواجس والمخاوف العرمرم وآثَارُ الدوار  
والإنهاك للإجهاز عليّ بنعاس تُنذر بوادره بما يشبه الغيوبة أو  
الدخول في ثقب أسود أو خندق عميق...

## أنا قهراً وأفيق على آثار حريق

في أقصى درجات الانهيار الجسدي والنفسي، ليس للمصاب به من حيلة سوى تقليد الميت بالهمود وترويض النَّفس والحواس بالتقشير والتقشف. سمعت حارسين قرب لحافي، واحد يزعم أنني توفيت والثاني أنني أُحتضر. وكانا على وشك القمار حول وضعي حين أقبل ممرض لجس نبضي بمقياسه فيما الحارسان يترجّيانه أن يفصل بينهما، فأعلن أن رهانهما انتهى بالتعادل السلبي، موضعا أنني شبه ميت وشبه حيّ، ثم وخزني بمحقنة قال لربما ترجّح عندي، ولو إلى حين، قيد الحياة على قيد الموت. ويغتنة انصرفوا جميعا وعمّ صمت مريب في الدهليز كله، كأنما زنازنه خلت من نزلائها، أو أن هؤلاء حل بهم مثل ما حل بي، ولو بصنوف ودرجات متفاوتة.

كم وقت استغرقه نومي الاضطرابي، المسكير المغيب؟

هل مدة ساعات طوال أو ربما يومين متصلين فأكثر؟ عقابيل  
خمر الغولة ما زالت تعث برأسي دوارا وشقيقة. لكني، رغم  
ذلك، أخذت أستبين سبيلي إلى استدرج الصحو والتقاط  
أنفاسي ووضوح وعي. النهار يميل إلى منتصفه، حسبما يبدو  
لي؛ أقوات صينية اختفت في بطون الحيوانات القاضمات أثناء  
غيبيتي ولا شك، والصينية الأخرى ما زالت تزدان بالمصحف  
الكريم ومبخرة ومزهرية؛ أما كيسا العملاق الطيب الرحيم،  
هبتة إليّ، فما لبثت أن أطلعت على ما فيهما: واحد مليء بالخبز  
والزيتون والتمر والبيض المسلوق وقناني ماء، والآخر يحوي  
ألبسة داخلية نظيفة وبذلة زرقاء جديدة. فاللهم يا ربّ الطف  
بعبدك ذاك، وحرر رقبتة من مخالب المفسدين في الأرض  
وطواير الظالمين الطغاة...

من باب وضع يقظتي على المحك، مددت يدي إلى كيس  
الطعام، تناولت شيئا منه بتمعن وتؤدة، أتبعته بجرعات ماء، ثم  
نهضت ملفوفا ببطانيتي، أجرب رجلي على الخطو من دون  
عكاز، لاحظت - وابشراه! - تحسنا معتبرا في رجلي النقهة.  
ألزمت نفسي بذرع مساحتي مرات عديدة جيئة وذهابا، أركز  
ذهني على مثل ونفائس علوية شتى، محوّلًا إياها إلى ترياق  
بل سدّ منيع ضد شبح الغولة وما صرّفته في من شرور جسدية  
ومعنوية بليغة. بعرق المتصبب وتنفساتي هأنذا أظهر جلدي  
وكل ملكاتي من رواسب أفعالها الوحشية، ولغتها الملوثة  
البذيئة، وروائحها الكريهة الرديئة...

حين تعبت استلقيت على لحافي وفي زخم لهائي تذكرت  
بعفو الخاطر ثقب التواصل بيني وبين جاري. كشفت التراب  
عنه بعكازي وطفقت أبث منه كلمات نداء خافتة؛ تبدى لي بعد  
ترديدها أنها لا تجد صدى أو أذنا لاقطة. استرقت النظر من  
الثقب لعلني ألمح طيفا، قدما متحركا أو ثابتا. لا شيء! جاري  
مات أو قُتل أو رُحِّل، كما قد يكون، والله أعلم، حصل لجيران  
الأقربين وحتى الأبعدين.

هل أوجد وحدي في الدهليز كله ولا يسكنه أحد سواي؟

كنت من قبل أحسد على السكن في زنزانة فردية، ويعده  
البعض تمييزا تفضيليا ونعمة، بيد أنه في حساب الجلادين نقمة  
ينزلونها على من يريدون خلخلة عقله وسحقه بالعزلة المطبقة  
المميتة. أما أن أكون النزيل الوحيد الأوحـد في مكان كان يعمره  
من قبل زهاء مائة سجين، فهذا أمر، ولا شك، أدهى وأعوص!  
لكن، ولو رموني في جُبِّ أو في عرض الصحراء، فو حَقَّ من  
خلقتني ودرّبني وأحسن تدريبي على ذكره واستحضار أوليائه  
المؤنسين، لن أترك حبلي على جرار الهلوسات والهذيانات،  
ولن أغوص في نفق متاهيّ قراره الحنون.

في انتفاضة عفوية قصدت بابي. حاولت من شباكه  
الحديدي أن أسترق السمع والنظر. لا غاشي ولا ماشي،  
لا لاغي ولا هامس. الصمت مطبق يفوح بالرطوبة وطقس  
القبور. استشكلت الوضع وتطّيرت. وكم تعجبت حين أدى

ضغطي على بابي إلى انفتاحه. خمنت: لعل العملاق الطيب نسي إغلاقه أو ربما تركه كذلك تكروما عليّ وتفريجا. تسلمت ببطانيتي، تناولت عكازي الذي لي فيه الآن مآرب أخرى، اتكأت عليه وتوكلت على الله، فنفذت إلى ممر الدهليز الشاحب الإضاءة، مجريا جولة تفقدية خفيفة الوطاء، بطيئة الوتيرة. كم راعني، آه كم راعني وأحزني ما عاينت! الجدران كلها فحمة السواد، كأن حريقا نخرها بالسنه المتأججة؛ أثاث الزنازن وحوائح أصحابها استحالت إلى أكوام هشيم ورماد، تنفث بين الفينة والأخرى خيوط دخان متلاش ضعيف...

ما تصورته أكده لي سجين عجوز لمحتة متقوقعا في عقر آخر زنزانة في الدهليز. أطللت عليه مسلما، سائلا عما وقع. لم يبد حراكا إلا من نظرة كثيبة تالفة ألقاها عليّ، ثم بصوت متهدج منهك لملم جملا متقطعة فهمت منها أن سجيننا في زنزانتة الوسطى أضرم النار فيها وفي نفسه، فامتدت إلى الزنازن المجاورة كلها، ما عدا مربعه المتطرف وآخر مثله في الجهة المقابلة. سألته عن زمن الواقعة فوافق خبره ليلة القذارة التي أمضيتها في قبضة الغولة، وعن الخسائر البشرية، قال كل السجناء بين قتلى مختنقين وجرحى ذوي حروق بليغة. استفسرته عن حاله، قال: ما لم تنله مني النيران يفعله بي الآن العطش والجوع... منذ حدث ما حدث، يا ابني، نسوني هنا أو ربما حسبوني في عداد الهالكين.

هرعت إلى زنزانتى وعدت إليه بنصف زادى. رميت به إليه، هو العاجز عن الوقوف، فتلقفها داعيا لي بخير دعاء. استمهلت ريثما أرجع، وذهبت في طلب طبيب أو ممرض. قطعت ممرات وردحات وأبهاء باتجاه الحي الذي فيه المشفى، والعيون الملتفتة إليّ تستغرب تلفلفى ببطانية كأني من بلاد الإسكيمو أو مصاب بضمور حرارى في بدنى.

في ساحة كان عليّ عبورها ناوشني بعض السجناء ساخرين من لُبسي واضطرابي، وأخذت بعض الأيدي تمتد إلى بطنيتي قصد تجريدي منها، فاحتميت بحارس صنيدي وسألته مرتبكا:

- هل تصحبني إلى المشفى، سيدي؟

طلب مني رقمي، كشفت عنه فحك قفاه وقال:

- ١١٢ تقول! كيف نجوت من الحريق؟

- بأعجوبة، سيدي، بأعجوبة...

- إذن ضاعت حوائجك كلها... والطبيب، لماذا الطبيب؟

- هناك في الدهليز المنكوب سجين حيّ يُحتضر...

- عد إلى زنزانتك في الحال. سأنظر في القضية... اذهب.

ما كان لي أن أعصى أمر رجل يدل زيه الكمونى ونياشينه أنه ضابط أو عقيد. عدت من حيث رجعت متعاميا عن الوجوه والعيون، حتى إذا لحقت بالدهليز أطللت على العجوز

المريض، فألفيته متمددا، غاطا في سبات عميق. عوض إزعاجه  
وإفساد راحته آويت إلى غاري حيث أخفيت تحت لحافي كيس  
ألبستي الجديدة، ثم تهالكت عليه منتظرا ما سيأتي.

## من جناح التائبين إلى ملهى ليليّ فاجر

ضربات المطارق والمعاول في الدهليز أيقظتني صباح يوم غائم بارد. فهمت من تواترها واشتدادها ومن الأوامر الصادرة عن الحرس أن الزنازن تخضع للترميم والإصلاح بأيدي سجناء حرفيين. لبست بذلتي الجديدة واقتربت من شباكي فلمحت صدفة حارس الأمس برتبة ضابط. حيّته وسألته عن الأسير المريض الذي أخبرته بحاله، أجاب بين إعطاء أمرين أنه دفن، وفيما أنا أترحم على العجوز المسكين في نفسي، استفسرني، وهو يلوك علكة، عن الحرفة التي أحسنها. قوست حاجبيّ ترددًا، فأمرني قبل أن يغيب بالتهيؤ لمساعدة الصباغين. قضيت زهاء ساعة من اليوم التالي في إعداد سطول الجير كيفما اتفق، غير أن الحرفيين سرعان ما أعفوني من ذلك رافة بقلّة دربتي وبضعفني وعرجي. نصحني كبيرهم - يسمونه الطاشرون - بالركون إلى مستقري والتحلي بالصبر ريثما تنتهي الأشغال وتعود الزنازن كما كانت.



ما العمل بنصح المعلم بصعب على من مثلي امتهن الصبر  
على المكاره وصار له في امتصاص الصدمات باع وأي باع!  
ضوضاء العمال نهارا أمسى يؤنسي، وفي الليل أدرك انسداد  
بابي، ويقوى شعوري أنني بتّ في الدهليز نسيا منسيا وربما آخر  
المتروكين. فلا وجبات تأتيني ولا ماء، ولولا ما بقي لي من زاد  
العملاق الخيّر، أقتات منه لسد الرمق لا غير، لقهرني الجوع  
وعاث في معدتي فسادا. وفي قراءة آي من الذكر الحكيم على  
ضوء باهت شحيح، كما في استظهار ما في حافظتي من حكم  
وأشعار وقتَ فرض الظلام، وجدت قوتا آخر روحيا أتقوى به  
وأعلو فوق وحدتي وتصدعي، محاولا الاندلاع في ربوع القيم  
الأبقي وكل البهاء.

استمرت أعمال الإصلاح والترميم بضعة أيام، زارني  
خلالها الحارس العملاق ليلا ليمدني بكيس طعام وماء. وبعد  
انتهائها عمت ممرّ الدهليز حركة دائبة تشير إلى مجيء سجناء  
جدد ودخولهم مربعاتهم. وصاحب ذلك حفل تدشين بالطبل  
والغيطه أعلن فيه بالبوق أن الدهليز يسمى من الآن فصاعدا  
جناح النادمين التائبين، ووُزعت بالمناسبة على المقيمين  
الوافدين أكياس أكل وقناني لبن وماء، ولم أستثن، أنا المقيم  
القديم، من هذي التبرعات السخية التي لا يمكن أن تكون  
خالصة لوجه الله.

بعد اختتام الحفل وانصراف الحراس، ارتفع صوت قريب  
مني محتجا منددا:

- لا يا قوم! أنا هنا في غير مكاني المخصوص. لم أقتل، لم  
أسرق، لم أجرم أبدا. قضيت ست سنوات مع أسرى السياسة  
والرأي، يسوموننا أسوأ أنواع العذاب، وفي الليل يرومون منعنا  
من النوم بما يسمونه «تلاوة القرآن نونستوب»، لكن كيدهم  
يرتد إلى نحورهم، إذ تنزل علينا آياته البينات دفئا وسلاما،  
فتحملنا إلى براري الأمان أو إلى فراديس السماء. أريد الرجوع  
إلى جناح صحابي، لأنني مرشد سلفي، لا أندم على خيارتي  
والتزامي، ولا أطلب توبة من أحد. الله وحده هو التواب  
الغفور...

وصاح صوت مقاطعا من أقصى الممر، لكنه مسموع:

- لا يا شيخ! البيدوفيليا، اغتصاب الصبيان الأبرياء جريمة  
نكراء تحرمها شرائع السماء والأرض، وعقابها يكون في الدنيا  
قبل الآخرة. أليس كذلك يا ناس! ماضيك البيدوفيلي، يا زعيم  
الزور، لاحقك في حاضرك، وهو الآن وصمة خزي وعار في  
جبين أصوليتك الباطلة الفاحشة...

صمت الزعيم لحظة، ربما لالتقاط أنفاسه بفعل صدمة  
التهمة وخطورتها، ثم صرخ بكل ما أوتي من قوة:

- الرجل ذو الفم التين، الذي سمعتموه كلكم، بوليسي

سري يتبعني حيثما حللت، يتسقط أخباري وأخبار آخرين  
لرفعها إلى أسياده ومستخدميه. ولي على ما أزعم دليل  
مادي، وأرجو أن يبلغ عني من منكم يصله كلامي... يا نزيل  
الزنازة ١١٢، هل سمعت ألفاظ متهمي جميعها مع أنه في  
الدهليز الأبعد عنك؟

أجبت عاليا أي نعم، فتناقل ردّي السجناء تباعا، ثم أردف  
المتهم قائلا:

- إذا كان صوت الجاسوس يعبر هذا الفضاء من أقصاه إلى  
أقصاه فلا أنه يستعمل ميكروفونا من نوع إلكتروني خفي، هو  
جزء من ترسانة آلات مصغرة يحملها المخبر بيننا لأداء عمله  
القدر الدنيء. ومن له أن يقترب منه ويفتشه سيثبت صدق ما  
أقول، ويشهد أنه من وحل ملوث فاسد، ومن طينة المتعشّشين  
بتلطيخ سمعة الأتقياء وامتهان حرفة السعاية والقذف والشهير،  
قاتلهم الله وأخزاهم إلى يوم الدين.

تعالت أصوات مؤيدة الزعيم، مبرئة ساحته، وأخرى رافعة  
عقيرتها بسبب المخبر ولمزه، ولم تهدأ إلا بعد هجوم فرقة من  
قوات التدخل السريع، فصالوا وجالوا بعضهم المهنية مهديين  
متوعدين، يصحبهم نباح كلابهم البوليسية. وظل بعض عناصرهم  
لساعات يفرضون النظام والسكون، يفاجئون الأسرى عبر  
شبابيكهم بإطلاالات فاحصة رقيقة، نلت منها حصتي وزيادة.  
ولا ريب أنني بالهيات التي كنت أتخذها على لحافي برهنت

للمظلمين على حسن سلوكي وصفاء نيتي، فرفعوا عني عبونهم  
ومسألطهم الضوئية وتركوني وحالي.

اغتنمت عود التوحيد إليّ، فأزحت التراب عن ثقب التواصل  
وناديت همسا على جاري الجديد. فرحت لاستجابته، بادرتُ  
إلى التعريف باسمي وأطلعته لماما على صك التهم الموجهة  
لي، مقسما بالله على براءتي منها. وفعل مثلما فعلت، مع  
فارق جوهرى هو اعترافه أن إدانته ثابتة، لا تقبل الاستئناف  
أو النقض... سألته عنها فعُدّ جرائم قتل من توقيعه طالت  
زوجته وبنته العاهرتين وقوادا وثلاثة زبائن. وأعلن أن نزلاء  
جناح التوبة كلهم على شاكلته أو أخطر منه، منهم اللصوص  
والنصابون والقتلة بالجملة، ومنهم المتاجرون في المخدرات  
والجنس والخمور، ومنهم ممارسو شتى أنواع الشذوذ بما فيها  
اللوطية ونكاح المحارم... واستثنى السارد المرشد السلفي  
الذي قال إنه لا يعرف شيئا عنه ولم يره من قبل. وأضاف أن  
المبتغى من مجرمي الحق العام مثله أن ينخرطوا في أسلاك  
المخابرات والاعتيالات تحت الطلب، مقابل نيل التوبة وإبراء  
ذممهم علاوة على أجور سخية. وحذرنى كثيرا من رفاق  
الجناح قبل أن ينخرم صوته تماما.

عند حلول المساء ومتاخمته الهزيع الثاني من الليل، صاح  
صوت ذو نبرة حادة: يا أهل هذا الكهف، في انتظار أن ينضج  
ندمكم ويختمر، وتنجم توبتكم عن نيل الغفران والعفو،

لَيَنُوا لِيَالِيكُم بالنكت والنوادر، وأدعاها للضحك والتفويج  
عن النفس هي الماجنة المتهتكة، الصادرة من تحت الحزام  
والسرة... هاتوا إذن ما في جعبكم منها، ابتغاء هزم الهم وقتل  
الوقت، جودوا بها وأحسنوا الحكي، وإلا هزمكم الهم وقتلكم  
الوقت... وحتى ألهمكم وأشحذ قرائحكم، هذه واحدة  
من تلك: هل أتاكم خبر مراكشي من سلالة قوم لوط. اتخذ  
الجبل قاعدته الخلفية، وصار منها يجري غارات جنسية في  
الغابات والسهول، تستهدف الصبيان والشباب وحتى الكهول.  
حير اللوطي اللعين البوليس والدركيين ودوخهم. وذات يوم  
ربيعي جميل، مر ضابط سام مع حرسه في سفح ذاك الجبل،  
فضبط على امتداد مائة متر ونيف ثلاثة رجال عرايا ساجدين،  
ومؤخراتهم ناتئة مستنفرة. تبين الضابط أنهم من أعوانه،  
سألهم مستفحشا عن فعلهم، فقالوا وقد استقاموا وأدوا التحية  
العسكرية: فشلت حضرة الضابط كل الخطط للقبض على ذاك  
الوطي الزئبق، وإننا كنا، على النحو الذي رأيتنا عليه، ننصب  
له كمينا يسقط فيه... أشار إليهم بارتداء لباسهم، وأمر تجريدة  
لحقت به باعتقالهم وفتح تحقيق دقيق مفصل حول توجههم  
الجنسي.

ارتجت أركان الدهليز بقهقهات صاخبة مدوية، شجعت  
المنكت الخليع على الاسترسال في حكي ما هو أفحش  
وأفزع، فصممت أذني بقطع من لبّ الخبز، عصمة لي ولمكاني

هذا الذي به نسخة من المصحف الكريم، ثم تعشيت بما قل،  
وعلقت كيس طعامي المذخر على عكازي بعد أن سويته أفقيا  
بين ثقبين في زاوية مربعي الخلفية. ألم أقل إن لي في عكازي  
مآرب أخرى! ارتدت المرحاض وأمنت جانبه قبل أن أتدثر  
ببطانيتي وأتهالك على لحافي حيث همهمت بكلمات في مدح  
النوم وجلبه إلى عيني.

في عز الليل استفقت مذعورا على إثر صوت يتضرع ويثن.  
حررت أذنيّ بما علق بهما واقتربت من بابي، فكان مما تناهى  
إلى سمعي: اللهم يا رب اشهد أنني نُحرت ولم أتُححر...  
أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله... أشهد...  
فجأة خفت الصوت وتضاءل ثم امحى تماما. استصرخت ما  
استطعت ضمائر النائمين لإغاثة سجين يُقتل، ولا مجيب.  
ولما عاودت الكرة، والظلام دامس، امتدت يد من شباكي إلى  
عنقي، لوت عليه ليا وصاحبها يهددني بالخنق إن تكلمت، ثم  
طوّح بي إلى لحافي حيث رجفت ولبدت.

جاء ما سمعته وحدث لي لم يغمض لي جفن، حتى إذا  
زقزقت بعض الطيور الشتوية هنا وهناك، معلنة عن انبلاج  
الصباح، ضج الدهليز بالأصوات قريبا مني، بعضها تعلن  
انتحار السلفي بفصد عروق يده اليسرى، كما تدل شفرة دامية  
ما زالت بين أصابع يده اليمنى؛ وبعضها الآخر تقر وتشهد  
بصحة ما حصل. اختلست النظر من شباكي، رأيت تباعا

طيبيا بصدريته البيضاء وحراسا والعديد من السجناء الجدد.  
قال واحد لم أتيبته: السلفي وقد انتحرمات ميتة جاهلية، لا  
يُصلى ولا يُترحم عليه، ولا يدفن إلا كما تدفن الجيفة اتقاءً  
لعفنها وانتشار جراثيمها... وأمر آخر: اغسلوا زنازة المتحرر  
من دمه وكذلك لحافه وملأته. شهد شاهدون وطُوي الملف  
بتوقيعات نصابهم الشرعي. تفرقوا الآن. عودوا إلى غرفكم...

خطر لي أن أجهر بالتكبيرات الأربع، والدعاء للمقتول  
غيلة، والشهادة بنقيض ما أقره شهود الزور؛ لكنني قست  
هول العواقب والتبعات بين رهط من أباطرة الجريمة والقتلة  
المحترفين، فأحجمت تقيّة ولذت بالصمت.

بعيد تناول وجبة الفطور، نودي على قاطني جناح النادمين  
النائبين للخروج إلى ساحة البناية للتنزه والرياضة. تأخرت  
عن تلبية النداء، فجرني حارس من مكمني عنوة، وحشرنني  
بين جيرانني الجدد الذين تسنى لي لأول مرة رؤيتهم رأي  
العين، ولو من طرف خفي. معظمهم كانوا من ذوي الكروش  
المتكرشة أو العضلات المفتولة، كأنهم من قدامى أبطال  
الكاتش أو المصارعة اليابانية؛ والنحفاء منهم كانوا، ما شاء  
الله، كالزرافات مشيةً وطولاً، وبعض هؤلاء وأولئك كانت  
لهم لحى تدلى صفائراً كأنها عقاربُ سامّةٌ لادغة، وعلى آذانهم  
أقراط، وفي أطراف من أبدانهم تتبدى رسوم ووشوم غريبة  
الأشكال... أما أنا فقد بدوت ضمن طابورهم المتحرك كقزم

أو صبي، تلهى بعضهم بقرصي والعبث بلحيتي أو بصفع قفائي ورأسي، متضاحكين عليّ، مستهزئين بي وبمشيتي العرجاء. لم يكن بوسعي أن أحتج عليهم أو أشكو بهم، فصبرت وتحملت طوال الطريق الذي بدا لي أوعر من الصراط وأشق.

حين بلغ الطابور الساحة الوسيعة، تفرقوا جماعات، واحدة للعب الباسكيت، وثانية للمبارزة البدنية، وثالثة للتريض بحمل الأثقال. اقتادني أفراد من هذي الأخيرة وأخذوا في هيئات متنوعة يستعملون جسمي ووزنه كما لو كنت جزءا من الأجسام الجامدة، يحركونني كما يشاءون ويفتلون بي عضلاتهم الناتئة.

لم أكن لأسمح بكل هذي المساءات والمهانات، خصوصا حين سمعتهم يتداولون في تسخيري ككيس لحم وعظام يترامونه، ويكون على من يخطئ المسك به أداء الحق، أي إهداء دورة كحول أو حشيش... تحينت لحظات لغوهم واستراحتهم، فتملصت من قبضتهم وعدوت في أرجاء الساحة، أوقع برجل نقطة وبأخرى فاصلة، باحثا عن ملاذ أو منفذ. لاحقني بعض من هربت منهم، لكنني غلبتهم بخفتي وإتقاني فن المراوغة والفلت. ولما أحسست أن نفسي بدأ ينفد ويخونني، تراميت على حارس كاشفا عن رقمي واسمي، مترجيا إياه أن يحميني ويقودني إلى حضرة القاضي المحقق. وكم حمدت الله حين سمعت الرجل يأمر المطاردين باستئناف رياضتهم ويهتف



في وجهي: حمودة أنت! يا لحسن المصادفة! سيادة القاضي  
سألني عنك. هيا بنا إليه. لكن لا بد لك أولاً من دوش وحلاق  
ولباس مشرف... هيا اتبعني.

تبعته مدهوشاً، وأملّي ألا أكون بفراري من فائضي  
العضلات إلى مقرر المصائر كالمستجير بالنار من الرمضاء.  
ومن جهة اقتناعي أنه لم يعد في الإمكان أسوأ مما كان، ليبت  
اشتراطات الحارس الثلاثة، فكنت بعد بضع ساعات مغتسلاً  
نظيف الجسم والفم، حليق اللحية والرأس على مقاس نمرة  
٢، مرتدياً بذلة مدنية سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق حمراء،  
واحفظت لتيسير مشيي بحذائي الرياضي نايك.

استبقاني الحارس في غرفة ضيقة مغلقة طوال ساعات لم  
أستقلها، بل على العكس استحليتها نظراً لموسيقى هادئة  
منبعثة من بافلات في السقف، ولخدمات أخرى قدمتها لي  
مضيئة حسناء شديدة السمرة: مرطبات حلال ووجبة غداء  
فاخرة متبوعة بكؤوس شاي معتبر وحلويات متنوعة شهية.  
حاولت استدراج المضيئة إلى حوار ما، ففهمت منها أنها  
فلبينية لا تتكلم سوى الإنجليزية. تفوهت بكلمات وجيزة  
تفيد شكري الجزيل لها وسوء معرفتي بهذه اللغة، معتذراً عن  
خلل نظقي وعوارده.

في أوقات انفرادي بالغرفة الموصدة وما فيها، صرفت  
لحيظات واقفاً أمام مرآة، أتأمل جسمي ونحوه المفرط،

ووجهي المتغير إلى الأسوأ: فم قليل الأسنان، وجتان ضامرتان، أنف ناتئ العظم مرهق، عينان غائرتان تلويان على آخر بريق، لحية وشعر مخضبان بشيب كثيف... هاربا من المرأة كشافة العيوب والنقائص، اعتصمت جالسا بأريكتي، أتأرجح بين الإضراب عن التفكير والتخمين للتمتع بالساعة التي أنا فيها، وبين محاولة استقراء ما يدور في مخ المحقق وتصور ما يعده لي من عروض مغرية أو من مفاجآت غير سارة في حالة ثباتي على موقفتي أو ما يسميه عنادي وتعتي.

كذلك بقيت حتى حلول المساء وإقبال المضيفة المذكورة عليّ تدعوني لمصاحبتهما حالا. ركبت معها خلف سائق جيب مسلح، وبعد طي زهاء خمس كيلومترات على الرمل بسرعة مذهلة، توقفت السيارة أمام عمارة قوية المبنى، محروسة المحيط والجنبات. تبعت مرافقتي إلى المدخل حيث الطقس جيد التكيف، يبعث على الانشراح والراحة. وهنا اجتزت بعدها معبر المراقبة الإلكترونية، وخضعت دونها لتفتيش يدوي دقيق من طرف جندي أجنبي ما لبث أن طالبني بخلع حذائي ووضعته في سلة. استجبت مطاوعا. وبعد دقائق عاد من تواريه في مخدع وسلمني سلة فيها حذاء موكاسان عوضا عن حذائي الذي حجزه لأسباب عجزت لسانيا عن طلبها. انتعلت الموكاسان الجديد وسرت وراء المرافقة عبر ردهات وأبهاء أمريكية الديكور والأثاث، ولما وصلنا إلى مدخل حانة مكتوب

عليه bar zamzam طلبت مني اقتعاد أريكة منعزلة نعتها لي قبل  
أن تولي الدبر محببة.

الحانة أمريكية الصنف والطراز، حسبما أعرفه عنها في أفلام  
الوسترن. الرواد معظمهم أمريكيان ولا لغة غير لغتهم تصول  
وتخرق الآذان. نفرت على طبلتي الوطنية مغنيا بالهمس مع  
المرحوم حسين سلاوي: ما تسمع غير أوكي أوكي كامن باي  
باي...

إحدى باروومن شدت انتباهي، ليس بصدرها العاري تقريبا  
وجمالها الباهر فحسب، وإنما أيضا لشبهها الشديد بنعيمة،  
سكرتيرة المحقق، معاملتي بالحسنى والعاطفة عليّ. من دون  
أن أشعر أو أقدر العواقب هرولت نحوها وهتفت باسمها همسا.  
تجاهلتنني وقالت سأتيك بما تطلب. عدت إلى مكاني فورا كيلا  
أحرجها أو أثير التفات عيون رقيقة فضولية. بعد لحظات تيقنت  
خلالها أن لا أحد يأبه لي، دلفت إليّ نعيمة فانحنيت ووضعت  
كأس عصير برتقال على طبلتي مرفقا بكلمات خافتة سريعة:  
إذا كلمتني خربت حياتي، ثم انصرفت عجلي متمايعة.

ناجيت نفسي: لا وألف لا يا نعيمة! لن أخرب حياتك أبدا.  
يكفيني أن تكون حياتي خربة، يكفيني...

لكن هل عليّ أن أسكت عن هؤلاء الجنود والمخبرين  
الأجانب، الصناديد المكابرين، الذين لا يستثنونك يا محبوبتي  
مما يفعلون بالنادالات والباروومن الأخريات؛ فهذا يطببطب

على ردفيك متلذذا؛ وذاك يعصر نهديك ويبخرهما بسيغاره  
ويشرب على نخبهما؛ وآخر يحوشك إليه ويقبل فمك بشغف  
ثمل مجنون.

أجيبيني، نعيمة، هل أصبر على ما أشهد من منابر وأبلغ  
حنقي وغيظي، أم يحق لي أن أنتفض على اليانكيز وأنهر  
العابثين بك وأهدد: لا تمسوا بنت بلادي يا خنازير، وإلا...

وإلا ماذا يا حمودة الضعيف المريض المسحوق، المرشح  
في كل آن وحين للقتل بجرة سكين أو بلكمة صاعقة على  
القلب أو مخ الرأس! بعوضة أنت بين الفيلة والأسود، وليس  
لك والله إلا أن تلزق بمقعدك وتتصاغر وتتقوقع، وإذا صارعت  
فعلى توهم، وإذا استنكرت الفواحش ما ظهر لك منها أو وضع  
ماء زمزم المبارك اسما لهذي الحانة المتهتكة الخليفة، فافعل  
ذلك في قرارة نفسك، لا تتعدها أبدا إلى الجهر والصدع فإلى  
التهلكة.

الوافدون على البار من الجنسين تكاثروا، والأجسام  
والأفواه، حسبما أرى، تمشت فيها حميا الكؤوس، والموسيقى  
التي اشتد أوارها جذبت إلى الحلبة الراقصين فوجا بعد آخر،  
فالتفت سيقانهم وتشابكت أياديهم، وتأرجحوا مترنحين بين  
الشد والبسط والضمم والرخف، وهلم جرا هلم جرا.

على هامش ذلك الجو الصاخب، قصدتني نعيمة، أعطتني  
كأس ماء، شممته ولم أشربه. أبدت في وجهي حركات تشي

بنهري، وكلماتها في أذني، خلاف ذلك، نزلت عليّ دفئا  
وسلاما: هذي عليّ دم خبيثها. وفي ختام لقائك مع المحقق  
مزقها بأسنانك، واقذف ما فيها وأنت تشكو له بين سعال وآخر  
إصابتك بالسل. استرني. وداعا...

لم تمض دقائق على غياب ناصحتي في الزحمة حتى  
شعرت بمن يربت على كتفي ويقول: قم واتبعني.

## من لقاء أخير مع المحقق إلى عنبر الساهرين

الأمرة امرأة بزي عسكري، الراجح عندي أنها أجنبية. كان صخب المرقص يتضاءل وأنا أتبعها في ممرات وأبهاء. اقتادني عبر باب أول فثاني، وعند الثالث استعملت هاتفها المحمول، وبعد دقائق من الانتظار تلقت الإذن بالدخول. دخلت خلفها إلى صالون وسيع تضيء جنباته أضواء حمراء خافتة. أبصرت قاضي التحقيق يتربع على أريكة متحركة، وأمارات سكر متقدم تغزو محياه. أقعدتني المرافقة على كرسي، أدت التحية العسكرية وانسحبت.

ظللت كالصنم، أترقب أن يفتحني الداعي بالكلام، وأدرك موضوع الدعوة ومحل إعرابي أمامه في هذا المكان الفاره الباذخ؛ لكنه بدا لي منصرفاً عني إلى حركات غريبة مشبوهة من تحت منضدته. وفجأة خرجت من هنا بالذات فتاة نصف عارية، واختفت وراء باب. استفحشت الأمر وأنا أرى القاضي

الزاني يسوي حزام سرواله ويعبُّ كؤوس ويسكي كما لو أنه ماء. اضطرت لإشعاره بحضوري أن أسعل متحسسا عليه نعيمة، وصعدت السعال ثم خفضته لأسمعه كأنه يهذي: فانتزمت النيك في الماء، وإتيان الحوامل من حيث حلل الشرع، والحاضات من الدبر، ومباشرة الأوانس الفاتئات المزاحمات تحت الطاولات، كل ذلك حققته ونلته، ولا سبق لي فيه ولا ادعاء...

أخذ الرجل يترنج على أريكته، مغمض العينين، ثملا. سلطت عليه سعالي مجددا، فتنبه وسأل من الساعل، عرفته بهويتي، استغرب وجودي فذكرته أنه هو من دعاني. فكّر قليلا، أمرني بالجلوس قريبا من منضدته مشروطا ألا أسعل. وحين نفذت، سمعته يقول بين عبة من كأسه ونفثة من سيفاره:

- هذي يا الوجدني فرصتك الأخيرة... الخلاص نصيبك إذا اغتنتمتها، والهلاك مآلك إذا ضيعتها... طوال سنوات عملي المديدة لم أعر على صنوك في العناد والصلابة. لكن وحق الحق، لن تكون شوكة في قدمي ولا حجرة عثرة في مشواري. أعطيتك الكثير من وقتي الثمين، بيد أنك لا تساوي بصلة أو خردلة؛ نهيت الغولة عن الإمعان في تعذيبك؛ أمرت بغسلك وتطهيرك، ثم بعلاج رجلك المعطوبة؛ عيّنتك للإفتاء وأنعمت عليك بهبات وهدايا في صينيتين؛ وأنت يا أجلف بادلت إحساني وإكرامياتي بصدودك وعقوقك، قابلتني بإقفال قلبك

بل صدرك كله في وجهي. بُحَتَ للجنة تسوية البنان باعترافات  
تسترت عليها في حضرتي، وعندى إحساس بل يقين أنك  
ما زلت تستر على أخرى، أخطرها حول الإرهابي ابن خالتك  
الحسين المصمودي ورهطه... الآن دقت ساعة الفصل، إما  
تُفرغ ما بقي في جعبتك، وإما عوضه تدخل سلك الخدمة،  
فأعفو عنك وأطوي ماضي صفحتك. وإن أجلفت ورفضت  
هذا وذاك، كانت نهايتك في جناح النادمين على يد أحد  
محترفي القتل والنحر وجبايرة الإجرام بالجملة. هناك حيث  
وكرك، لا أمان لك بالمرة على حياتك. وقد أعذر من أنذر.  
مصيرك إذن بين يديك. قرره فوراً، لا تبطئ.

قلقلت رثتي وما يمور به صدري نحو حلقومي وفمي،  
فأجبت القاضي الفاسق السكران بين سعلة وسعلة:

- سيدي... قلت ألف مرة في شأن ابن خالي... لا شيء لي  
أزيده عما سطرته في تقرير المرفوع إليك... إلا أن أفترى  
عليه الكذب، وهذا حرام... في الدين والأخلاق... أما الخدمة  
فمرضى يجعلني غير صالح لها... الطقس في مجمعكم لا  
يوافقني، وقد أمعن في نخر صحتي، كما ترى...

رأيت الرجل، وقد احتقن وجهه واحمر، يغادر موقعه  
ويهجم عليّ بصفعات متوالية، أمراً إياي ألا أسعل، وبعدها  
رفعني بيديه وعاجلني بضربة رأسية أرعفتني وكادت تمحق  
وعمي. اغتنمت عودته إلى أريكته وانشغاله بخمره ودخان،



فصحت: لا للعنف لا للعنف! أليست هذي عقيدتك حضرة القاضي! وفيما أنا أموه بهذا الكلام، حشوت عليه الدم في فمي وفعلت ما أوصتني به نعيمة، مزكيا مقداره بلحس رعفي، ثم دنوت من المحقق ساعلا، قاذفا بين يديّ نقط دم، شاكيا إليه سلمي وخوفي من أن أعديه. انتفض الرجل مبتعدا وتلثم بمنديل وهو يشير إلى باب خلفي ويزعق أمرا: ازهق يا مسلول. اغرب عن وجهي...

لم أذعن على الفور. بدا لي أن أتحامق قليلا حتى أعطي للقاضي الهائج المائج حجة أخرى للحكم عليّ بالإبعاد وإرجاعي إلى موطني. خطر لي: في هذا المعتقل الرهيب، لم يعد لي ما أفقده. سلمي سلاحني، صبح أم لم يصح. بناءً عليه أخذت أطارد القاضي المحقق في جنبات صالونه الفسيح، شاهرا عليه سعالا وبصاقي الدموي، متوعدا إياه بنيل نصيبه من سلمي، فيما هو بجثته الفيلية يفر بين أثاث المكان الكثيرة، مثبتا منديله على أنفه وفمه. مثل رئيسك الآن، يا نعيمة، كمثلي صبي مرعوب، يهرب من جنّ يلاحقه أو غول. لو رأيته هكذا خائفا مرتجفا، يتصبب عرقا ويلهث من شدة الإرهاق، إذن لسقط من عينيك تماما، وأدركت أن المستأسد المقرر في مصائر المعذبين مجرد كائن من ورق، يخشى الموت ويصغر أمامه كأني حقير رعديد.

حين رأيت حضرتّه يلجأ إلى المرحاض ويقفله عليه،

ارتأيتُ أن السلامة في أن أنهى سيركي، وأغادر الصالون على عجل من الباب الذي أشار لي إليه سعادة المختبئ. الباب يفتح على سرداب إسمنتى، تضيئه لمبات شاحبة، يصلح كمخرج إغاثة أو ما شابه. السرداب يقضي عنده إلى أرض رملية تيماء ذات رُبى وكديات، يكشف القمر البالغ أشده عن شساعتها وتراص كتلها الرتيبة. وقفت لحظة محتاراً، أحاول استبانة سبيل يهديني إلى مباني المعتقل، ويقيني شرَّ الهيام على وجهي في صحراء تضمن للتالف عديم الزاد والبوصلة موتاً محققاً، ولجثته دفناً تحت رمال هوجاء، أو نهايةً في بطون الطيور الجوارح والحيونات أكلة الجيف.

مضرباً عن موت رديء غير مشرف من ذاك الصنف، حكمت عقلي أو ما بقي لي منه. قدرت أن سيارة الجيب، التي نقلتني إلى حيث الآن أوجد، لم تقطع أكثر من خمس كيلومترات ونيف. فعليّ أن أسير في الاتجاه المعاكس معبئاً حواسي لالتقاط أصوات وروائح أو أضواء تهديني. وكذلك كان.

بعد مضي وقت واجتياز مسافة قست حجمها بإرهاقي واشتداد البرد الفارس عليّ، حملت الريح إلى مسمعي نباح كلاب أخذ شيئاً فشيئاً يعلو كلما حثت المشي وغالبت الخوف. وما هي إلا لحظات حتى برزت أمامي دورية جنود بكلابهم وكشاف ضوئي سلطوه عليّ بعد أن طوقوني وحصلوا

مني على هويتي ورقم زنراتي. لحظت بينهم أسيرا مكبلا،  
طلب مني رئيسهم تحت إنارتهم إن كنت أعرفه. ألقيت فمي  
الحجر حتى لا أنطق باسمه، عمر الرامي، تجاهلته من باب  
الحيلة والحذر، لكنه بادر إلى تذكيري بتلك الليلة التي قضّاها  
معي في زنراتي قبل أن تأمر الغولة باستئصال خصيته الثانية.  
سمحوا له بمعانقتي وتقبيلي، قال لي باكيا:

- أشهدك أخي أمام هؤلاء السادة أنني حاولت الهروب من  
المعتقل، وأقبل راضيا عقوبة الإعدام الصادرة ضدي.

منفعلا مرتبكا رددت عليه:

- لا يا عمر! هذا حكم جائر، عليك بطلب الاستئناف...

قاطعني الرئيس زاعقا:

- القانون هو القانون... سيطبق عليك أنت أيضا وقد ضبطناك  
في حالة فرار بينة. سأطلب تفعيل المادة الاستعجالية في شأنك،  
لأنك زدت على عمر الرامي بانتحال شخصية المدني ذي الزي  
الأنيق واعتمدت أسلوب الخداع والتمويه...

ركبت مضطربا جملة تفيد أنني أرتدي هذي البذلة غير  
السجنية نزولا عند طلب حضرة القاضي المحقق ودعوته  
لي. ضجّ الربع بققهقات الجنود الصاخبة وأصدائها حتى  
اضطر الضابط إلى إيقافها بإصدار أمر تنفيذ حكم الإعدام.

عصبوا عينيَّ عمر الرامي واصطفوا قبالة على بعد بضعة أمتار مصوّبين إليه بنادقهم. قربني منه الرئيس وسأله عن وصيته الأخيرة فقال: تسكنوا حمودة الوجدي هذا زناتي حتى يرث حوائجي ويرعى ذكراي، ثم تلا الشهادتين غير خائف ولا مرتجف. وبعد أن أبعدني من قربني، أعطى الأمر بإطلاق النار، فهوى صاحبي المسكين مضرجا بدمه، ثريه أنوار القمر الساطعة.

ناشدت الجمع، وأنا أحبس دمعِي وأرتعد من شدة الانفعال والبرد، أن يُدفن جثمان الميت بالتكبيرات الأربع والدعاء له. نهزني الرئيس بأمر اصطحابهم والتزام الصمت، لبيتُ بينا هو يلغو بصوت جافّ مستهتر: لا تكبير ولا دعاء ولا هم يحزنون. هذا حكم القانون في الفارين الفاشلين، وأيضا لا يدفن الفار لكون جثته لن يبقى منها بعد ساعات غير العظام والجمجمة، تتكفل الرمال العاصفة بطمرها إلى الأبد...

على باب بناية سجنية لم أتبين رقمها، سلمني الجنود إلى حارس غوريليّ البنية، وأمره رئيسهم أن يضعني مؤقتا في زنانة المتوفى عمر الرامي عنبر الساهرين. كان الممر المؤدي إلى عشي الجديد المؤقت يضم على جانبه زنازن ذات أبواب من قضبان حديدية تكشف عنها وعما يجري فيها. درجة الخلوة والحميمية بالغة هنا درجة الصفر، كحال الطقس أو أقل! بعد أن أوصد حارسي الباب دوني لم يكن في وسعي سوى

الارتقاء على اللحاف طمعا في نوم مبرم يريحني بعض الشيء  
من مخاطر الأمس ومشاقه.

ليس ضوء النهار الذي أيقظني بل ضجيج أنواع شتى من  
الوصلات الغنائية الراقصة، غمرت أصداؤها القوية مربعي  
في موجات صادمة متدافعة، ففتحت عيني على حلول الليل  
وإدراكي للمكان الذي أنا حلُّ به. قمت أنظر في الأمر.  
الزنازة قبالي تأوي شبح إنسان متعزم في لحافه، الراجح  
أنه نائم. صحت مرارا وتكرارا باستفساري ومطالبتي بحقي  
في الهدوء والراحة، ولا من مجيب. عدت القهقري، قبع  
في فراشي مفكرا في هذا البلاء الجديد المسالط، الصادر  
من ترانزستورات أو من أبواق مبثوثة في جدران وسقوف.  
محاولا صرف حواسي وأعصابي عنه، تلهيت بالنظر المركز  
في حوائج المرحوم الرامي، فلم أر في إرثه الضئيل سوى  
مذباغ من حجم متوسط سارعت إلى إخفائه، ومشط دائري  
الشكل، ومعجون أسنان في علبتين من دون فرشاة، وبذلة  
سجنية زرقاء بادرت إلى ارتدائها فوق بذلتي الرومية اتقاء  
للسعات البرد. بحاسة شمي رصدت شيئا من الطعام في  
كيس مختوم، فتحتة وهدأت تضور معدتي جوعا ببعض الخبز  
والزيتون وبطاطا مفردة مغلاة، ثم بماء أنبوب شحيح نظفت  
أنفي من مخاطه المحمر وأسنانني المتبقية بسبابتي المطلية  
بالمعجون. وحين تمددت طمعا في شيء من الراحة أو النوم  
كان هذا وتلك من رابع المستحيالات. الصخب الموسيقي

أخذ يقوى ويصم السمع كلما دارت عقارب الساعة، لا فتور يصيبه ولا تخفيف.

في الهزيع الأخير من الليل ساد الرحاب صمت فجائي. اهتبلته فرصة لجلب النعاس إليّ؛ لكن سرعان ما انطلق صوت مدوّ بالبسملة والحمدلة، أعقبه بكلام في الوعظ والإرشاد حول نواقض الوضوء وتجهيز الميت والتكبير والدعاء له، كما في ضرورة تفضيل المؤمن للصلاة على النوم، والتفكير أثناء الليل وأطراف النهار في عذاب القبرين نكير ومنكر، وفي الحشر ويوم الحساب؛ كلام يذكر بأفقر خطباء البوادي والأرياف وأغباهم؛ وكان خطيب آخر الزمان هذا يضمن هذره من حين لآخر بآيات كثيرة من الذكر الحكيم، تعالى كتابنا المقدس عن هذا المكان المندس المهين، وتلوها لاحنا بصوت أنكر من أصوات الحمير. وحين أفرغ ما في جعبته البئسة، وبحت حنجرته وعيت، أعقبها مباشرة أسطوانات الأهازيج والأغاني الفادحة الوقع والصخب، فاستعصى النوم واستحال. لمحت حارسا يمر أمامي، هرولت إلى قضباني وصرخت بتسألني واحتجاجي، فأشار لي بما يفيد أنه لا يسمعني، وانصرف.

بقيت وحدي أبرطم بكلمات السخط والتذمر. حشوت أذني بما استطعت من فئات الخبز المبلل، عصبتهما بربطة عنقي، لكن من دون أي فائدة تذكر. هذا الهرج الهائج المشعشع، المحطم للأعصاب حقاً، طريقة أخرى من طرائق ولاية المجمع

وطغاته في تعذيب السجناء ودفع أهشهم وأهزلهم إلى الانهيار والجنون. تلوث في نفسي ما قدرت عليه من الآي والأثر لاتقاء شرهم وإبطال كيدهم، وحسبي الله ونعم الوكيل...

الفجر لمن صلاه. صليته والحال في الجناح على ما كان، فلم يهدأ إلا مع انبلاج الصباح، حيث أتانني حارس بوجبة فطور، فرجوته أن يلتمس من النزلاء تخفيض موسيقاهم إلى آذانهم بالليل، رحمة بمن يريد النوم أو الاسترخاء، فأنبأني بصوت خشن رسمي أن المبدأ المؤسس لهذا الجناح يُلزم السجناء بترويض أجسامهم على فقدان عادة النعاس أو تعاطيه تحت إيقاعات الأهازيج الشعبية والأغاني العصرية، تتخلله نتف من خطب الفقهاء أيام الجمعة والأعياد... سألته عن سبب إحداث هذي الضوضاء في الليل وليس نهاراً، ردّ عليّ مستخفاً وهو يقفل راجعاً: السهر يكون بالليل، يا غبي! وتلك الموسيقى التي تأتيك فيه مجرد تداريب للسهرة الكبرى مساءً هذا اليوم. أما سمعت بها!

غاب الرجل تاركاً لساني يغلي بأكثر من سؤال:

السهرة الكبرى؟!

إذا دُعيت إليها فإن ألبي أخف عليّ من أن أقبع في هذا الدهليز الذي لا شك يسكنه أحياء ما هم بأحياء، وأشباح آدمية يعلم الله ما بها وما تنطوي عليه من قروح وأعطاب.

عدا التيمم فالصلاة التي صارت قرة عيني، ليس لي أن أملاً

فراغ نهاري بغير ما فطرت نفسي عليه: أن أقيع وأتوقع، أن أنكمش وأنكوم، محاولا النفاذ من سرتي إلى مكمني الجواني، حيث أبحث وأنقب، أناجي وأحاور، أتذكر وأستحضر، أحارب على توهم وأنتصر، أراود الأسئلة الحدية والعلامات القصوى، أتاخم القول المُحال، والإكسير الزئبقي العصي على النوال، أدور حول ذاتي كالشعبان، وأعض على أخصص قدمي ناشدا من النوم الهادئ قسطا، لعلي أغور في التأمل أكثر، وأستعيض عن واقعي المتصدع بالحلم المنير الأبهى. لكن هيهات هيهات!

ها الممر كله يعج بحركة أقدام وأصوات دؤوبة. ها أصحاب المحامل يخلون زنازن من ساكنيها المرضى أو الأموات، ضمنهم النزيل قدامي المتعزم دوما واثنان من جيرانه شملهم بصري وترحمني. ها صوتٌ بوقي يطن الآذان بإعلان واحد مكرور عن موعد السهرة الكبرى، وحثٌ جميع السجناء المعافين على حضورها، والعمل على إنجاحها بعد أن يمسحوا أطرافهم بالماء ويقطعوا دابر روائعهم الكريهة. ونبه المعلن أن كل من تشرف بالدعوة عليه أيضا بالتخلص من أي سلاح ولو كان شفرة، موسى، حجرة، وإلا فضحته المعابر والآلات الإلكترونية، وقضى في الكاشو عشرين يوما تباعا...

أطل عليّ صاحب البوق واستعجلني في تنفيذ أمر الطهارة، وراح يلغو بكلامه حتى انقطع صوته. نهضت متاقلا، مفكرا أن عصابة المجتمع يدعون توفرهم على آلات التقاط الروائح



الكريهة، فضحكت مكرها وأنا أخلع لباسي. قصدت الصنبور،  
كان ماؤه وافرا على غير عادته، بادرت إلى تنظيف قميصي ثم  
رش أطراف بدني، بدءا بالإبطيين والأليتين والعانة، وكللت ذلك  
بوضوء معتبر يستحق اسمه. أدبت ما عليّ من صلوات، وبعدها  
تربعت على لحافي أنتظر أن يجف قميصي وما قد يأتي.

هدوء غريب يخيم على الممر والزنازن لا أدري أيّ هرج  
سيبعه أو هيلة. خطر لي تجزيةً للوقت أن أصنع عطرا على  
قد الحال، أتطيب به وأتمضمض، وكذلك فعلت، إذ حللت  
قطعا من معجون الأسنان في كأس ماء وذوبتها ومخضتها حتى  
صارت سائلا صالحا لما توخيت. وبالمناسبة ترحمت على  
روح عمر الرامي الذي ورّثني من ذلك المعجون النادر الأعز  
علبتين، جزاه الله بأوفر منهما وأرفع في جنان الخلد.

وفيما أنا، متلففا ببطانيتي، أعرض قميصي لريح كوة  
في أعلى الجدار، سمعت أصواتا بين الصياح والخفوت،  
تحتج وتشكو، هذا يسأل كيف يشرف السهرة بحضوره، وهو  
يعاني من انحباس بولي، إذا خرج شيء من أيره فكشفات  
جارحة حادة؛ وذاك يطالب بالصابون كي يصح الغسل وإزالة  
الأوساخ ورواسب الجنابات؛ وثالث يستبعد حضوره السهرة  
وبذلته متسخة ولا بخور ولا ماء الزهر يتطيب بهما... أما ما  
فاه به آخرون فلم يصلني لبعد المسافة أو رداءة الصوت  
والموجة.

قيل غروب الشمس، كنت على أتم الاستعداد بعد أن

ارتديت بذلتي العصرية بما فيها ربطة العنق، ولبست فوقها بذلة  
عمر السجنية، وجددت مضمضتي وتطيتي بعطري الخصوصي،  
ومشطت لحيتي وبقيّة شعري. وما هي إلا لحظات حتى نادى  
عليّ حارس برقمي، واقتادني بين زنازن فارغة إلى بهو تجمع  
فيه سجناء كثر، لم أتعرف بينهم على أيّ واحد. معظمهم  
كانت لهم وجوه كالحة مكفهرة، كأنهم يذهبون إلى حتفهم  
أو إلى ماتم وليس إلى حفل كبير ساهر؛ أما أقليتهم من المنشرحين  
المبشورين، فيبدو من حركاتهم وتصنعاتهم أنهم محششون أو  
يعانون من انفلات عقلي.

دوت صفارة إيذانا بالمسير، فهش الحارس على الجمع كما  
يُهش على القطيع. تكاثرت أعداد السائرين مع اجتياز ردهات  
وأبهاء، وحين كان الخروج من البناية وتقصد أخرى عبر  
رحاب وساحات، عزلني جندي وأمرني بالمشي أمامه وتجنب  
السؤال. عند سفح تل رملي خال إلا من جنديين ورجل بعباءة  
فقيه، خاطبني هذا الأخير بعد أن بسمل وحوقل وتأكد من  
هويتي ورقمي السجني:

- صك ذنوبك وآثامك ثقیل، يا الوجدی! آخرها محاولتك  
الهروب من المركز واحتلال زنزانة لا تحمل رقمك... أجبني  
بما قلّ ودلّ: ألا تطلب التوبة؟

- لم أرتكب جنحة حتى أفعل... لم أهرب. كنت عند سعادة  
القاضي بدعوة منه.

تبارى الرجال كلهم في إطلاق القهقهات. عاد الفقيه إلى استنطائي:

- وهذا الادعاء بل الفيش جنحة أخرى تزيد في طينك بلة...  
قل لي ألا تخشى الموت؟

- قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

- إلى هذا الحد تسترخص روحك! هل لأنك لم تجد عملاً؟  
في زمان نفسي العطالة الملايينية كالوباء العضال، ألسنت تطلب شغلاً؟

- أطلبه إذا كان حلالاً شريفاً، يدر رزقا ويحفظ ماء الوجه.  
- أراك عصي الانقياد، غليظ الطبع، لا تستحق الرحمة ولا العفو. استعد للموت الآن، إما تدفن حياً وإما رمياً بالرصاص.  
الطريقة تُحدد لا بالأزلام، التي يحرمها الإسلام، بل بما لم يمنعه ديننا الحنيف بنص صريح، أي بيل أو فاص. أنت وحظك، أنت وزهرك. أي وجه تختار؟

مغالبا ذعري ورجفتي، أجبت:

- وجه الله وحده أختار...

- إذن هذي قطعة نقدية، أدورها عموديا في الهواء، وتنزل في راحتي بما اخترته عوضك. اتفقنا؟

فعل فقيه الزور ما ذكر، وعند نتيجة القرعة هجم عليّ يقبلني  
وبهنتني صائحا:

- نصيبك الرصاص وهو أرحم لك من أن تقبر حيا...  
يا سعدك! وحتى الرمي بالرصاص نوعان: إما يتكفل به الجنود  
فيصدر من بنادقهم حيا مدخنا أو مطاطيا لا يميت، وإما نعيرك  
مسدسا صامتا توجهه إلى صدغك فتخرج منه رصاصة عامرة  
أو لا شيء يميت عدا تجشؤ الزناد. أيّ حل تختار؟ هذي المرة  
لا مجيب غيرك...

أجبتّه ورأسي دائخ بكلامه الخبيث: ليكن الحل الأول،  
فطالب الجنود بأخذ موقعهم في المسافة الشرعية. وفيما أنا  
أردد الشهادتين دنا مني الرجل وهمس لي: أعفك من هذا  
الموت الوشيك إذا قبلت عرض القاضي المحقق، وأنت  
حفظته عن ظهر قلب. أومأت له بالرفض. إذ ذاك ابتعد قليلا  
وعدّ: ثلاثة إثنان واحد صفر... صدمتني الرصاصات دفعة  
واحدة. هويت على الأرض ولما لم أسلم الروح. حين رمقت  
سائلا أحمر يلطخ صدري لم أشكّ أنني أنزف دما وأحتضر.  
لكن طال احتضاري وطال انتظاري، فيما أصوات منفذي  
الإعدام فيّ تطرق سمعي مقهقهة مستهزئة؛ ثم وقع بصري  
أفقيا على حذاءين أمرني صاحبهما بالنهوض. نهضت مثاقلا،  
مشت الذهن، مفكّك الكيان. كان الأمر هو الفقيه، قال خانقا  
ضحكه:

- حتى الموت يمهلك بعض الوقت كي تفكر جديا وتتخذ  
الخيار الأنخلص... يا بختك! الدم على صدرك ليس سوى  
عصير الطماطم. امسحه واذهب إلى السهرة... اذهب.  
لبيت أمر العسكري المتنكر في عباءة فقيه، وسرت رفقة  
جندي إلى حيث أشار.

## السهرة الكبرى ومفاجأتها المفجعة

أوقفني مرافقي أمام باب وأمرني بالدخول، دخلت. أشار عليّ حارس باحتلال مقعد شاغر في مؤخرة القاعة، قعدت وأنا أستغرب عدم إخضاعني لكشاف الإلكتروني عن السلاح والرائحة الكريهة، ربما بسبب أنني أتيت متخلفاً أو أن الكلام عن ذلك الكشاف مجرد أكذوبة بلقاء وبهتان. سألت جليسا قدامي أين نحن؟ استعجم سؤالي، فوضحت: معتقلنا أين يوجد؟ أدار سبابته في صدغه وأشاح بنظره عني. بقيت راكناً، أغالب هجمة النوم عليّ بتنقيل نظري بين الأقفاء والظهور وبين العيون الملتفتة أو الرقيقة وما تزخر به القاعة وتمور.

القاعة حيث يجري الحفل الساهر هي قاعة المطعم الجماعي وقد أُعدَّت كمسرح، جمهوره المساجين بكل أطيافهم وألوانهم، يطوّقهم الحراس وبعض الجنود، ويخترقون صفوفهم أمام خشبة بارزة وسبعة، تتداول على إضاءتها لمبات

متعددة الأشكال والألوان، مترافضة على إيقاعات موسيقى بلوز خافتة. وكان بين الحضور الجالسين المنتظرين باعة متجولون بأكياسهم وسللهم، هذا يعرض مرطبات، وثانٍ مقبلات وساندويتشات، وثالث، الأنجع في تسويق سلعته بالجهر: يا ناس، اسمعوني أقول، إذا انخلص الفول، أنا مش مسؤول...

وافق قعودي بفارق زمني بسيط ظهورَ فتاة على الخشبة، تشي كل صفاتها الجسمية أنها، والله أعلم، السكرتيرة ناهد بوسني. ومن تنمة كلامها المفتح المغنّي، البازغ من شفيتين محمرتين باسمتين جدا خلف ميكروفون محمول، هذا ما التقطت:

- أي شيء يروي عطشكم؟ أي شيء تشربونه فتسري السعادة في حواسكم وأوصالكم؟ كي تولدوا من جديد وتتمتعوا بشبابكم اشربوا دائما ما أشربه: بيبي كولا... كل الشباب ما يشرب غير بيبي... بيبي كولا يعطي للنساء النشوة وللرجال القوة... والآن آخر ما تطبئه جعبي: أنا وحببي، لما يصيبنا الملل ونساق وراء المخاصمة والكراهة، نطرح فوراً على فراش ريشبوند، إذ ذاك تعود السعادة ويعود الحب... ريشبوند ريشبوند يا سلام!

حيّت الفتاة الجمهور، التي لا ريب عندي الآن أنها ناهد بوسني بالذات والصفات، ولو أنها عوضاً عن قلبها الرء غينا،

كما عهدتها ذهبت إلى قلب القاف ألفاء، واستقر يقيني حين سمعت أصوات سجناء ينادونها بذلك الاسم، ومنهم من يصيحون، وهي تنسحب متمايعة، بدعوتها إلى فراش التبن والحلفاء، فراش الفحول.

بعد المنسحبة، أتى إلى الخشبة من كولسها رجل سمين تام الصلع، مضفر اللحية، نزق المشية، كثير الهرولة والقفز، متشح ببذلة صفراء، يمسك بيد ميكروفونا، وبأخرى منديلا أحمر يلوح به تارة، ويمسح عرقه الغزير تارة، قال متختثا:

- جمهورنا الحبيب، دامت لكم الأفراح والمسرات... بعد تلك الوصلة الإشهارية، غابت صاحبته ذات الصوت الرخيم، كاملة الصورة والأوصاف، لكنها بفضل استقامتكم وتأدبهم ستؤوب. وأنا منشط الحفل أعود لأستأنف معكم جلسة تنقية الأجواء وإذابة الجليد وإزاحة عقابيل الحسيفة والشحناء بين الإخوة الأشقاء، وذلك تحت ظل الآية الكريمة: كلكم من آدم، وآدم من حواء.

تعالى الأصوات بالتصحيح فتمايح المنشط بالقبول والاعتذار ثم استأنف:

- أه سوري! اللسان ما فيه عظم... نظرنا من قبل في شكاوى وتظلمات بعضكم من بعض، فصلنا فيها من على هذي الخشبة إما بالإجماع وإما بالأغلبية، متوخين الإنصاف وتآلف القلوب والوسطية السمحاء. لم تبق إلا دعوى واحدة رفعها السجين



٦٩ الحاضر بيننا ضد السجين الغائب ١١٢... أرى يدا مرفوعة... لعلها للمدعى عليه... إذن تقدم إلى الخشبة صحبة المدعى... أسرعاً أسرعاً، الوقت يداهمنا... أنت المدعو حمودة الوجدي؟ حسناً... عليك ربطة عنق. إذن أنت إنسان متحضر، شيك! علال منخار هذا يتهمك بالتسبب له في ستين جلدة نالها بعد أن شجعتَه على التصفيق لك أثناء حصة تحقيق سابقة. نخيرك بين أن تُجلد الآن تحت أعين الشهود بمثلما جُلد هذا العبد المسكين، وبين أن تبوس رأسه وتطلب منه الصفح أمام الملاء...

لم يكن في وسعي لختم هذي المسخرة إلا أن آخذ بالخيار الثاني. وفيما أنا أستمح غريمي بالميكرو أمام الجمهور، تعلق عيناى برجلين جالسين جنباً إلى جنب في الصف الأول. عاد المنشط إلى تناول الكلمة وهو يحثني على الانصراف، كما فعل المدعى، قال:

الحمد لله والشكر له. وصالت البوسة وطُوي الملف على الهواء مباشرة... ما لك يا الوجدي تقف جامدا كالصنم؟ هل تستأنف الحكم؟

نعتّ الرجلين وصحت:

- هذا وصاحبه أعرفهما...

- هل لك دعوى ضدّهما؟

- هذا إلياس بوشامة، أُعدم منذ مدة في ساحة المجمع أمام الشهود، وهو الآن هنا حيّ يُرزق! وذاك عمر الرامي، أُعدم أمام عينيّ بالأمس فقط، وهو هنا الآن حيّ يُرزق!

نقل المنشط كلامي بآلته فأثار زوبعة من الضحك.  
سألني:

- الوقت يداهمنا. اختر أحد الاثنين في مواجهة تكون لك أو عليك.

أشرت إلى عمر الرامي فأقبل. سعت إلى معانقته وتقيله، فتبرم وأجفل. سأله متوددا والمنشط يدير بيننا الميكرو:

- بأي أعجوبة بل معجزة ربانية عدت للحياة، بعد أن أفرغ الجنود فيك كمية هائلة من الرصاص؟  
أجاب بصوت خشن أجش:

- لم يحدث لي أبدا ما تقول، يا هذا. أنت أكيد غلطان...

- لا أخي! تذكر ليلة وضعوك في زنزانتني، بعد أن أخرجوك من غرفة التعذيب مشخنا بأنكى الجراح، شبه ميت، فأسعفتك وواسيتك... تذكر أرجوك...

- هذا الرجل يا ناس يخط ويخرّف. كل ما تقوله محض كذب وافتراء!

تدخل المنشط هاتفا:

- هذا نزاع لا بد من فضه سريعا للعودة إلى برنامجنا الحافل.  
من منكم يا سادة يقترح طريقة أو حلاً...

تعالّت بعض الأصوات منادية بتطبيق أحد مبادئ الشريعة:  
البينة على من ادعى واليمين على من أنكر؛ وتطالبني أخرى  
بذكر أوصاف أو أمارات حميمية في جسم الميت المبعوث.  
أخذ مني المنشط موافقتي على الاقتراح. اعترض بدءاً على  
احتجاجي بملكية عمر للبذلة التي أرنديها لكون البذلات  
السجنية كلها تتشابه. عندئذ بثت في أذنه أمر افتقاد عمر الرامي  
لخصيئته، فحدجني بنظرات مبهمة وأطلق سلسلة ضحكات  
أشبه ما تكون بالزغاريد، سرعان ما انتقلت عدواها إلى فئات  
من الجمهور، ثم قال بين قهقهة مصفرة وأخرى:

- لا لا مش معقول! هذي جوهرة فريدة لن تنسوها حتى لو  
نسيتم سهرتنا برمتها... اسمعوها، يا سادة، وعوها كيما يكون  
لكم من بعد، في هذي النازلة كما في سابقاتها، الكلمة الفصل  
والحكم النافذ... الجدع ذا يصف غريمه بالخصي، أي بافتقاره  
إلى خصيئته... تصوروا هول التهمة!

ضجت بعض جنابات القاعة بضحكات مدوية تعضدها  
أخرى آلية. ارتفعت أصوات طارحة أسئلة غير مسموعة، فعلق  
المنشط:

- كم هائل من المداخلات عبرتم عنها بكل حرية على الهواء

مباشرة. أُعَيِّنَ هذا المشاهد في الصف الأول أمامي لتجميعها في رأي واحد. خذ الميكرو وأعلن عنه بكل شفافية ونزاهة...

تناول المعين الآلة، فتذكرت للتو أنني تعرفت عليه في جناح التائبين. وكيف أنساه وهو ممن استعملوا جسمي كتلة للترييض! أثرت السكوت حتى لا أزيد في تعويض أمري. قال:

- أستخلص مما ذهب إليه الجمهور الموقر أن يتخبوا اللجنة من النزهاء الثقافات، تُعهد إليها مهمة التحقيق في الأمر عن كذب. فإن ثبت لها بالفحص والمعاينة أن المدعى عليه تنقصه خصيته، تُوبع بجنحة التستر والكذب، وإذا انتهت إلى عكس ذلك حُكم على المدعي بالإخصاء الوتري، مراعاةً للظروف المخففة. هذا هذا والسلام.

سأل المنشط إن كان الطرفان المعنيان يقبلان بهذا العرض. بادر غريمي بالإيجاب، وعقبت أنا بالاعتذار، ثم اعترفت في الميكرو الممدود لي بغلطتي وبكون الرجل إنما شُبّه لي. لكن عمر قبالي، الذي لا شك في هويته، جذبني من ربطة عنقي وطاف بي الخشبة مرتين، فيما المنشط يولول ويهتف لا للعنف، آمرا إيانا بالعودة إلى مقعدينا سالمين، ثم استدرك مغتبطا:

- قبل أن تلحق بمقعد، ضع يا الوجدني بوسة على رأس هذا الفحل البريء... هكذا نكون بعون الله قد تقينا كل الأجواء وأذبنا الجليد وأزحنا عقابيل الحسيفة والشحناء بين الإخوة

الأشقاء... سهرتنا مستمرة نونستوب على الأثير مباشرة...  
والآن يطيب لي أن أرف إليكم هذا الخبر السعيد: بعد قليل  
سيشرف سهرتنا بحضورهم بعض أعيان مجتمعا، إلا فخامة  
القاضي المحقق الذي اضطر للسفر إلى الخارج لإجراء فحوص  
طبية روتينية... أعود إليكم لأكرر على مسامعكم ما قلته من  
قبل: مبدؤنا شعارنا التداوي بالمرح والحفلة أي بالمرح  
الاحتفالي وبالموسيقى الراقصة والرقص الموسيقي... مبدؤنا  
شعارنا صفقوا له صفقوا...

من بافلات ضخمة معلقة بأعلى الأعمدة والزوايا، انبعثت  
تصفيقات آلية، لم تعززها تصفيقات معظم الحضور إلا بنغرات  
وهمزات من هراوات الحرس وأيديهم، نلت منها حصتي وأنا  
أستبشر خيرا بخبر سفر المحقق لإجراء فحوص طبية، أرجو  
الله أن تكون ذات صلة بلقائي الأخير به وتمارضي الموفق  
أمامه. استأنف المنشط كلامه متحمسا:

- شكرا على تصفيقاتكم الحارة الصادقة... الآن قبل ذلك  
كله، هذا خبير أمريكي في الشؤون الإسلامية، يريد تبليغكم  
بلغة الضاد كلمة وجيزة في ما انتهت إليه أبحاثه وحفريات...  
تقبلون؟ إذن ليتقدم الدكتور جورج ليفي مشكورا.

أقبل المنادى عليه بزي مدني لافت وربطة عنق فراشية، قصد  
الميكرو الثابت، حتى الجمهور بانتسامة صفراء متوددة، قال:

- حضرات السادة... أتشرف بأن أحاطب جمعكم الموقر

بلغتكم العظيمة العصماء، التي نزل بها القرآن الكريم. واسمحوا لي إذا أخطأت في النحو أو نطقت بكلمات على غير ما يلزم. وللتقليل من هفواتي سأعمل بنصيحة «اجزم تسلم»، اقتداء بما بُني عليه الإسلام الحق، أي السماحة والتسامح والتيسير واللطف. ألا تعلمون أن اللطيف والغفار والرحيم من أسماء الله الحسنی! ألم تقرأوا في الذكر العزيز قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ثم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. يُقال الأصولية بشتى صنوفها ردة فعل لحيوان جريح. لكن من يجرح نفسه ويجرح الناس حتى القتل غير دعاة العنف والغلو والإكراه، وسوى ذلك مما نهى عنه الإسلام، دين المسالمة والسلام، كما يدل عليه نزوعه الصوفي، الصوفت أو اللايت؛ إنه دين الوسطية والوئام والمجادلة بالتي هي أحسن، دين اتباع القول الأحسن، ولو تعلق الأمر بالقرآن، القابل جدا للتكيف مع مستلزمات العصر وضروراته، وبالتالي لإعادة الهيكلة والليفتينغ؛ إنه دين لا للحروب، لا للتسلح إلا بما خف وكفى لدحر أعداء الأمن الداخلي، لا لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، لأن الإسلام جوهرها دين الليونة والمرونة والوداعة واللطافة وخفض الجناح والجنوح إلى الهدوء والسلم... كما أبين ذلك في محاضرة مقبلة، والسلام...

اضطر المتكلم الخطيب إلى التوقف والهرولة من حيث جاء، بعد أن ضجت القاعة بالاحتجاجات ضده، وانهال عليه

سيل من النعال، فاعتقل الحرس بعض أصحابها. غير أن سجيناً، كمارد، تسلل إلى وسط الخشبة وصاح في الميكرو الثابت: يكفي لدحض كلام الأمريكي السخيف أن تسمعوا آخر تصريح التقطته من ترانزستوري قبل أن يخطفوه مني، وهو لرئيس الحكومة الإسرائيلية يهود أولمرت، قال: إذا لم تتوقف حماس عن تخويف أطفالنا وعجائزنا بقذائفها التقليدية الصنع، فسندمر غزة ونتركها أثراً بعد عين. وذهب فطاحل الحزبين الكبيرين والطوائف الأخرى إلى التنافس في إعلان إسرائيل دولة يهودية نقيّة خالصة وفرض تجريد الفلسطينيين من السلاح بما فيه السلاح الديني؛ ونطق وزير الحربية باسم كل هؤلاء وأصالة عن نفسه بما هو أدهى وأشرس، اسمعوه...

لم يكمل الرجل جملته حتى اقتربت منه ناهد بوسني على رؤوس قدميها، فرشت وجهه بمرذاذ فاحت رائحة فلفل الحار في أرجاء القاعة، ثم عادت من حيث أتت، ونقل حارسان المنطرح المغمى عليه عبر باب إغاثة، وسط موجة احتجاجات من بعض الجمهور.

مع عودة السكون الذي فرضه الجند والحرس، رجع المنشط إلى الخشبة صحبة جماعة عليهم سموت الزهاد وال دراويش، قال وهو في غاية النرفزة وينقر الخشبة بقدميه:

- ويلي ويلي! قلت لكم في البداية بلاش سياسة بلاش  
بلاش! السياسة تفرّق القلوب، وتزرع سموم الفتنة وبذور

الحروب، ونحن هنا مرادنا تنقية الأجواء وإذابة الجليد وإزاحة عقايل الحسيفة والشحناء بين الإخوة الأشقاء... الآن وقد عاد إليّ هدوئي، لنرجع إلى سهرتنا البهيجة... مبدؤنا شعارنا، كما سبق أن ذكرت يا سادة، هو التداوي بالموسيقى الراقصة. هذي فرقة تفتقت عبقريتها عن مزاجية الحضرة الصوفية بأنغام التكنو الشهيرة، كما حصل بين الجاز وطرب گناوة، وتسموا بأحرفهم الأولى هكذا T T I، أي ترانستكنو إنترناسيونال، وهم هنا معنا ليشنفوا أسماعنا بقطعة من إبداعهم. ومن منكم هاج وجدّه وغلت روحه وأحب الإسهام في الرقص، فله ذلك على السعة والرحب... اثري... تو... وان... زيرو...

من البافلات صعدت موسيقى التكنو بقوة تصم الآذان، فيما الفرقة على شكل دائري يدخلون في جذبة جنونية، اشرأبت فيها الأعناق، وترنحت الرؤوس والأبدان، وغمضت العيون من شدة التأثير والانفعال، وتنافست الأفواه في هدير فائض لا يسمع منه سوى «الله حي». كان بعض الجمهور يشاركون الفرقة جذبتها، وبعضهم، وأنا معهم، يرفعون عقيرتهم بقراءة اللطيف وترديد أسماء الله الحسنی.

توقفت فجأة ضوضاء التكنو، فانسحبت الفرقة تحت تصفيقات معظمها آلیة. بعدئذ عاد المنشط فرحا جذلان. قال:

- شكرا شكرا الفرقة T T I. سهرتنا الموفقة مستمرة... مبدؤنا شعارنا الآخر: التداوي بالهزل والتسلي، كما دأب عليه السلف



الصالح، المبشورون، المتبسمون، المقتدون بنبينا المرسل،  
عليه أزكى السلام، إذ روي عنه أنه كان إذا رأى فرجة نصّ.  
أقول إذن لا للكلوح والتجهم، لا للانقباض والعبوس...

وفيما هو يتمايل بجسمه الضخم ويرقص، عبرت الخشبة  
فرقة عازقة مغنية على طريقة الراب: نصوا يا ناس نصوا/  
بصوا يا ناس بصوا/ تفرجوا تفرجوا/ تنعموا تنعموا/ ترمّموا  
تغنموا/ الدنيا تمر وتفتوت/ واللي ما يضحك عليها/ بهمومها  
يذبل ويموت...

- إذن (أردف المنشط) علينا بحصة من الضحك الحلال،  
يتكفل بها مهرج المركز المحلّف، المقتدي بأئمة الهزل  
والتنكيت، والتفكه والتفويج، وكلها ملح الحياة وترياق الغم  
والتقيط... صفقوا للقرم الظريف، صاحب اللحية البيضاء  
الطولى والأير الخبير، سليل الدوحة الضاحكة، وورث شيوخ  
القول المرح الخليع، الذين يشفع لهم الشعار المأثور: لا حياة  
في الدين؛ ومنهم تمثيلا لا حصرا الجاحظ والتوحيدى وابن  
الجوزية والسيوطي والتفاشي والنزاي، وغيرهم كثير، رحمة  
الله عليهم أجمعين، ونفعنا بذكرهم وذكرهم وغفر لنا ولهم،  
قولوا آمين...

لبت الأمر أصوات متحمسة وأخرى فاترة. وبعدها  
ظهرت من باب خلف الخشبة جماعة من مدراء المجمع  
وأكابره، وكانوا سبعة، تبرز بينهم الغولة بجسمها المهول،

الأسود الملبس، وبنظراتها الفالطة الشزراء، فهب المنشط لاستقبالهم ومصاحبتهم إلى منصتهم المخصصة، منحيا مرحبا، ثم توجه إلى الجمهور بأمر الوقوف لهم وتحيتهم بالتصفيق. أطاعته فئات وعصته أخرى، فأقبل الحرس على هؤلاء بالضرب والتهديد حتى وقف الجميع مصنفين، فيما البافلات تبث سيلا جارفا من التصنيفات الآلية ومعزوفات عسكرية غريبة، ما أنزل الله بها من سلطان. وحين انتهت هذه المسخرة، تربع الأعيان على أرائكهم، واقتعد الجمهور كراسيهم، والمنشط يجزل لهم الشكر على حرارة استقبالهم للأعيان الأجلاء وصدق مشاعرهم تجاههم؛ ثم نادى على القزم المهرج لعرض نمرة بخفة وإتقان. مثل المنادى عليه فبايع أسياده المتكئين واحدا واحدا، ولحيته الشيطانية تكاد تكنس الخشبة، ثم تناول الميكرو وقال تحت ضحكات الجمهور الهازئة المستهترة:

- أيها الأسرى الأعزاء، يا أحبابنا في الله... هل أتاكم خبر ظريف زير، كان يشيد بإحدى غوانيه، وبأدائها الجنسي عبر تقنيات وضيعة عز نظيرها، وضمير مهني لا يضاهي. سئل هل تدخل الغانية الجنة أم لا؟ أجاب بما يستحق الضحك والتصفيق: لا تدخلها، اللهم إلا إذا تبطنتها يوم الحشر، واجتزت الصراط هكذا معها، فولجت الجنة تحت جبتي...

انفردت البافلات بالضحك الآلي، وبعده أردف المهرج  
قائلاً:

- حفظكم الله من الكبت والقصور الجماعي. هذا راهب  
عجوز على مقعده في حافلة مكتظة بالركاب، تقف بجواره  
فتاة فاتنة حسناء، ما فتئت بعد ضربة حصار مفاجئة أن فقدت  
توازنها وهوت بمؤخرتها الأنيقة في حجر الراهب المرتبك،  
ثم استقامت محمرة الخدين، معذرة، ملتمسة عفو. أجابها  
منفعلاً: لك العفو كله يا ابنتي. ما فعلت سوى إيقاظ مفتاح  
الكنيسة من سباته العميق.

دوّت الضحكات الآلية متبوعة بأخرى لمن أدرك رمزية  
النكتة فوراً أو بعد هنيهة. وعاد المهرج طرباً متبسماً، قال:

- بدأتّم تستملحون نكتي. أراكم تطلبون المزيد، لكن  
البرنامج حافل والوقت ضيق. واحدة أخرى هي ملحّة الوداع.  
هذا شيخ يعشق الغلمان، وقعت عينه ذات مرة على واحد ذي  
رونق وجمال، تبعه يراوده عن نفسه، يكّد في ذلك ويجهّد.  
ركب الفتى حافلة، ففعل مثله ووقف لاصقاً بظهره يبت في  
أذنه كلاماً. أوماً المتبوع بقبوله ورضاه، لكن الشيخ أخذ يهمز  
طيز معشوقه ويبالغ، فسأله المهموز متضايقاً: خلاص اتفقنا...  
تغزني كذا ليه؟ أجاب: أنغزك، حبيبي، عشان أذكرك...

تلت ذلك مباشرة عاصفة قهقهات منكرة، أطلقتها الغولة  
من مكبر صوتيّ أمامها، فردتها البافلات وضخمتها في صعقات

متدافعة متصاعدة. وحين صرمتها بغتة، مثل أمامها المهرج  
القرم، قام بحركات بهلوانية عجيبة، كأنه يهديها لمولاته  
وحاميته دون سواها، وحين تعب حبا نحوها واختفى وراء  
أذيالها.

عاد المنشط مصطنعا ابتسامة عريضة، قال:

- قاتلك الله يا إمام المهرجين وشيخ الأقزام! الآن جاء دور  
العملاق الأسود، خديم هذي الديار، الغني تماما عن التعريف.  
سمعتم لا شك في يوم ما، دامت لكم المسرات، قرعات الطم  
الطم على الطبول، الناشئة المترعرة في أدغال إفريقيا السوداء،  
لكن لم تسمعوا قط أقوى وأتقن من التي سيشنفنا بها عملاقنا.  
والعجب الأعجب في أدائه أنه، هو القارع، لا يسمع شيئا من  
قرعاته، سواء خفت أم دوت، لأنه، كما تعلمون، من الصمِّ  
البكم، والعياذ بالله... إنه قريبا آت... صفقوا له شجعوه...  
عدّوا معي أثري تو وان زيرو...

فعلا، أقبل العملاق بطبله الإفريقي إلى وسط الخشبة.  
تطلعتُ إليه معتليا مقعدي، فكنت من أول الواقفين له،  
المتكاثرين، المصفقين حقيقةً وصدقا، لا بالتهديد والإكراه،  
الهاتفين بحياته والدعاء لقارته وأمته وقبيلته. وبعد أن تدخل  
الحرس لإسكات الواقفين الهاتفين وإجلاسهم، ركع العملاق  
للجمهور، وظل على هيئته هاته وطبله بين ركبتيه، فأخذ بين  
نقر على آلتة وقرع ولطم يُحدث أنغاما يتجاذبها الخفوت

والتوسط والعلو، فتبعث كلها على الطرب والنشوة فالرغبة في  
الاهتزاز والرقص. كذلك كان، إذ ما سخن الجو وحمي حتى  
شرع أفراد يقفون راقصين، يليهم آخرون، فساد الرفس والعفس  
والخبط والركل وتحريك الرؤوس والأيدي والأبدان دائريا، ميليا،  
حلزونيا، تنطعيا. دعاني راقص إلى مشاركة الجماعة، اعتذرت  
برجلي النعقة. لم يسمعي. جذبني حذاءه، فطفقت أقلده بما  
قل واستطعت.

طال المشهد الراقص مدة فأخرى، فشل المنشط في  
إيقافه، والراقصون، وقد استطابوه، أمسوا كأنهم به يتطهرون  
من أدرانٍ وكبوتات، ويرمونها عرقا متصبيا وزفرات وآهات  
جوفية حرى مزبدة. عاود المنشط الكرة لإطفاء لهيب الفتنة،  
وتذرع بأعلى صوته الميكرفوني بأن الحفل الساهر ما زال  
في برنامجهِ الكثير، مذكرا أن ختامه المسكي سيعرف تقديم  
الأفواج والطلائع الجديدة من الأسرى التائبين، خريجي  
الهداية إلى سبل التعاون على البر والتقوى، واستئصال  
التطرف والإرهاب من البسيطة وكل أنحاء الدنيا. ولما لم  
ينفع كلامه في شيء، دنا من العملاق يلاطفه ويداريه، مشيرا  
عليه بإنهاء نمرته والاختفاء، فلم يلق منه سوى الإعراض  
متبوعا بضربة إبعاد أسقطته أرضا.

آنئذ نهضت الغولة نافرة متعجرفة، قصدت عونها وخديمها  
بخطوات ثقيلة خابطة، ووجهٍ ساخطٍ خطير. أمرته إيماءً برمي

طلبه ففعل، وبالسجود لها وبوس قدميها فلبى. طلبت مكبرها الصوتي ولغطت بخليط ألفاظ فرنسية وإنجليزية وعربية، تفيد أنها اشتغلت من قبل في سركات عالمية كمروضة للأسود والنمور وحيوانات وحشية أخرى، وأن ترويض العبد الزنجي الساجد الآن لها، المقبل قدميها، أهون عليها من ترويض قرد أو حمار جافل. وبعد ذلك توجهت إلى الجمهور بكلمات تهديد ووعيد بالكاشو المؤبد وأففاص التدمير لكل من تسول له نفسه التنطع والزيغ عن النظام والطاعة.

لكن ما إن سكنت المرعدة المزیدة، مستردة أنفاسها استعدادا للمزيد من التشديق بالكلام الناري المهيمن حتى شاهد الجمع كله عجا: العملاق بغتةً ينتفض واقفا وفوق كتفيه الضخمتين الغولة، فطاف بها الخشبة وهي، مغالبة ذهولها، تحيي الجمهور وترفع شارة النصر تحت عاصفة من التصفیقات الآلية. وتعظم العجب وساد، إذ ما لبث الحامل أن خبط محمولته بقوة على الخشبة، تحت أنظار كل الحضور، الجاحظة المدهوشة، ثم انقض عليها يغرز أصابعه في عينيها وهي تصرخ وتستغيث، ويكيل لرأسها ضربات ماحقة دامية، ويمزق بطنها كأنه يروم إخراج أمعائها وأعضائها. وما إن خلت الخشبة من المنشط والأعيان الفارين، حتى أطلق الجنود والحرس وابلا من الرصاص على العملاق الذي بادر إلى التدرق متمددا ثم واقفا بجسم الغولة المضرج بالدماء. ولما تيقن المسلحون أن رؤسهم تُحتضر أو أمست جثة هامة

بين يديّ محتجزها، تلقوا الأمر باجتياح الخشبة واستهداف العملاق من كل صوب. وكذلك فعلوا بحيث أشبعوا جسم المستهدف رصاصا من دون أن يعفوا منه الغولة الميتة، فهوى الجسمان في بركة من الدم الوافر السيل.

عندئذ حدثت في القاعة حركة تمرّد واشتباكات عنيفة بين أطراف من السجناء من جهة، وكنت معهم، وبين الحرس وفئات من الأسرى من جهة. فتدخل الجنود يعضدون هؤلاء ويطلقون على أولئك الذخيرة الحية في الهواء وبين أرجلهم، مصحوبة بالقنابل المسيلة للدموع. وفي جو الهلع والرعب المتفشي والتراحم نحو الأبواب والمنافذ، تلقيت ضربة على قفائي من أحمص بندقية، فسقطت بين آخرين نازفا، مغمى عليّ.

## عودتي إلى أرضي الحبيبة

استيقاظي كان في عنبر المستوصف بين جرحى كثر. بجهد  
 جهيد حاولت تذكر ما حدث لي منذ وقت صُعْبَ عليّ تقديره.  
 استرجعت بعض خيوط الشريط ومحطاته. لكن سرعان ما  
 أوقفتُ تذكري بسبب شقيقة أَلمت برأسي، ثم تظاهرتُ بالنوم  
 ما إن أبصرتُ نعيمة رفقة صاحبها الطيبة النصرانية ورجل  
 أجنبي يقصدون سريري بأفئدتهم الطيبة. وفي ما دار بين الثلاثة  
 من كلام بالإنجليزية، وفقني الله إلى فهم أن الطيبة تحاول  
 إقناع الرجل بكوني مسلولاً أبصق الدم، تُشهد على ذلك نعيمة  
 وتنصح بإرجاعي إلى موطني، لأنني صحياً لا أصلح لأي  
 خدمة، وقد أكون وبالاً على سكان المجتمع كلهم... كان ذلك  
 آخر ما سمعته قبل أن أحس بيد نعيمة تلامس وجهي وألمح  
 الثلاثة ينتقلون بين أسرة أخرى ثم يغادرون العنبر.

شعرت للتو بفرح ولو مشوب بالحذر. ساعة الفرج عما



قريب تدق إذا لم يطلب الرجل الأجنبي إخضاعني لفحوص طبية مراقبة. لم يدر في خلدي - وهذا ما حدث! - أن ينتفض مريض بجوارري واقفا على سريره ويصيح ملء حلقومه: يا ناس! هذا الرجل مسلول، أرسلوه بيننا ليصينا بدائه المعدي. إما يطردونه في الحال وإما نخلي جميعا هذا المكان...

أعقب تحذير المريض كلمات استنكار وتنديد، ثم تأهب معظمهم للفرار، وأوشكوا عليه لولا قدوم فرقة التدخل السريع، فأطفأوا نار الفتنة بطرائقهم الخاصة، وبعد أن فهم رئيسهم السبب، أمر بعزلي في مربع موصد، وهنا حمدت الله كثيرا على ما حصل، واستبشرت به يمنا وخيرا.

في عز الليل أتاني زائر مقنع، استلم خاصرة يدي اليسرى، ركبَ فيها دمليجا وصفه بالإلكتروني، يُخبر كوادر المجتمع وخبراءه عبر شاشات هائي تك بكل حركات حامله وسكناته. أنبأني أنني عما قريب سأرخل، ناصحا إياي بعدم محاولة إبلاغ أي شخص أو أي جهة عن إقامتي السحنية أو سبب غيبي، وإلا أحدث لي الدمليج فورا سكتة قلبية ماحقة حتى قبل أن أفتح فمي، وفي حالة أي عطب تقني، فإن قناصا محترفا سيترصدني برصاصة صامتة ثابتة يصوبها إلى رأسي، ثم إن الزائر وخزني بحقته وغاب، وبعده غبت تماما عن وعيي...

لا ريب أنهم أثناء ترحيلي جددوا مرارا حقني بمخدر شديد

الفعالية، مديد الأجل، بحيث لم أشعر بأي شيء عن واسطة النقل وكيفيته وحيثياته، فلم أفق إلا وأنا تحت ظل نخلة أحمل كيسا يحوي بعض الأكل المصبر وزجاجة ماء وقطع نقود مغربية. تأكد لي أنني أصبحت في ذمة أرضي الحبية بعد أن أقبل جمّال وسألني بعامية المغرب الفصيحة إن كنت أحتاج عوناً. شكرته واستفسرته عن اليوم الذي نحن فيه، قال الأربعاء ربيع الثاني ١٤٢٥ الموافق ١٧ ماي ٢٠٠٦. همهمت: إذن حبسي ناهز خمس سنين. سألني الرجل قلّقا إن كنت أحتاج شيئاً. أجبت: نعم، أقرب قرية بها مسجد، قال إنها عبو الأكحل، تُرى من هنا رأي العين، وأنه سيعبرها. استقمت واقفا فأركبني خلفه وأطلق العنان لدابته مهللاً مرحباً.

أثناء الطريق سألني عما أتى بي إلى هذي البقاع النائية. أجبت وأنا أنظر دمليجي: حبُّ بلادي وصحرائها ورغبتني في مشاهدة البدر عن كثب وسماء النجوم اللاألاء. استحسن فعلي وأثنى عليه، وجوّد بصوت كوثر ري رحيم: ﴿وَاللَّهُ جَمَلٌ لِّكُلِّ لَازِرٍ﴾ [نوح: ٢٠] صدق ربنا العظيم. أنبأته أنني قاصد من بعد مدينة مسكني وجدة، فقال الطريق إليها، والحمد لله، سالك عبر شاحنات وسيارات وحافلات أجرة. ولما وصلنا، خلع عليّ سلهامه وتركني قرب الجامع الأوحّد في القرية استأنف ترحاله بعد أن استحلّفتني أنّي لا أحتاج شيئاً.

دخلت الجامع حيث توضأت وصليت الفروض والنوافل  
شكرا لله على سلامتي وخلاصي. بتّ في صحن الجامع مع  
جمع من الغرباء وأبناء السبيل، وفي الغد ركبت وسائل نقل  
شتى في اتجاه مدينة مستقري.

## تذييل

(أ)

نعم يا نعيمة، أنعمك الله ونعمك!

هنا في سهل أنكاد قريبا من وجدة، اخترت مثواي منذ رجوعي إلى وطني. البلدة فلاحية رعوية، نقية الهواء، طاهرة الماء. أصوات الطيور والدواجن والدواب وريح شمالية طيبة تهب من مرتفعات بني سناسن، فتتضافر في هذا الفصل الربيعي على إلهائي، ولو بين حين وحين، عن سنواتي الجمرية وركام جراحي وآلامي.

بوصية من رجل خير صالح، حمدان المزاتي، مالك الضيعة حيث أقيم، تسهر أرملة وبناتها العزباء على راحتي وترميم جسمي بتغذية طبيعية وأعشاب شتى. استعدت بفضل الله وعناية المرأتين الإقبال على النوم مخلصا شيئا فشيئا من عادات الأرق والكوابيس السجنية، كما صرفتُ نهارات شهر متفيا ظلال سنديانة معمرة وارقة، وأماسيه تحت سراج وهاج في

بيت مفتوح وسيع، أحرر على الورق فصول شهادتي السجنية  
وأُحرر ما استطعت من ذكرياتي الموجهة ورواسب المحنة  
السائبة في جسدي ونفسي.

أثناء ذلك وبين صلاة وأخرى، في رجب الخير هذا، كانت  
قريحتي تتقد وملكاتي تفور وتغلي، فتسيل شآبيب الكلمات  
والصور على لساني فورقي عبر قلبي. وحين آخذ وقتا للراحة  
أو للأكل تسألني مضيفتي خدوج وبتها زينب عما أفعل، فأحكي  
لهما نتفا وجيزة، إذّاك ترمي الأم حجابها على الأرض وتنفجر  
بالأدعية الساخطة الحامية على الطغاة الكفرة الظالمين الجانين  
عليّ، فيما الفتاة من مقلتين محمرتين ترسل الدموع الغزار،  
فأبادر إلى مسحها بمنديلي وراحتي.

صبيحة يوم بهيّ الطلعة، بدا لي أن أقتعد تجويفا بأعلى  
السنديانة لأضع اللمسات الأخيرة لمخطوطتي وأصحح وأنقح،  
مصحوبا بمنطق الطير القاتن. وكذلك فعلت. لكن ما إن انصرفت  
إلى عملي تماما حتى أوقفته لحظة جراء رؤيتي زينب تجري في  
كل اتجاه، كغزال مولّه جُنّ، تناديني ملء صوتها وتترجاني أن  
أظهر، فيما أمها تأمرها أن تهدأ وترزن. وحين نزلتُ إلى مكاني  
المعتاد، هرولت الفتاة نحوي، لاهثة، متنفسة الصعداء، فشملتني  
بنظرات مبللة بالدمع، لم أر منذ زمان أدفا منها ولا أعمق ولا  
ألمع، ثم فرّت إذ لمحت أمها تقصديني حاملة طبق فطوري.

لما دقت ساعة فراغي من تقييدي، طويته وخبأته في صندوق،

واستأذنت السيدة خدوج في الذهاب إلى وجدة على بغلتها  
لقضاء أغراض ملحة، فهيأت لي وزينب رحلي وشحتاه بالطعام  
وسلل خضر وفواكه لأسلمها للفقير المراتي، ثم وهما يودعاني  
ويدعوان لي استحلفاني أن لا أطيل الغيبة، فانطلقت إلى وجهتي  
معمم الرأس، مجلبب الجسم، مقصوص اللحية، لا خوف عليّ  
ولا أنا أحزن.

أضيت في المدينة خمسة أيام حافلة بالأنشطة والإنجازات:  
بكرت إلى مركز تحاقن الدم حيث تبرعت بشيء من سائلي  
الأحمر لقاء إطلاعي على حالة مناعة المكتسبة، وبعده قصدت  
صانع أسنان فاقتلع من دون تخدير ما تبقى لي منها نخرا  
متداعيا، ووعدني بتعجيل إعداد فكين على مقاسي ينسياني  
فمي الخرب.

ليلة اليوم نفسه أمضيتها في مكتبي حيث جمّعت تحت  
ضوء شموع ما أمكنني إنقاذه من كتب لم يأت عليها قضم  
الفئران ودودات الورق، وخزنتها في صندوق ما زال يحفظ  
بعض حوائجي وألبستي وكناش حالتي المدنية. بعدئذ توضأت  
وصليت قبل أن أستسلم للنوم متدثرا بجلبابي.

غداة اليوم التالي، استفتت مفزوعا بتوالي رؤى كابوسية عليّ،  
يعمرها شخوص أعوامي السجنية المرعيين وأحداثها المفجعة  
الجسام. انتفضت وهرعت إلى الجامع حيث توضأت وصليت  
الفجر واستخرت، ولا أحد من المصلين تعرّف عليّ، وكذلك

كان حالي مع المارة بعد أن غادرت الجامع. زَيَّي التقليدي ولحيتي الشيباء وسنوات غيبتني، كل ذلك أضفى عليّ صفة المغمور أو الوافد الجديد. وحتى أنا في ارتيادي للأسواق والقيصرية والأمكنة العامرة، قليلة هي الوجوه التي استذكرتها لِمَا يلحق الناس من تغيرات بفعل التوعكات الصحية، والتقدم في العمر، وزحف الشيخوخة. سنة الله في خلقه ولا تجد لستته تبديلاً.

تناولت فطوري على عجل، وبعده يمت وجهه مركز تحاقن الدم حيث استلمت نتائج تحليلاتي. طلبت من رئيسة الممرضات طمأنتني على سلامتي من السيدا، فقالت مبشورة: كل شيء بخير، فنزل عليّ قولها يمانا وسلاما. قَبَلْتُ يديها فرحا مبتهجا إذ أدركت أن الله نجاني مما فعلته الغولة بي وفتح لي سبيلا سالكا إلى الزواج الشرعي، لا يتحمل المزيد من التلكؤ والإبطاء، سيما مع من مثلي أضاع سنوات في غياهب السجن، وأخذ يطرُق باب الخمسين. فما إن زرت الفقيه الفاضل حمدان المزاتي بعيد عشاء يومي الثاني حتى خاطبته في هذا الشأن بالذات، وأنا أسلمه سُلُل الغلة من التي أتمنى أن تصبح حماتي. تنورت قسمات الرجل ونادى علي زوجته أن تحضر العشاء. قال:

- والله، يا ابني، ما تنويه يُسَجِّل لك في الحسنات. تَسْتَرِ بنتا طيبة وتبر بها، ترعاها وترعاك، وتحسّن دينك بزواج حلال... بالأمس جاءني مقدّم منطقة أنكاد يسألني عنك وعن سبب إقامتك

في ضيعتي، أجبته بما رده على عقبيه خجلاً معتذراً. والآن وقد عزمت، لا خوف عليك من المقدم ولا من أيّ كان.

رآني متردداً في قول شيء. أتت زوجته مرحبة مهللة. قمت للسلام عليها. ملأت المائدة بالصحون وقالت وهي تعود إلى شواغلها المنزلية إن الحاج حدثها عني بالخير وإني هنا كما في بيتي.

استأنف الفقيه كلامه:

- رُزقتُ، حمودة، ابنان، واحد مات في ظروف غامضة، والثاني يجوب البلدان بعلمه وخبرته العصرية. وأنت الآن بمثابة ابني. كلّ أولاً، وبعده قل لي ما يقلقك ويشغل بالك.

اقتت بالقليل. مسحت يديّ وفمي، قلت:

- جزاك الله يا حاج عما تفعل من أجلي. لكن بعيد زواجي بحول الله لا بد أن أجد عملاً حلالاً أتعيش به وأعول أهلي. رأيي أن أبيعك المكتبة حتى أتملك بئمنها قطعة من ضيعتك أو بجوارك. نفسي تضيق في المدينة وأمكنتها المغلقة، هذا ما جناه السجن عليّ والشكوى لله. لذا لا أراني أشتغل وأنفَس واسعا إلا في البادية، أفلح الأرض، أزرعها وأسترزق بمحصولها وغلاتها... شأن آخر يشغلني الآن وقد أتممت تحرير شهادتي: كيف لي أن أنشرها حتى تصل إلى من يهمهم الأمر؟

نظر الشيخ إليّ نظرة ود وحنان:



- التآني من الرحمن، يا حمودة، والعجلة من الشيطان. كل شيء في وقته. القطعة الأرضية تحصل عليها كما تريد وترضى، لكن ليس الآن. طبع تقييدك يتم بعون الله، لكن ليس الآن. أما زواجك فبرّ، وخير البر عاجله... يوم الجمعة بعد العصر نقصد الضيعة مع عدلين، تعقد على زينب، نقيم عشاء احتفاءً بالمناسبة السعيدة، وبعدها لها مدير حكيم.

سكت الشيخ لحظة، اقتات خلالها باليسير ثم استل من شكارته ظرفاً مختوماً، قال:

- هذا مبلغ من المال، أقرضك إياه قرضاً حسناً، لا فوائد ولا ربا. ترده إليّ متى استطعت. اشتر منه ما تحتاجه ويخصك، لا تنس لباس العريس والعروسة. عشية اليوم الموعود عليك بارتياح أقرب حمام من داري. وإلى أن يحين يوم السفر تبيت هنا عندي. قم الآن إلى الغرفة أمامك تنل ما أنت في أمس الحاجة إليه: الراحة والنوم الهادئ.

لم أجد من وسيلة لشكر الشيخ على بره وإحسانه سوى الإكثار من تقبيل رأسه ويديه قبل الذهاب إلى ما أشار عليّ به.

عشية يوم الخميس اشتريت مقتنيات وألبسة، ركبت طاقم أسناني الجديدة، اغتسلت في الحمام كما لم أغتسل منذ سنين، صليت مع الشيخ صلاة العشاء في مسجد الحيّ، ودعا كل منا للآخر بخير دعاء. صباح يوم الجمعة، أحضرت من مكتبتني

صندوق الكتب الناجية، ويعيد صلاة الظهر كان الفقيه الأجل  
في شاحنته ينقلني بمتاعي صحبة زوجته وعدلين.

في الضيعة، استقبلتنا خدوج وزينب بوجهين مشرقين،  
مبشورين؛ ثم هبتا لإحضار أطعمة وأشربة. وما إن استوى  
المجلس حتى فاتح الشيخ الأم في طلبي الزواج من بنتها  
على سنة الله ورسوله، فأتى جوابها بثقيلة الصلاة والسلام  
على رسول الله متبوعة بسلسلة زغاريد، لا شك أن أصدقاءها  
وصلت إلى أقرب الجيران؛ أما البنت فقد أملت بها نوبة انفعال  
وفرح شديدة، فخرجت تجري في الحقل وتقفز. وبعد أن آبت  
إلى رشدتها ودنت من الجمع دامعة العينين، محمرة الوجنتين،  
أجابت وهي على تلك الحال بنعم على سؤال العدلين في  
الموضوع، فحررا عقد النكاح الشرعي، وبعده قرأنا الفاتحة،  
وصلينا العصر، وذبح الشيخ كبشا وأعدده للطهي، فيما انهمكت  
الأم والعروسة بمساعدة جارات، مهنئات مزغردات، في  
إعداد وليمة شهية معتبرة، فمر العرس بفضل الله وتيسيره  
بحضور بعض الجيران والمقدم، وتنافست خلاله النسوة في  
إطلاق ألستهن بين جنبات فضائهن المخصوص بالزغاريد  
والأهازيج، مصحوبة بالتصفيق الموقّع والضرب على البنادير  
والطبول والنقر بالملاعق والكؤوس في الطسوت والصحون،  
بينما أخريات، حسبما علمت، كنّ يغسلن جسم العروس  
ويعطرنه ويزينه باللباس المواتي والحلي النفيسة.

أما نحن الرجال فقد قضينا بين أداء صلاتي المغرب والعشاء  
أوقات روحانية في تلاوة ما تيسر من الآيات البينات وإنشاد  
بعض الأمداح النبوية والأوراد الصوفية، كان لي فيها قصب  
السبق وأحيانا الصوت الأوحى. وفي لحظة استراحة مال  
عليّ الفقيه وليّ نعمتي وهمس سائلا: من أين لك كل هذي  
الخيرات؟ أجبته في أذنه مبتسما: يسرها لي ربّي أثناء دراستي،  
وكانت زادي الروحي وذخيرة أنسي وصبري طوال سنوات  
حبسي... تخرج العدلان والقايد من قصر باعهم في استظهار  
الآي ونصوص السمع الراقي، فانتفضوا ما إن تعشوا وانصرفوا  
شاكرين داعين لي ولزوجتي بخير دعاء.

### (ب)

نعم يا نعيمة، أنعمك الله ونعمك!

لما جاءت ساعة الدخلة، قصدت وزوجتي غرفة أعدت لنا،  
نختال في لباسنا الأبيض الطاهر، تصحبنا النساء بالتكبيرات  
والهتافات والأدعية، حتى إذا أغلق الباب دوننا، عدن إلى  
نشاطهن لإعداد فطور «الصباحية».

هأنذا وجها لوجه مع زينب وقد صارت حرمي. في صحبتها  
سأعيد تعلّم أبجدية الحياة، وأعلمها عما قريب القراءة والكتابة  
حتى تأخذ ذات يوم كتابي - الشهادة بقوة وتفهم ما فيه.

هذي الليلة الغراء نقطة بداية ولبنة انطلاق لحياة، أدعو الله

أن تخلو ما أمكن، في الحاضر والمستقبل، من هجمات العسف  
والعبث والكدورات...

الدموع المنهمرة على خديّ قرينتي دموع فرح باكتشاف  
سحر الزواج الحلال، ودموعي أنا هي لهذا الفرح أيضاً، لكن  
يعززه ويشحذه فرح آخر، فرح الإفلات من الردى الرديء  
والموت المجاني، وهذا بفضل من الله ومنك يا نعيمتي ووليّة  
نعماي.

ولعلمك أيضاً يا واسطة الخالق في إنقاذي، هأنذا في الحقل  
بين كتاب أقرأه وأرض أحرثها مع زوجتي وحماتي، أنتشق ملء  
رثيّ هواء حرיתי المستعادة، وأنتعش به رفقة زينب منتزهين  
على بغلتنا بين وادٍ وعينه ومرتفعات بني سناسن ومغارة الجمل.  
نترجل أحياناً ونتسابق جرياً في الغاية والمسالك الواطئة، فوالله  
لمنافسة الأرنب أسهل عليّ من مجاراة زينب. وحين تتوقف  
رأفة بي من أمسيت أسميها غزالي، أقيس جناية أعوام السجن  
على نفسي ورثيّ، وأحمد الله على أنني ما زلت حياً أرزق،  
ولي متع أجتنيها، منها مثلاً بعد الجري مجالسة عقيلتي الطيبة  
البريئة على العشب الوفير، متفيتين ظلال أشجار مورقة وارفة  
وبجوار ماءٍ غدير، فتجاذب أطراف الحديث، تُقبل يديّ وأقبل  
يديها، تنداعب، نتلامس، نصيخ معا السمع إلى نمو الجنين في  
بطنها...

كل يوم يمضي - وانعماء! - يقصر من نقاهتي، يبدّد ربوي كأن

لم يكن، يقلل من توارد الرؤى الكابوسية عليّ ليلاً، يدينني دفعة بعد أخرى من شفاء واعد، إن من الله عليّ به وتكرّم.

ها الرجل الصالح، الفقيه المزاتي يملكني الضيعة كلها بموافقة خطية من ابنه الأوحد، ويترك المكتبة في ملكي رجاءً أن أفتحها ذات يوم لطالبي أنوار المعرفة، ولو على قلتهم.

وها حماتي - التي أشهد أنها من الحموات الطيّبات - أسعد بها وتسعد بي. فما مر يوم إلا وتحاكينا نكتا ونوادر نقية مليحة، من ذلك مثلاً أنني استغربت ذات يوم غياب ثور في حظيرتها، فقالت لأن البقرة هي الأنفع برحمها وما يلد ولبنها ومشتقاته، وهي بالتالي الأحق بالعلف والعناية؛ أما الثور فتستعيره بالمجان في مدة معلومة، يخصب خلالها بقراتها وتعيده توا إلى مالكة... ومن كلامها البديع أيضاً أنها استضافت ذات ليلة زوجين فاسيين. وفي الصباح قبل الفطور وقفنا متعجبين من وفرة الدجاج والديكة والفراخ، فسألها الرجل عن سر ذلك، قالت لأن الديك كثير النكاح، فمالت الزوجة على بعلها هامسة: هل سمعت؟ واستوضح الرجل حماتي إن كان الديك يفعل ما يفعل مع دجاجة واحدة لا غير، فاستضحكها وقالت: بل له كل الدجاجات هنا وحتى دجاجات الجيران، فمال الزوج على امرأته هامساً: هل سمعت؟

أما مخطوطتي شهادتي فلم تجد بعد من ينشرها، إلا من طابع سخيّف أرعن، اشترط لذلك أن أدفع مقابلاً مادياً مُهمّاً،

متذرعاً بكساد سوق الكتاب، وأن أشطب على كثير من فقراتها  
وتعابيرها، نظراً لكلامها اللاذع في الساسة والسياسة أو لمسها  
الخادش بالحياء والأدب العام. لم أر فائدة في تذكيره بالقول  
المأثور: حاكي الكفر ليس بكافر، ويُقاس عليه حاكي الفُحش  
والفسق. وذهبت حماتي المهمومة بالأمر إلى أن عرضت عليه  
بقرةً مقابل أن يفعل، فقبل هذا الرديء العرض مزيداً بكبشين  
وفراخ، غير أنني رفضت جازماً أي حذف أو تشطيب يلحق  
خميرة معاناتي وسجل عذاباتي، فولى الرجل الدبر، ممتنع  
الوجه، خالي الوفاض.

اليأس ليس جبلي ولا مهتي. وقد يأتي الأمل في شأن  
مخطوطتي كما في غيره من حيث لا أحتسب، أو من تحركات  
لا بدّ أجريها في العاصمة الرباط ولدى جمعيات حقوقية  
مُنصّية وازنة... فهل كنت أنجو من محنتي لولا صبري الأيوبي  
وتمازجي وتحامقي، كما نصحت يا نعيمة؟! وهل كنت أتصور  
أن أتزوج في هذه البلدة وأرى زينب حاملاً مني لولا مدد رجل  
صالح خير وعلمي بوصية سيد المرسلين: «إذا أفضيتم إلى  
نسائك فالكيس الكيس» لطلب الولد؟! وللكلام صلة يا نعيمة،  
وإن غدا لناظره قريب...

## للمؤلف

### بالعربية

#### الإبداعات

- \* كناش إيش تقول (شعر كاليغرافي)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٧٧.
- \* ثورة الشتاء والصيف (شعر كاليغرافي)، منشورات البديل، الرباط، ١٩٨٣.
- \* كتاب الجرح والحكمة، بيروت، دار الطليعة، بيروت (ط٠٢)، ١٩٨٨.
- \* مجنون الحكم (جائزة الناقد للرواية)، دار رياض الريس، لندن، ١٩٩٠.
- \* محن الفتى زين شامة، بيروت، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
- \* سمسرة السراب، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ١٩٩٥.
- \* العلامة، دار الآداب، بيروت ١٩٩٧.
- \* فتنة الرؤوس والنسوة، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٠.
- \* زهرة الجاهلية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٣.
- \* أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤.
- \* جماع الشعر، رياض الريس (تحت الطبع).
- \* هذا الأندلسي! دار الآداب بيروت، ٢٠٠٧.
- \* سيناريات: أفلام تلفزيونية للقناة الثانية المغربية: أمواج البر (٢٠٠٣).
- \* علال القلدة (٢٠٠٤) علاش لا! (٢٠٠٥).

## الدراسات

- \* في نقد الحاجة إلى ماركس، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٣.
- \* معهم حيث هم (حوارات، فكرية)، دار الفارابي، (ط٠ ٢)، بيروت، ١٩٨٧.
- \* التشكلات الإيديولوجية في الإسلام - الاجتهادات والتاريخ، المنتخب العربي، (ط٠ ٢)، بيروت، ١٩٩٠.
- \* في الغمة المغربية، دار شعاع، طنجة ١٩٩٧.
- \* الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨؛ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧ (ط٠ ٢).
- \* في معرفة الآخر، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٣.
- \* نقد ثقافة الحجر وبداءة الفكر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٤.
- \* العرب والإسلام في مرايا الاستشراق (تحت الطبع).
- \* في الإسلام الثقافي (تحت الطبع).

## بالفرنسية

- \* Le livre des fièvres et des sagesses, Rabat, Okad, 1992
- \* Au pays de nos crises, Essai sur le mal marocain, Afrique-Orient, Casablanca, 1977
- \* Le Calife de l'épouvante, Le serpent à plumes, Paris, 1999
- \* Ijtihâd, la face voilée de l'Islam, Paris 1987, réédition Rabat, 2006
- \* Ibn Khaldûn, un philosophe de l'histoire, Paris 1990, réédition Rabat, 2006
- \* Etre en vie et autres méditations, Eddif-Non lieu, Casablanca- Paris, 2007
- \* Le roman d'Abdel sous presse \*



## الفهرس

٩	توطئة .....
١٧	١ - في قبو الصدمة والترويع .....
٢٥	٢ - تصريح وقتي في زنزاني .....
٣٠	٣ - في حضرة القاضي المحقق .....
٤٥	٤ - جريح على لحافي .....
٥٢	٥ - كيف حررت تقريراً في شأني؟ .....
٦٤	٦ - في قبضة سكرتيرة المحقق .....
٧٠	٧ - جريح آخر على لحافي .....
٧٦	٨ - جلستي بين المحقق وكاتبتة ناهد بوسني .....
٨٨	٩ - ماتش المساجين .....
٩٤	١٠ - ليلة تعذيب الأفظع .....
٢٩٣	

- ١١ - هذي أضراري وبعدها حلقوا شعري ..... ١١١
- ١٢ - مع المحقق وكاتبته الجديدة ..... ١١٦
- ١٣ - الرسالة النبراس ومشاهدي لإعدامات ..... ١٣٠
- ١٤ - حصة تعذيب أخرى ..... ١٤١
- ١٥ - من دهليز المعتوهين إلى مرأب «المتمرنين ليوم الحشر» ١٥٢
- ١٦ - بين جذراني: فيروز النصرانية! ..... ١٦٣
- ١٧ - أمام لجنة تسوية البنان ..... ١٧٢
- ١٨ - حال رجلي تسوء والدهليز يمور ..... ١٨٣
- ١٩ - من حظيات المحقق تعيني مفتيا ..... ١٨٩
- ٢٠ - بين المشفى وإشراكي في عمل دفن جماعي ..... ٢٠٢
- ٢١ - في فراش معذبتى، ليلة القذارة والهول ..... ٢١٠
- ٢٢ - أنام قهرا وأفيق على آثار حريق ..... ٢٢١
- ٢٣ - من جناح التائبين إلى ملهى ليلي فاجر ..... ٢٢٧
- ٢٤ - من لقاء أخير مع المحقق إلى عنبر الساهرين ..... ٢٤١
- ٢٥ - السهرة الكبرى ومفاجأتها المفجعة ..... ٢٥٧
- ٢٦ - عودتي إلى أرضي الحبيبة ..... ٢٧٥
- تذييل ..... ٢٧٩

## عن الكاتب

بنسالم حمّيش مفكر، روائي وسيناريسـت مغربي. دكتوراه الدولة من جامعة باريس في الفلسفة. له أعمال بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. عضو في مؤسسات عربية وأجنبية. يمارس مسؤولية حزبية وأخرى سينمائية. فاز بجوائز، أهمها: جائزة الناقد للرواية (لندن، ١٩٩٠)، جائزة الأطلس الكبير - الفرنسية (الرباط، ٢٠٠٠)، جائزة نجيب محفوظ (القاهرة، ٢٠٠٢)، جائزة الشارقة لليونسكو (باريس، ٢٠٠٣)، ميدالية تنويه من الجمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (باريس، ٢٠٠٩)، جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كتاب (مصر، ٢٠٠٩). يشغل حاليا منصب وزير الثقافة في الحكومة المغربية.



اللوحات للفنان جان دوبوفيه

«عزيري حمودة،

إذا شق عليك أن تصير خديم أعتاب الطغاة وخططهم الجهنمية،  
جاسوساً مخترقاً، عميلاً مزدوجاً، قاتلاً أجيّراً، فعليك بمراودة حل  
قد ينجيك لو أتقنته: أن تتحامق وتتمارض... دُوْخ مستنطقيك  
بأعنى كلام الحمقى والمجانين، هدد معذيك بسعالك وعدوى  
مرضك، لعل وعسى أن يأسوا منك، فيعيدوك إلى موطنك أو  
قريباً منه مخدراً بأفيون، تصحو منه وأنت مراقب بدمليج  
إلكتروني ومستهدف برصاصة في الرأس، تصيبك ولا تخطئ، إذا ما  
رويت قصتك من حولك أو رفعت في شأنها شكاية ضد  
مجهول...».

دار الشروكة  
www.shorouk.com



6 221102 026079